ابراهيم الكوني

ديوان النثر البرّي



ديوان النثر البري

ابراهيم الكوني

ديوان النثر البرّي

الشاعر

طبعة مُقَوَّمة

أُخذ تصميم الغلاف عن لوحات فنّاني ما قبل التاريخ
المكتشفة بمنطقة تاسيلي - نآزجر (ليبيا).

* ابراهيم الكوني : **ديوان النثر البري**
* **الطبعة الأولى**، ١٩٩١.

* **الناشر** : دار التنوير للطباعة والنشر. تاسيلي للنشر والاعلام.

133 Makarios Avenue
Classic House Building - Office No. 4
Tel.: (357 -5) 387463
Fax: (357 - 5) 387464
Limassol - Cyprus

وطن الرّؤى السماويّة

«لقد كانت الصحراء دائماً وطن الرّؤى السّماوية»
روبرت موزيل
«الانسان بدون مزايا»

١ ـ السَّفَر

استمرّت الصحراء تتمدّد وتتباعد طوال السَّفر. العراء الفسيح، القاسي، الأبدي، يلد في نهايته أفقاً لئيماً. والأفق يلد، بعد مسير، الأفق. وكلّما توغلا في الرحلة، كلّما ازداد الأفق خلوداً، وإصراراً على التوالد. في البرزخ الممدود بين العراء والأفق تدفّق السّراب، ومدّ لساناً لعوباً لا يتوقّف عن الغمز والتغنّج والإغواء. كأنّ العناصر الثلاثة تآمرت، في حلف خفيّ، وصمّمت أن تجعل من رحلتهما سفراً أبديّاً. فطوال أيام وأيام من الامتداد والكشف والعُريّ، لم ترتفع قامة لرابية، ولم يفضح الأفق خيالاً لرتمة أو طلحة أو شبح غزال، كما لم يتنازل الخلاء المكابر فينحني، راكعاً الى أسفل، ليفضي إلى وادٍ. مضى يتغطّى بسجّاد من الحصى، ويتكسّى بطبقة رقيقة من الحجارة حرقتها نار الشّمس الخالدة. فوق السّطح المكشوف، العنيد لم تنبت عشبة واحدة طوال الأيام الماضية.

في العُلا انحنت فوقهما سماء جرداء، صارمة. تتخلّلها، من حين لآخر، سحب عزلاء، تائهة. في النهار تستبدّ الشمس مهدّدة بعذاب يتمرّد على طبيعة ذلك الوقت المبكّر من فصل الربيع. وفي الليل تسود النجوم في عناقيد كبيرة وتظل ترقص ابتهاجاً بغياب الشمس حتى يدركها نور الصّباح.

في النهار يرحلان ركوباً على ظهر المهري. يجلس الأب على السّرج المنصوب أمام السّنام، في حين أعدّ له مقعداً آمناً في الفجّ الخلفي الذي يقسم الظّهرَ ويجاور

السّنام من وراء. يرحلان في الليل أيضاً عندما يطلع البدر، ولكن الأب يؤثر أن يقطع المسافة مشياً، فيقود المهري ويتركه جالساً في الفجّ يسمع السّكون ويغالب النّعاس.

ولكن الأب لا يتسلّى بالغناء إلا إذا كان راكباً.

يتنهّد بفجيعة ثلاث مرّات متتالية. يتعلّق بالأفق العنيد زمناً. ترتخي الأعضاء المشدودة وتتراخى عن شدّ اللّجام. يتحرر عنق الجمل فيمد رقبته الى أمام ويباعد بين خطواته. ولكن العراء لا ينتهي، والأفق لا يستسلم، والسّراب لا يتوقف عن الإغراء والسخرية. لحظتها يرتفع الصوت الوحيد الذي يقهر العراء، ويركّع الأفق، ويدرك السّراب: ينطلق الصوت خافتاً، خجولاً، متمهلاً، واعداً بالفجيعة. يظل يعلو ويتمادى حتى يتواصل في الموّال الشّجني الحزين: ديـ - يـ - يـ - دا - ا - ا - ا - ا - ه . . .

يتوقف السراب عن العدو. يتراجع العراء. يُقْبِل الأفق. تقترب السّماء من الأرض، ويسكت الكوكب الصحراوي ليتنصّت..

يستمر الموّال الأبوي الفاجع طويلاً.

وعندما يتوقف يهرب العراء من العراء. يتوالد الأفق من الأفق. يركض السّراب ويتلاعب بلسان اللؤم والسّخرية. تبتعد السماء في الفضاء وتهرب الصحراء من الصحراء. وتلبس المتاهة قناع القساوة والصرامة.

تتواصل الرحلة ولا يبقى من الغناء إلاّ الفجيعة وحدها. بعد الأغنية يكتئب الأب طويلاً. يصوم عن الكلام زمناً قد يستمر حتى نهاية المشوار في ذلك اليوم. يتجاهل أسئلته ويغيب في السّكون. يظل ثابتاً فوق السّرج، مشدوداً إلى الأفق العنيد، غير عابىء بدعابات السّراب.

في اليوم العاشر تعب الطّفل وسأل الأب:

ـ أما زال الطريق طويلاً؟

تباطأ الأب في الجواب:

ـ وهل أردت أن تبلغ واو بين يوم وليلة؟

ـ هل هي بعيدة إلى هذا الحدّ؟

ـ واو أبعد من كانو وأقرب من حبل الوريد.

ـ لا أفهم.

ـ هذا ما يقوله الدراويش، ولكن لا بد أن تشقى في الحالتين.

ـ لا أفهم.

سكت الأب. شهق بالفجيعة ورفع صوته بأغنية أليمة.

أراد الصّبي أن يجد المبرر لتسرّعه فانتظر حتى انتهى الأب من الموال فقال كالمعتذر:

ـ أردت أن ألقى جدّي بأسرع وقت. هذا هو السّبب.

فتمتم الأب باقتضاب:

ـ أعرف.

ولكن الإبن لم يتوقف عن السؤال في ذلك المساء. قال:

ـ حدثني عن جدّي!

تحدّث الأب:

ـ لم أره منذ زمن طويل جداً.

في الأفق برز الشطر العلوي من قرص البدر. تابعه الطفل وهو يتمرّغ في برزخ العراء. وعندما اكتمل ورآه يتحرّر من يد الصحراء قال:

ـ حدثني عن واو.

ـ واو وطن مفقود.

ـ مفقود؟

ـ ولكن هذا لا يعني أنها لا تفتح أبوابها لاستقبال الذين يجدّون في البحث

عنها. إذا تعبت هربت منك وإذا صبرت وصلت.

- وأنت؟ هل سبق لك ودخلت واو؟

سكت الأب لحظة. قال:

- كيف أشرح لك؟ واو وطن فريد بين الأوطان. ثمة من يحملها في قلبه ويهاجر بها. وثمة من ينفق عمره طلباً لها.

تنحنح بحدّة ثم أضاف:

- ولكن دعك من هذا. فأنا لم أشأ أن أذهب وأتركك وحيداً في الواحة. لأنني إذا دخلت إلى واو فمن الصّعب أن أخرج منها ثانية.

- لماذا؟

- ماذا أقول لك؟ لكل أرض مزايا. هذه مزيّة من مزاياها. ولكن قل لي...

سكت قبل أن يضيف:

- ألست سعيداً بأنني لم أتركك في الواحة وأذهب وحيداً إلى واو؟

- طبعاً.

- ألم يتعبك السّفر؟

- أبداً.

- أحسنت. راهنت دائماً أن تكون صبوراً. الرَّجل لا بد أن يتعلم التعب إذا أراد أن ينتمي إلى الصحراء.

- قلت لي ذلك كثيراً.

- هذا ما لن أملّ من تكراره.

- ولكنك لم تحدثني عن واو. جدّتي تقول انّها وطن الجنّ.

- أهل الواحات لا يرون في الصحراء إلا الجنّ، ويزعمون أن أهلها أنفسهم

أشباح.

غالب الإبن ضحكة وهو يقول:

ـ جدّتي تقول ذلك أيضاً.

ـ لا تستمع لما تقول، يجدر بك أن تتباهى بالإنتماء إلى الصحراء. هل أنت فخور بأنك ابن الصحراء؟

أجاب الإبن بلا تردد:

ـ طبعاً.

ـ أحسنت. هذا يعني أن واو ستفتح لنا أبوابها.

ـ ...

ـ هذا سيروق للحاجب. يقال أنه لا يفتح الأبواب إلا لعشّاق الصحراء.

ـ حقّا؟ ظننت أن الباب يحرسه الثعبان دائماً.

ـ ثعبان أو حيّة أو ضبّ. القناع لا يهم. يروق له أن يلبس ثياب ثعبان.

ـ قلت لي مرّة أنّ الثعبان عدوّ، لأنه طرد الجدّ من وطنه واو.

ـ عدوّ وصديق. عدوّ لأنه شرّدنا، وصديق لأنه يشفق علينا من التّيه ويفتح لنا أبواب واو في أية لحظة يشاء.

هرش الطّفل رأسه الذي يشقّه الشّعَر كعرف الدّيك. سأل بعد تردد:

ـ ماذا يفعل النّاس في واو؟

ـ لا أدري. الصحراوي نسي منذ خرج من هناك. النسيان لعنة المشرّدين.

ـ هل هم سعداء؟

ـ لا شك في ذلك. لو لم يكونوا سعداء لما قتلهم الحنين شوقاً للعودة.

ـ جدّتي تقول أن أهل الصحراء أشقياء وواو لا وجود لها.

ـ لا تستمع إلى جدّتك أبداً إذا أردت أن تنتمي الى الصحراء. أهل الواحات يقولون ذلك لأنهم عبيد.

ـ قالت لي عندما خرجنا: «تذكّر أنّ واو هي السّراب. أبوك ضائع ولا يعرف ماذا يريد». هكذا قالت.

سكت الأب. أنصت للسكون. متع البدر فوق الأرض قامة. تكلّم الأب:

ـ تقول ذلك لأنها لا تريدك أن ترافقني إلى واو. جدّتك تريد أن تشدّك إلى الأرض لتصبح عبداً مثلها.

ـ لا أفهم.

ـ من الصعب أن تفهم ذلك قبل أن تصبح صحراوياً. ولكن تذكّر أن كل من أمسك معزقة وخدش الأرض فهو عبد. كل من بنى كوخاً وسكن بجوار العين فهو عبد.

ـ لماذا يا أبي؟

ـ من الصّعب أن تفهم ذلك قبل أن تصبح صحراوياً. الإنسان في الصحراء لا بد أن يكون إما نخلة مشدودة الى الأرض بالجذور، وإمّا ريح القبلي التي تهاجر دائماً. الفلاح هو النخلة، والصحراوي هو القبلي الذي لا يتوقف عن السفر. فأيّهما أنبل؟

ـ القبلي!

ـ أحسنت. أيّهما تختار؟

ـ القبلي!

ـ أحسنت.

سكت الأب فسكت الإبن. متع البدر اشباراً أخرى فتوغلت الصحراء في الجلال والسكون.

قال الأب بلهجة غامضة:

ـ ليس الفلاّح عبداً لأنه يعشق الأرض، ولكن لأنه يقبع في الكوخ منتظراً منها الإحسان!

هتف الطّفل بدهشة:

ـ الإحسان؟

ـ كل من انتظر عطيّة فهو عبد. العطيّة قيد حتى لو كانت من الأرض.

ـ ...

ـ حياة الفلاّح كلّها انتظار للعطيّة. للخبز. للقمة المسمومة!

هتف الإبن باستنكار:

ـ مسمومة؟

فقال الأب بهدوء:

ـ كل لقمة تستعبد الرّجل فهي سمّ أسوأ من سمّ الحيّة.

ـ والصحراوي. ألا ينتظر الصحراوي عطيّة الأرض؟

ـ أبداً. الصحراوي يتغطّى بالسماء المرشوشة بالنجوم، ويتوسّد العراء المفتوح. يتنقّل كالغزال، ولا يركع لمكان. إنه طليق مثل الطير وليس رهينة تنتظر حلول موسم الحصاد في الكوخ.

من الشمال هب هواء البحري. شدّ اللّجام فتشكّى الجمل ألماً. ترجّل الأب بوثبة واحدة. قال وهو ينيخ الجمل:

ـ هنا سنبيت ليلتنا.

٢ ـ الزعيم

قبل السفر بشهور رحل إلى القبيلة وحاور الزّعيم.

وجده يتربّع على الكليم، يستظل من نار الشمس بحضيض الخباء الشرقي. ينتهك الموقد بالمسعر ويعدّ شاي العشيّة بنفسه. جالسه طويلا. تحدّثا في كل شيء: الجفاف وأخبار السيول. المجاعة والتّجارة. الغزوات وغارات القبائل المعادية. النّبل والعار. الصحارى والواحات. البطولة والجبن. آنهي الأرض وواو السماء. الحرية والذلّ. الحياة والموت.

زحفت العتمة فبدأ:

ـ تحدثنا منذ قليل عن قبح العبودية..

قطع الجملة فحدجه الزّعيم بنظرة استفهام. واصل:

ـ الحق أنّي لا أريد لأبني أن يمتهن الفلاحة فتقع ذريتي، من بعدي، أسيرة الأرض.

بالمسعر رسم الزعيم رموزا غامضة على الأرض. كشفت عيناه ابتسامة متسامحة. ابتسامة حكيم صبور عندما يروّض ولداً شقيّا. رفع رأسه فجأة وقال باقتضاب:

ـ كلّنا إلى الأرض. حتى لو طار العبد الى السماء فإنه يرجع الى الأرض. ليس ثمة مخلوقات أكثر حريّة من الطيور ورغم ذلك فإنها تموت على الأرض.

هتف كأنه انتظر هذا الاحتجاج:

ـ انتظر! لا يحمل كلامي إدانة أو إهانة للأرض. ولكن هناك فرق أن تتنقّل، وتهاجر كالطائر في الصحراء الواسعة وبين أن تمزّق وجه الأمّ بالمحرات وترابط في الكوخ طوال الحياة لتتلقى منها الإحسان.

ابتسم الزعيم مرّة أخرى فواصل المفاضلة بين الأرض والسماء:

ـ وحتى عندما يتعب كوز الطّين ويبيد وتقترب الساعة التي يتحرر فيها عصفور النّور من وزره فإن الأرض لا تأخذ إلاّ كوم العظام. أما العصفور فيطير الى واو.

ـ أنا لا أفهم لغة القادرية، ولكن عشق الصحراء لم يعلمني إحتقار الأرض مثلك.

ـ إنه ليس احتقاراً للأرض، ولكنه احتقار للعبودية. فالنخلة مكابرة، صبورة، متسامحة، ترميها بحجر فتردّه إليك تمراً رطباً، ولكن جذورها مشدودة إلى التراب. السّر في الجذور. هزّ الزعيم بالمسعر في وجهه:

ـ نعم. السرّ في الجذور.

ـ أردت أن أقول انها جذور الذّل.

ـ ولماذا لا تقول انها جذور الحياة؟ لولا هذه الجذور لما أطعمتك رطباً.

ـ آه لو كانت النخلة بلا جذور!

ـ لا شيء بلا ثمن. الجذور التي تسبح في الفضاء لا تعطي التّمر.

ترنّح كالمجذوب قبل أن يتمتم بنبرة فاجعة:

ـ ما أقسى الجذور التي تهبنا التّمر وتضع في أيدينا القيد! ما أقسى الجذور التي تعطينا الحياة مقابل أن ترانا مكبلين بسلسلة طولها سبعين ذراعاً. ما أجمل النخلة لو بقيت سابحة في الفضاء بقامتها المكابرة، الحسناء.

سأل الزعيم ساخراً:

ـ وكيف ستملأ الشكوة الجوفاء التي تحملها بين السُّرة والصدر؟

ولكنه مضى في شطحته:

ـ سأجوع. سأجوع مثل دراويش القادريّة.

ـ الجوع هو الذي سيجبرك على الاعتراف بالنخلة نزيلة الأرض.

- شيخ الطريقة يقول ان الجوع ينصر العصفور ويخلّصه من استعباد البدن. لقد جرّبت في الواحة وتهيأت أيضاً لأن أطير. ولكن شيخ الطريقة قطع صيامي وقال لي أن الأوان لم يحن بعد. لأن المريد لا بد أن يعبر قنطرة اسمها الحياة إذا أراد أن يأتي إلى الخلاص من أقصر طريق.

- لا أفهم في أسرار القادرية، ولكن اليقين أنّك لن تستطيع أن تقطع الجذور بالأرض ما دمت تحيا على الأرض. القيد إتاوة يدفعها كل حي ما دام على قيد الحياة.

- ولكن الصحراويين لا يدفعون هذه الاتاوة.

هنا ضحك الزعيم لأوّل مرة بالصّوت المسموع:

- لا يدفعون الإتاوة حقا، ولكنهم لا يحيون أيضاً. من قال لك أن الصحراويين أحياء؟!

- الدراويش يقولون انهم أطياف والفلاّحون يقولون انهم جنّ!

استمرّ الزعيم يبتسم بغموض. عمّت العتمة. زحف نحو الموقد ومدّه بالحطب.

تربّع وبدأ يعدّ شايا جديدا. تجهّم فجأة قبل أن يقول:

- دعنا الآن من شريعة الواحات وتعال معي إلى عقيدة الصحراء. أنت تعرف أن القبيلة لن تقبل ابن الاغراب حتى لو أراد الزّعيم ذلك.

استنكر القساوة:

- ولكنه إبني!

فمضى الزعيم بنفس البرود:

- الإبن إبن أمّه. الإبن يمشي وراء أمّه حتى لو كان ابن الزّعيم نفسه. هذه شريعة ورثناها عن الأسلاف، ولم يبتدعها الزّعيم.

قال بصوت كالتّوسل:

ـ ولكنه سيضيع في الواحة. سيصبح فلاّحاً. عبداً. هل يرضيك أن أسلّم ابني الوحيد للذلّ؟

ـ لست أنا من اخترع الشريعة. والزّعيم يكف عن أن يكون زعيماً في تلك اللحظة الجنونية التي يخالف فيها تعاليم الأسلاف.

ـ ولكنّك تعرف أني مهاجر وحيد ومعلول، ولا أستطيع أن أصنع منه رجلاً صحراوياً إلا في القبيلة. ثم.. ثم لا تنس أنه يتيم الأمّ. هو وحيد مثلي..

ـ التعاليم تقول ان الرجل يدفع ثمناً قاسياً إذا وافق هواه. أظنّ أن دراويش القادرية أيضاً يقولون شيئاً من هذا القبيل. أردت أن أقول ان الرجولة تقضي بأن نتحمّل ثمرة الهوى. وأنت تعرف متى ارتكبت الخطأ.

هيمن صمت. توجع الحطب في النّار وشحن الصمت بمزيد من التوتر.

قال:

ـ اعترف أن ذلك كان خطأ. ولكنه خطأ مبرّر. أقمت في الواحات طلباً للعلم والحق. والانسان لن يظل بلا امرأة إلى الأبد حتى لو أراد.

ـ سوف نختلف هنا. أنا أرى أن على الرجل ألاّ يتخذ امرأة إذا أراد ألاّ ينجب عبيداً.

ـ ولكن الصحراويين ينجبون ذريّة للحريّة.

هبّ الزعيم:

ـ ذريّة للخلاء. للفناء. ما هي الحريّة إن لم تكن فناء؟ ما هي الصحراء إن لم تكن فناء؟ ألم نتفق منذ قليل أن الصحراوي هبّة ريح في الهواء، وهباء في الفناء؟ ألم نتفق أن الصحراوي، لهذا السبب، لا يحيا؟

سكت ثم أضاف بيقين:

ـ من جاء بذريّة من امرأة الأغراب فعليه أن يدفع الثمن بروح راضية.

ـ ما أقسى الثمن عندما يكون عبودية!

ـ أيّهما أقسى: العبودية أم الفناء؟

أجابه يومها بلا تردّد:

ـ العبودية.

وكرّر:

ـ العبودية يا جلالة الزعيم.

تكلّم الزّعيم بعد صمت:

ـ أعرف أن شيخ الطريقة زيّن لك الصحراء وشبّه لك الفناء نعيماً. يقال ان اتباع الطريقة القادرية يرون في الفناء نعيما. بحثوا عن الفناء في السماوات إلى أن وجدوه على الأرض، في الصحراء. بعضهم يعشقون الصحراء أكثر من أهل الصحراء أنفسهم، هذا ما فتنك وغذّى فيك السّفر.

ـ لم يغذّ في النزوع الى السفر غير الصحراء. في السفر دواء علّتي.

ـ لا دواء للعلّة عندما تكون في الصّدر.

بدأ يخلط الشاي ويصنع الرّغوة وأضاف:

ـ ولا حماية للذريّة من العبودية غير قهر الهوى والزّهد في المرأة!

هتف موافقا:

ـ صدقت. الاقتران أصل البلاء، ولكن لا تظن أن الرّجل يرتكب هذه الحماقة بدافع الرغبة دائما. رجال كثيرون يفعلون ذلكِ لا لشيء إلاّ لأنهم ورثوه عن آبائهم.

ـ والآباء يقولون انهم ورثوه عن الاجداد، والأجداد يقولون انه وحي سماوي يحمي الحياة من الزّوال.

ـ هذا الوحي السماوي الوحيد الذي على الانسان أن يكفر به.

ـ أستغفر الله.

مدّ له الشاي في كوب خشبي. اقترب منه الزّعيم وقال:

ـ حتى لو خالفت الشريعة وقبلته في القبيلة فإنه سيعيش منبوذاً. عبداً.

ـ أن يعيش عبدا في الصحراء أهون من أن يعيش فلاحاً في الواحات.

ـ أنت تخطىء وتعتدي على الناموس الحكيم. إذ ما هي الأم إن لم تكن الأرض؟ كل الثمار تنضج بمساعدة الأرض، وكل ثمرة هي جنين للأرض. اللّقاح يأتي به الرّيح طائرا في الهواء، ولكن البلح ينضج في النخلة المشدودة الى الأرض بالجذور. دور الرّجل أيضا عابر. فلماذا تلوي العصا في يد الناموس ولا تريد أن تتخلى للأم عن جنينها الذي ولدته؟

ـ ولكن أنت تعلم أن أمّه ماتت.

تضاحك الزعيم باستخفاف:

– وأنت تعلم أيضا أنها حيّة فيه.

ثم اقترب منه مرة أخرى. مال نحوه برأسه حتى سقط طرف عمامته على منكبه. قال:

ـ سأذيع لك سرّا. أنا أريد أن أخفف عليك فاسمع سرّي.

سكت فجأة. تمهّل لحظة ثم أذاع السر:

ـ أنت لا تعلم أن لي ابنة من امرأة زنجية.

ـ لا!

ـ عقدت عليها في كانو منذ زمن بعيد. كنت أقوم برحلة تجارية وأنا في عمر الهوى والحماقات. راقت لي فتزوجتها. انجبت بنتاً. والبنت الآن في عصمة زنجي.

ـ لا!

ـ نعم. نعم. ولي حفيدة زنجية. هل تصدّق أن حفيدتي زنجيّة؟ هذا هو الثمن الذي دفعته مقابل خطأ الهوى. مصيبتك أهون بكثير كما ترى.

ـ ولكن كيف وافقت أن تزوّج الفتاة لزنوج الأدغال؟

ـ وماذا أفعل بها؟ إنها ابنتهم. لم أرد أن أخالف شريعة الكوكب الصحراوي.

ـ شريعة قاسية!

ـ أنت ترى أنها قاسية وأنا أرى أنها حكيمة. فحتّى لو خالفت وجئت بها الى القبيلة فإن حظّها لن يكون أفضل. لن يقبلها زوجة سوى زنجي. فآثرت أن أدفع أهون الأثمان وأدفن عاري هناك.

هيمن السكون.

في النار توجّع الحطب.

٣ ـ الخروج

عندما كان يخرج للمراعي وراء الجديان، يجلس فوق الرابية، يراقب الأفق المدهش، وينوح. استمرّت المناحة فوشى به الأقران للأب. في ليلة امتلكها البدر عاتبه بعد العشاء:

ـ لا تبحث عن شيء وراء الأفق. الأفق صديق السراب. يتهامسان ويتآمران ويرتبان المكيدة. إنهما يعدّان لك مكيدة.

لم يرد فواصل العجوز:

ـ الأفق مثل «سخرك ايبراضن»(*) فاحترس!

راقبه طويلا، تحت ضياء البدر، ولكنه لم ينطق، فتكلّم الأب:

ـ ألا تصدقني؟ إسأل العرّاف عن الأفق إن كنت لا تصدقني.

(*) سخرك ايبراضن: طائر ملوّن يستدرج الصغار إلى الصحراء.

لم يذهب لمساءلة العرّاف، فجاء العرّاف بنفسه. زاره فوق الرّابية بعد أن أنصت لمناحته وهو يتخفّى بين أشجار الرّتم في الوادي. وقف فوق رأسه طويلاً قبل أن يتقرفص ويتكلّم:

ـ كلّنا نعشق الأفق. كلّنا ننوح حنيناً لما وراء الصحراء.

سكت لحظة ثم سأل فجأة:

ـ هل تشتاق للمجهول مثلي؟

هزّ رأسه بالإيجاب فسأل نبي الغيب:

ـ هل تقول الشّعر؟

هزّ رأسه بالنّفي فاقترح العرّاف:

ـ يجدر بك أنْ تحاول. الشّعر لغة المجهول. الشّعر صوت الحوريات، تمتمة الجنيّات. شكوى القبلي. سرّ التّرفاس وإيماءة الزهرة في شجرة الرّتم. لا يستطيع الصحراوي أن يقهر السّراب، المتآمر مع الأفق، بدون شعر.

سكت فتكلّم النبي:

ـ هل تجذب في أمسيات السّمر؟

هزّ رأسه بالنفي فاقترح علاّم المجهول:

ـ الوجد نعمة أخرى. اسقط في الوجد وارقص مع النّغم. في هذا أيضاً شفاء.

ولكنه لم يقل الشعر، ولم يذهب لميعاد الصبايا ليسمع النّغم ويقع في الوجد. آثر الخروج والالتحاق بالأفق.

كبر معه الحنين واشتّد. في صباه قال له حكيم الرّعاة:

ـ احترس. الصحراء كوكب فريد. من خرج منه ضاع. هل تعرف لماذا يضيع؟

ألقى في فمه بحفنة من التبغ. قضم من الطرونة قطعة صغيرة وشرع يلوكها مع المضغة.

أضاف وهو يحكم الرّباط حول صرّة التّبغ:

- لأن حدود الصحراء هي الهاوية التي يتحدث عنها الفقهاء. لا شيء وراء الصحراء سوى الهاوية، فاعلم واحترس!

ولكن نداء الخروج كان أقوى فلم يحترس.

خرج مع قافلة وزار الأفق. ابتسم في وجهه السراب وسلّمه لآفاق أخرى. وعده بآفاق أخرى. يتغنّج، ويتدلّل، ويطلع لسانه ساخرا. يبتعد كلّما اقترب منه كما يفعل «سخرك ايبراضن» في مناوراته ومداعباته وشقاوته وشيطنته. صدق الوالد: السراب و«سخرك ايبراضن» قرينان. توأمان، خلقا لترتيب المكيدة نفسها.

نزل الواحة.

التحق بالزاوية القادريّة ليجرّب الخروج الثاني. الخروج الحقيقي. الخروج من الظلمات، من جحيم البدن. والالتحاق بنعيم المعرفة والروح. هنا تعلّم ضرورة الخروج. شيخ الطريقة أيضا قال ان الخروج هو حجر الزّاوية في الطريقة القادرية. فمن لم يخرج لم يجرب، ومن لم يجرّب لم يعرف، ومن لم يعرف لم يشق، ومن لم يذق طعم الشّقاء لم يدخل باب الفردوس.

حدّثه كثيرا عن الحنين والمجهول والسراب والغناء والشّعر والغناء. ولكنه أكّد أن كل شيء يبدأ بالخروج.

وكي يبدأ بتعلّم هذا السّر حبسه في حجرة ظلماء بالزاوية شهرا كاملا. وعندما فتح له الباب وأذن له بالخروج قال له: «لن يخرج من غيهب النّفس من لم يتعلّم كيف يقف مع نفسه وجها لوجه». وقد اعترف للشيخ بعد زمن طويل أن تلك التجربة كانت أقسى امتحان في رحلته كلّها. وكان يبتسم بغموض وهو يسمع الخفاء في لغة الشيخ، فينتهر المريد الدّاخل إليه: «اخرج!» ويصيح في المريد الذّاهب للخروج: «ادخل!». وهي لغة ذكرته بأساليب العرافين في المخالفة وتسمية الأشياء بعكسها. قرأ الشّيخ أفكاره فقال له: «إعلم أن الدّاخل إليك لن يكون جليسك بحق ما لم يخرج من سجنه. من نفسه. واعلم أن الخارج منك إلى الدنيا لن يهتدي إلى الصراط ويعرف ماذا يريد ما لم يتحصّن بنفسه من

السّوى».

بعد ثلاث سنوات من الوجد والدّرس والحبس رأى الشيخ أن الجمرة في قلبه لم تنطفىء فقال له:

ـ المخالطة من آداب المجاهدة أيضاً. ومن لم يخرج إلى النّاس لن يخرج إلى باب الفردوس. فاخرج إليهم، وعاشرهم، واعرفهم، وعش الحياة أوّلاً.

خرج إلى النّاس فكانت المرأة في انتظاره.

لم يكن يعلم أن الأنثى هي الشرط الأوّل للخروج، والزواج هو الإتاوة الأخرى التي يدفعها كل من أراد أن يعاشر النّاس ويمارس الحياة.

حرث الأرض وامتهن الفلاحة. اجتهد في عمله ففاز بثقة صاحب الأرض. صادقه وزوّجه ابنته الوحيدة. جاهد نفسه في الأرض، وفي الناس سنوات أخرى. تعلّم معنى أن تزرع وتجلس في الكوخ منتظراً الإحسان من الأرض. وعرف أيضا وجه الشّبه بين المرأة والأرض.

عادت الجمرة تتوهج فناح في سرّه. صمّم أن يحطم القيد ولكنه اكتشف أن المرأة تشدّه إلى الأرض بسلسلة أطول من السبعين ذراعاً. أنجبت له الولد كي تستعبده بالنّسل كما حاولت الأرض أن تستعبده بالخبز. ولكنه اكتشف أيضا أن الحنين يزداد، ووهج الجمرة يتضاعف ويشتد كلّما اعترضه قيد في طريق العبور والإنطلاق. عاند وجاهد وذهب الى الخلوة في أطراف الواحة وتلوّى ليال كثيرة قبل أن ينتصر الوهج ويقتنع بقطع الجذور.

ذهب الى القاضي وعاد بورقة الطّلاق، بوثيقة الخلاص. بعث بها الى المرأة مع أحد الفلاحين وذهب الى الزاوية ليجتمع بشيخ الطريقة. عبث الشيخ بلحيته الوقورة وقال بغموض:

ـ كيف وجدت الدنيا؟

أجاب بقسوة:

ـ في أسوأ حال. أسوأ مما ظننت!

تكلّم الشيخ بنفس الغموض:

ـ هذا حال الدنيا. ولكن الخروج إليها يبقى شرطاً من الشروط.

ردّ بغضب:

ـ ولكنه من أقسى الشروط.

قال الشّيخ بتسامح:

ـ ماذا ظننت؟ هل ظننت أن بإمكان المريد أن يطرق باب النعيم دون المرور بجحيم النّاس؟ هل ظننت أن الفوز بالجنّة يسير الى هذا الحدّ؟

ثم أخرج مسبحة صنعت حبيباتها من الأبنوس الحبشي وأضاف بلغة الطريقة:

ـ ولكن الطريق أمامك ما زال طويلا كي تفهم.

لم يستطع أن يضبط النَفس فسأل بدهشة:

ـ هل ما زال الطريق طويلا حقاً يا فضيلة الشيخ؟ ظننت أنّي...

ابتسم الشيخ. توقفت أصابعه عن دحرجة حبّات المسبحة. اتّسعت الإبتسامة. انتفض منكباه الجليلان. غالب الضحك. بل ان الشيخ الجليل يضحك. ضحكة حقيقية. بصوت مسموع. بصوت مرتفع. لم يره أبدا وهو يضحك. لم يسمعه مخلوق وهو يضحك. كانت الابتسامة لغته الوحيدة. ضحكته الوحيدة. أما الضحك في شريعته فهو تجديف. الضحك رجس من عمل الشيطان. فما الذي جعله ينتهك الحرم ويكركر بالضّحك؟

مسح دموعاً بكم جلبابه واستغفر وقرأ بعض الأدوار قبل أن يقول:

ـ أضحكتني. ما كان يجب أن تفعل ذلك. ولكنّك طفل. طفل كبير. ولكن الطفولة لا تضير الرّجل. بل ان كل الرّجال العظام هم أطفال كبار. ولكن اعلم أيضاً أن الطريق لم ينته بعد. بل لم يبدأ بعد. الطريق ما زال طويلاً.

ـ ولكنّني تألمت كثيراً يا فضيلة الشيخ.

ـ وماذا تظن؟ الألم هو الحياة. الألم شرط الميلاد.

ـ شرط الميلاد؟

ـ يولد الإنسان للألم. ولا يبعث الإنسان إلاّ بالألم. لا يولد مرّة أخرى إذا لم يتألم.

سكت ثم همهم لنفسه:

ـ الألم شرط الوصول. الويل لمن لم يتألم.

ـ الويل لمن لم يتألّم؟

ابتسم الشيخ مرة أخرى. قال:

ـ إذا لم يتألم الانسان فقد مات غافلاً.

ـ السّوى تقول العكس: من مات بلا ألم فقد عاش حياته سعيداً.

ـ لو كان السّوى يعرفون معنى الألم لما كانوا سوى. لا يليق بالمريد أن يحاجج بلغة السّوى.

توقف الحوار. رفع الشيخ إليه نظرة مستفهمة فعرف المريد أنه قرأ أفكاره مرة أخرى. قال الشيخ:

ـ السّير أيضاً طريقة من طرق المجاهدة، فحدثني بم انتويت.

ـ حقاً؟

ـ إذا غلبك الحنين فسرْ إليه لأنه يدعوك.

ـ حقاً؟

ـ هاجر إليه. سِرْ في الأرض. امضِ. اعبر. ولا تتوقف حتى يفتح لك الباب.

ـ حقاً؟

ولكن الشيخ أغمض عينيه وغاب في الأوراد.

خرج من الواحة وسار في الصحراء سنوات.

استمرّت المسيرة منذ ذلك اليوم.

طاف الصحراء كلها، ولكنه لم يتوقف عن السّفر. يهجع في العراء. أو يبيت تحت شجرة بريّة ويهيم في الخلوة، حتى إذا هتف الهاتف، وسمع النداء، هرع الى الجمل وأسرجه وسلّم نفسه للأفق المتحالف مع السّراب. في ذلك الوقت شبّ الولد وماتت أمّه ملدوغة بعقرب. رأى أن ينقذ نسله من استعباد الأرض وأذى العباد، فذهب للتشاور مع الزعيم. هناك تلقّى صدمة أخرى. هاله أن يترك الولد عبداً في يد قبيلة لا ترى في أبناء المرأة الغريبة إلاّ عبيداً وأغراباً فهل يستبدل استعباد الفلاحة باستعباد القبيلة ويستجير من الرمضاء بالنّار؟ أليس استعباد الأرض أهون من استعباد الخلق؟ ألن يكون بقاءه بين يدي جدّته أرحم وأهون الخيارين؟

طاف كثيرا. هاجر طويلا قبل أن يهتدي إلى الخيار:

«ماذا لو رافقته إلى واو؟».

سمع النّداء في حفيف القبلي، في هتاف الحنين الخفي، في استدعاء الأفق، وإغواء السراب اللعوب. في البداية تجاهله. استبعده باستنكار. ولكن النّداء ارتفع. فهاجر. سافر في الأفق كما تعوّد في الماضي عندما تستبد به شهوة أو يستولي عليه هاجس. تراجع الخاطر في الأيام الأولى، ولكنه ما لبث أن وجد الطريق إليه حتى في سفره. توقّف وصمّم أن يبحث عن السبيل في المواجهة. عرف في هجرته مسلك واو. بحثه الطويل علّمه أن الخروج هو ثمن الدخول الى واو. الأرض البكر لا تفتح أبوابها إلا لمن وجد في نفسه شجاعة الخروج من الصحراء. في أرض الرؤى والسكينة والخلاص الأبدي لا تعترف إلاّ بالشّجعان الذين يشقّون صدورهم ويفتحون لها قلوبهم مقابل أن يدخلوا إليها، في الحرم الموعود. هناك سيضمن الخلاص لنفسه ولذريّته. لن تبقى وراءه نطفته مهدّدة بغول الاستعباد. لن يترك خلفه نسلا والقيد مسلّط على رقبته من السّيف. إذا أخذه معه إلى واو ضمن له السكينة و.. الخلاص الأبدي.

٤ ـ التّرفاس

على سلطة السّراب تمرّد خيال وتبدّى. ظلّ يعوم في ألسنة العرف الفضيّ الذي يغمر الأفق ويتلوّى مع تموّجات السّائل الشيطاني اللّعوب حتى قطعوا إليه مسافة أخرى. بدأت الأرض الحمراء تتبيّن في العلامة فسأل الولد مشيراً إلى الأفق:

ـ هل هي واحة من صنع السّراب أيضاً؟

ابتسم الأب:

ـ حاول أن يمحوها ويمزقها ليصنع منها واحة من واحاته الشيطانية، ولكنه لم يستطع لأننا قهرناه بالعناد.

ـ هل هي واحة حقيقيّة؟

ـ إنها الرّابية الحمراء.

ـ هل اقتربنا من واو؟

ـ أظنّ أن أرض واو سوف تبدأ خلف الرابيّة الحمراء.

ـ حقّا؟

انتصر المرتفع على سلطة السّراب. رفع قامة مكابرة في الأفق فاعتلته مزق من النّار الفضيّة وتسلّقت ظهره في شقاوة. ومضى السّائل الشقي يعارك حتى عندما بلغا الحضيض ووصلا الرّابية.

انتصف النّهار. هبّ نسيم شمالي مبلل بماء البحر البعيد. ترجّل الأب عن المهري وترك الصّبي جالساً خلف السّرج يتشبّث بوبر السّنام.

قاد الجمل ماشياً. انحرف يميناً ليجتاز الرابية.

خلف الرّابية الحمراء فاح الفردوس.

امتدّ سهل فسيح من الحضيض. في الحواف، المكسوّة بحجارة كثيفة سوداء، نما حزام من الحمّيضة الحمراء. في الأسفل، عبر المنحدرات المائية، التي شقّتها بنات الأرض في موسم المطر، تزاحم الفصيص. أفضت المنحدرات الى رقع فسيحة مكتظّة بالبابونج والجرجير والشّيح ونباتات أخرى كثيرة يجهل أسماءها حتى الرّعاة. فتحت الرّقع سُبُلا إلى الوديان السّفلية فأخضر السّدر وأزهر الرّتم وتكاثفت الأحراش البريّة. زقزقت الطيور. وتسكعت الغرانيق في السهل المفروش بالعشب، تضرب الأرض بمناقيرها القانية بحثا عن الديدان، وتتباهى بقامتها المكابرة. عندما نزلا المنحدر رأى الإبن شبحا مدهشا: انسلّ من الأحراش ووثب إلى حاشية السّهل بقفزتين رشيقتين. وقف، في الجانب الآخر، مستنفرا. حفر الأرض الطينية بحافره الأيمن في حركة توحي بالتوتّر والارتياب. كائن رشيق. نحيل. طويل القامة. يعلوه زغب ذهبي اللّون. وفي الأسفل، عند البطن، اكتسى اللّون بياضا ناصعا. رقبته مديدة، رقيقة، مكابرة. تنتهي برأس وديع وفاتن. فوق الرأس استقرّ قرنان صغيران، مرفوعان إلى أعلى. من الرأس أطلّت عينان مدهشتان كحلاوان، علتهما رموش طويلة كحيلة أيضا.

ظل الحيوان يراقبهما بعينيه السرّيتين لحظات. ثم استدار وطار في الفضاء كالسّهم. قفز من الهواء واختفى.

تابعه الابن بذهول. تطوّع الأب بالتفسير:

- إنّه الغزال. هل رأيت شاة أجمل من الغزال؟

لم يجب الإبن فواصل الأب:

- هذا مخلوق لن تراه إلا على أبواب واو.

فاح الرّتم وتضوّع الهواء بأريج الزهور. تنفّس الإبن بعمق حتى شعر بالدّوار. أغمض عينيه ليستعيد الغزال ويحفظه الى الأبد. ولكن الشّبح المدهش فرّ من الخيال كما فرّ من الصحراء، فسأل بلا وعي:

- ولكنّك قلت ان الثعبان يحرس الباب وليس الغزال؟

أناخ الأب الجمل وأجاب مع ابتسامة حزينة:

ـ في مراعي واو دائماً ترتع الغزلان، ولكننا لم نبلغ الحاجب بعد.

أمضيا ليلتهما في سهل الجنّة. وفي الصّباح بدأ طلب الترفاس. في البداية بحثا معاً في السهل الكبير. تناسل العبير في الفضاء وصنع، مع الهواء، الأريج الفريد الذي لا يطمع الصحراوي أن يستنشقه إلاّ عند أعتاب واو. وكلّما تصاعد عطر الجنّة وغزا الموج أنفه، كلّما ترنّح الصبي وهزّه الوجد والدّوار. الوجد هو الذي استفزّ فيه الدّمع فلمعت مقلتاه بوميض بلل أخفاه عن أبيه. تنادت الطيور في الأحراش. ارتفع قرص الشّمس قامة فوق خط الأفق. انبثق بينهما الطائر فجأة. انطلق من فرش العشب وركض أمامهما بساقيه النحيلتين الطويلتين. كان آسرا. صغير الحجم. ذهبي الرّيش. موسوم بخطوط فضيّة عند الجناحين. منقار قانٍ، مستقيم. وقف على بعد خطوات وانتظر. ركض الصبي وراءه فجرى أمامه مسافة أخرى قصيرة. توقف وانتظر. صاح الأب:

ـ احترس! إنه «سخرك ايبراضن»!

فأجاب الولد:

ـ هل «سخرك ايبراضن» وديع وجميل إلى هذا الحدّ؟

ـ السرّ في وداعته وجماله. كيف يستطيع أن يخطف الأولاد أمثالك إذا لم يكن جميلا ووديعا؟

ـ هل سيقودني إلى المتاهة كما تروي جدّتي؟

ـ سيقودك حتماً إذا استسلمت للإغواء ومشيت وراءه.

ـ هل يحرس باب واو أيضاً مثل الغزال والثعبان؟

ـ نعم. «سخرك ايبراضن» أيضاً من علامات واو.

ـ ألن يقودنا إلى المتاهة؟

ـ لقد اتفقنا اننا لن نمشي وراءه.

رأى الأب تردد الإبن فاقترب منه وأمسك به من يده:

ـ يجدر بك أن تتوقف عن المشاهدة. المشاهدة تغري بالمطاردة. ولن ترجع عن متابعته ما لم تشح ببصرك عنه. إنه كالسّراب. إنه سراب!

جرّه من يده وانحنيا فوق الأرض بحثاً عن التّرفاس.

قال الأب:

ـ لو حالفنا الحظ وعثرنا على التّرفاس فسوف تنسيك الطائر.

ـ هل ستنسيني الغزال أيضاً؟

قال الأب بعد مهلة:

ـ نعم. أظنّ أن التّرفاسة هي الشيء الوحيد الذي يستطيع أن ينسيك حتى الغزال.

ـ هل هي لذيذة إلى هذا الحدّ؟

ـ لا أستطيع أن أصفها بلغة أهل الصحراء. ولكن «لذيذة» كلمة لا تصلح لوصف ثمرة واو.

استمرّ التفتيش. الأب ينحني ويتفحّص الأرض بعناية. يتفقّد الفصيص المخضر ويعاين تشققات الأرض باهتمام الباحث المحترف. يقتفي الولد أثره ويتنقّل بجواره. يراقبه بفضول، ويحاول أن يحاكيه في التفتيش والطّلب. قال:

ـ كيف تبدو التّرفاسة؟

أجاب الأب بلا اكتراث:

ـ جوهرة تلدها الأرض وتخرج من الطّين سعياً وراء النّور.

ـ وكيف تلد الأرض جوهرة؟

ـ كل الجواهر بنات الأرض.

ـ ولماذا تسعى إلى النور؟

ـ لأنّها تحن إلى الأبَ. تريد أن تشاهد أباها الذي يسكن السّماء.

ـ وهل يسكن أبوها السّماء؟

سكت الأب. ظلّ يخطو ببطء، منحنياً على العشب، يلوي يديه وراء ظهره. قال:

ـ ألم ترتو الأرض بحبّة المطر؟ السماء وهبتها الحياة في قطرة المطر.

سأل الإبن بإلحاح:

ـ ولكن لماذا تريد أن تلتحق بالسّماء؟

ابتسم الأب:

ـ كل الأشياء التي تولد في الأرض تسعى دائما لأن تلتحق بالسماء. الإنسان أيضاً تلده الأرض ويسعى للالتحاق بالسماوات. كل الأشياء الأرضيّة تظن أن الأصل في السّماء، في النّور.

ـ جدّتي تقول ان في السماء لا يوجد شيء غير الفراغ والرّيح.

ـ لا تستمع لما تقوله جدّتك.

رفع رأسه وتوقّف عن البحث. تفقّد الأرض بنظرة شاملة. قال:

ـ يحسن أن نفترق. التّرفاس يحبّ الخلوة.

هتف الإبن:

ـ الخلوة؟

ـ التّرفاسة ثمرة سرّية. التّرفاسة مثل الجن. تعتزل وتختلي بنفسها مثل الكنز. لا يعثر على الكنز إلاّ المعتزلة. واصل أنت البحث في السّهل، وسأجرّب أنا البحث في المنحدرات.

اعترض الولد:

ـ ولكنّني لا أعرف لها شكلا.

ـ ليس من الضروري أن تعرف لها شكلا كي تجدها. إذا اطمأنّت إليك فسوف

تطلع لك من تحت الأرض. ألم أقل لك أنها شبيهة بالجنّ؟

ـ جنّ؟

ـ ستجد تشققًا في لحمة الأرض. قُلاع من الطين. تلك إشارة الكنز.

افترقا.

بقي الإبن يفتّش في أرض السّهل، وذهب الأب شمالاً لفحص الشعاب الصّاعدة إلى الرّابية الحمراء. استمرّ البحث حتى العشيّة عندما صاح الأب بالنّداء ولوح بيده في الهواء إشارة البشارة. هرع إليه الإبن فقاده من يده إلى موقع الكنز. انحنى الولد فوق كوم صغير من الطّين في حاشية المنحدر. تشققت الأرض الحمراء وارتفع فوق الأرض نتوء دائري غامض، تخلّلته شقوق وثغرات، كما حمل على ظهره، في تمرّده على سلطة الأرض، حجارة وحبيبات حصى. حاولت الأرض أن تستردّ جنينها فلاحقت الثّمرة الخفيّة بأكداس التّراب والطين، ولكن الحياة انتصرت في الكائن الخفي فمزّق القماط الأرضي في القمة ورفع رأسه ليرى الضوء. تبدّى الرّأس في الجزء العلوي فكانت الحيّة في الانتظار. سبقت الإنسان مرة أخرى وقضمت، بالنّاب المسموم، الجزء العلوي من الرأس لتمنعه من الوصول إلى النّور، إلى السّماء، وفرّت بالعصارة، بالثّمرة، بالكنز، بالخلود.

تابع الأب الأثر البشع. العلامة، المرقّطة، القبيحة، على الأرض. إشارة العدوّ الخالد الذي خدع الجّد الأوّل فسرق منه واو وطرده الى المنفى ليعيش العبوديّة والفناء. الثعبان اللئيم سبقه الى الكنز وأخذ البكارة. ولكن الثعبان جاء بالسّر أيضا. دسّ له في التّرفاسة، في ثمرة الجنّات، تميمة ستفتح له ابواب الوطن الأوّل. أبواب واو.

مسح الأثر بنعله خفية عن الإبن وقال بخشوع:

ـ ألا ترى أنها تشبه «إدبني»(*)؟

ـ إدبني؟

(*) إدبني: قبور الأسلاف المستديرة، ينام عليها الطوارق فتنبئهم بالمستقبل وتخبرهم بأحوال المسافرين (راجع بهذا الشأن هيرودوت «التاريخ»).

جثا على ركبتيه بجوار الكنز الدّفين. قال بنفس الخشوع:

ـ إدبني يخفي رفات الأسلاف، ومثوى التّرفاس يحجب السّر. يحجب المفتاح الوحيد الذي يقود إلى واو.

هتف الصّبي:

ـ هل التّرفاس هي المفتاح الوحيد؟

ولكن الأب دعاه، بيدين مرتجفتين، لممارسة شعائر الكشف. همس بقداسة:

ـ اقترب!

اقترب الإبن خطوة. أمسك الأب بيده. غرقت اليد المتردّدة، الخجولة، في اليد الخشنة، الكبيرة، الراجفة أمام الجلال الذي يحسّه كل من شرع في نبش قبر من قبور الأسلاف. كل من أراد أن يزيح الغطاء عن الكنز المغمور منذ آلاف الأعوام. إنها الرّعشة التي تنتاب المجذوب في لحظة الوجد التي ينتظر فيها أن يرى وجه الله. امتدّت يده، امتدّت يدان متحدتان في يد واحدة، وازاحت الغطاء. تهاوت قطعة الطّين، ولكنّها لم تتهشّم. ظلّت متماسكة، صامدة، برغم جفاف الأرض وتبخّر النداوة في الطّين. تبدّى الوجه الخفيّ. انكشف الحجاب عن رؤيا حقيقيّة. لم يلمع الرأس في الضوء بالبياض، ولكنه اكتأب باللون المعتم وسلّط نوره الجليل إلى الدّاخل. إلى الخفاء، إلى المجهول المتقوقع في مكان ما في الجوف، في العمق، في الباطن، في نفسه، في الحدّ الآخر الذي يتلامس مع السّر، ويستمد وهجه وغموضه وجلاله من الله.

التّرفاسة كانت من الصّنف المعتم الذي يميل، في لونه، الى الإحمرار.

قداسة اللحظة انتقلت الى الإبن اليافع فهتف بصوت مخنوق:

ـ إنها حمراء. ظننت أنّها ستكون بيضاء.

ظلّ الأب يتأمّل القمة النّفيسة. الرأس الخفي السّاعي للالتحام بالله. الجنين المتمرّد على سلطة الأرض. التوّاق للتحرّر من كوز الطين والخروج الى خلاء الحرية. توقّف عن متابعة الكشف. تمتم بخشوع:

ـ لون الماء من لون الإناء(*).

ـ لا أفهم.

ـ حمراء، معتمة بلون الأرض الطينية الحمراء، ولكنها ستكون بيضاء لو عثرنا عليها هناك في رمل السّهل.

أزاح قطعة أخرى بنفس اليد المزدوجة، الراجفة المتوتّرة بالشوق والعشق والحنين لاكتشاف الكائن المجهول. هنا تبدّت العلامة. إشارة الفناء التي تركها ناب الثعبان في جسد المولود الخفي. طابع السّر الأزلي. لعنة الخطيئة الأولى، ومفتاح الإنسان الى التّيه والمنفى وصراط الزّوال.

لمعت عينا الأب بالبلل. غالب شجنا مفاجئا. تمايل يمينا ويسارا قبل أن يضبط النّفس من جديد ويعود لنبش الكنز.

انتهت مراسم الكشف.

في المساء بدأت شعائر الخلاص.

٥ ـ الوطن

أشعل الأب ناراً، وجلس الإبن يداعب التّرفاسة بين يديه. يتأمّلها طويلاً، ثم يرفعها إلى أنفه. يستنشق الشّذى الخفي ويترنّح بعينين دامعتين مرددا:

ـ اللّـ ـ ا ـ ا ـ ا ـ ه...

يتابعه الوالد بابتسامة غامضة، يحرّك النّار بالمسْعر ويغذّيها، بين الحين والآخر، بالحطب. تأمّل العراء الجليل وقال بتباهٍ:

ـ أنت الآن في أرضك، على أبواب واو.

(*) العبارة للشيخ الجُنيد. وقد أولاها محي الدين ابن عربي اهتماما خاصّا، وكرّس لها دراسة في «فصوص الحكم».

توقّف الولد عن استنشاق الثمرة. اعترض دون أن يتوقف عن تفحص الترفاسة.

ـ ولكنّني لا أرى جدّي.

اختفت ابتسامة الأب. تمتم بكآبة:

ـ سوف تراه قريباً.

مدّ يده وتناول الثمرة من الإبن. قلّبها بين يديه. تفحّص النقوش السريّة التي كتبتها الأرض على بدن الجنين وقال في نفسه «أنها التمائم التي تضعها الأم في رقبة الوليد كي تعصمه من أخطار الرّحلة». أزاح الجمر بالمسعر جانباً وهيّأ لها مكاناً في رماد النار. دسّها في أحشاء الرمل الملتهب وجلس يتنصّت لمرثيتها وهي تتوجع في الرمضاء. حاول الإبن أن يلقي بسؤال فأسكته بنظرة صارمة. أنصت للعويل الفاجع. حاول أن يميّز الأصوات ويقرأ الدّلالة في رموز الضجيج الأليم:

ـ فسـ ـ سـ ـ سـ ـ س....

ثم تحوّلت الفسفسة إلى صفير. الصفير ارتفع في نحيب كئيب. والنّحيب صعد في نُواح حقيقي. استجاب سكون الصّحراء لفجيعة الثّمرة المقدّسة. فناحت الجنيّات. ولطمت الحوريات الخدود. وهدّد الأفق بالظلمات. ووعدت الصّحراء ببكائية طويلة. بدأت الثمرة السّماوية تنزف.

رشح السّائل القاني من القلب. وسمع الأب النّعي الفاجع. نزلت من مقلته دمعة كبيرة، ولكن الإبن، الأسير، المشدود إلى التّرفاس والوطن، لم يلحظ ضعف الوالد.

تنصّت الأب فسمع لغة المناحة. سرّ الميلاد وفجيعة الحياة. فرح الجنين بالوجود، ومعاناة المسيرة التي ينفقها في الألم والتّيه والمنفى. المسافة الفاصلة بين الميلاد ومملكة النسيان هي الكابوس. اغنية الفرح لا تبدأ إلاّ بعد الخروج. السّكينة لا تتنزّل إلاّ بعد اجتياز المسافة الأرضية، وعبور الكابوس الى أرض النسيان مرة أخرى. في لحظة العبور يفقد الشّقاء البشري معناه فتفتح واو أبوابها. فلا تبك وأنت تتأهّب لدخول واو. ولا تندم على رحلة العبور، لأن البقاء في ذاكرة الغيب أهون من النزول الى صحراء الذاكرة، ويوم تقفل واو وراءك أبوابها

وتستقبلك عارياً أفضل من اليوم الذي خرجت فيه منها منفوشاً مكابراً ملعوناً بالمنفى والضياع.

أكملت الثَمرة السِّرية موّالها. أخرجها من رمضاء النّار موسومة بالنزيف وسياط الجحيم. اختفت تمائم الأم واكتوت بقشرة العذاب. ولكن ندبة الرأس لم تتضرر. النّدبة الجليلة التي مسّها النّاب المسموم. في النّدبة يكمن السِّر. النَدبة هي المفتاح.

وضعها على لوح حجري صغير. تركها حتى بردت. توقّف النّزيف. شقّها بالسّكين إلى نصفين. تعمّد أن يترك الجزء العلوي المحفور بالنّاب. قسّم النصف السّفلي الى قطعتين. ارتفعت الرائحة. تناقل هواء الصحراء الشّذى السّري. الأريج السماوي الذي تتخذه الثّمرة فخّا للإيقاع بالمعاندين الذين يرفضون أن يذهبوا إلى واو إلاّ مكبّلين بالسّلاسل.

تناول الإبن قطعته. راقبه وهو يقضمها. ثم وهو يلوكها. ثم وهو يغمض عينيه ويتمايل مجذوبا. من عينيه سالت خيوط الدّموع. فتحهما وأغمضهما دون أن يتوقّف عن المضغ والجذب والبكاء.

قال الأب وهو يتناول نصيبه:

- كنت أعرف أنّك ستبكي.

تمتم الولد دون أن يمسح دموعه:

- هذا لا يصدّق!

- أنا أيضا بكيت عندما أكلت التّرفاس أوّل مرّة.

- هذا لا يصدّق!

- اجذب. وابك. فعندما يقف الإنسان على باب واو يستطيع أن يبكي، لأن الخجل لن يعود له معنى.

استمرّ الابن يجذب ويبكي. استمرّ يبكي حتى بعد أن توقف عن المضغ وبلع اللقمة السّحريّة.

سأل الأب:

ـ هل ذقت أشهى من هذا؟

هزّ الولد رأسه بالنّفي. تمتم مترنّحاً:

ـ أبداً.

هنا اقترب الأب من القطعة التي تحمل الندبة. النصف المهيب المطبوع بناب الخلود. تهيّأ للوداع. شطره نصفين. تنهّد بعمق. ظلّ يتأمل قطرات النّزيف التي تركتها الثمرة الجريحة. ذبح الحجر وجرّ عليه السّكين ثلاث مرات. توقف وقدّم القطعة للإبن.

هنا ارتعشت اليد حتى كادت القطعة أن تسقط. تلك لم تكن رعشة ولكنها انتفاضة.

تابعه وهو يقضم نصيبه. في البداية أغمض الصّبي عينيه وعاد يترنّح من الوجد والانتشاء، ثم بدأ يتراخى ويغيب دون أن يكف عن الجذب.

بدأت شعائر الوداع.

سقط إلى الوراء. لامس ظهره الأرض. من شفتيه تفصّد زبد ناصع.

تمتم بصوت واهن، خفي:

ـ أبي، لا تتركني.

اقترب الأب زحفاً على ركبتيه. امسك بمعصم الإبن. انحنى فوق البدن المسجّى. قال:

ـ لا تخف. سوف نذهب معاً. سنترافق إلى الأبد.

ولكن الغلام فتح عينيه فجأة فلم ير الأب فيهما سوى البياض. تحامل على نفسه كي يتكلّم:

ـ جدّتي قالت انّك ستفعل هذا.

قفز الأب إلى الحجر. خطف قطعته المطبوعة بندبة الوداع. ألقى بها في فمه بلعها دون مضغ. بعد قليل أحسّ بالخدر والسّكينة والصّفاء. تمتم:

ـ لا تستمع لما تقوله جدّتك.

تساءل الإبن بصوت الوداع:

ـ لماذا فعلت ذلك؟

همهم الأب:

ـ وكيف تريد أن تذهب الى الوطن؟

علا هدير الدفوف. رأى نصل السّكين يرتفع في الهواء ويلمع تحت شعاع القمر. سمع صرخة الشيخ: «لا أرى سعادة للإنسان أكثر من أن يُفْنى عن نفسه(*)، ولن يفوز بالنّعيم إلاّ من وجد الشجاعة ليخرج للنّاس قلبه». استجاب المريد بآهة طويلة، فاجعة، قبل أن يهوي على الصدر بالنّصل. تمدّد النصل. بلغ النّبع. نبع النجاة انقطعت آهة الوجد الفاجعة وتحوّلت من: «اللّـ ـ ا ـ ا ـ ا ـ ا ـ ه ..» إلى: «آ ـ آ ـ آ ـ آ ـ ه» انقطعت كي تتواصل، ربّما، في الفناء، في الخلود. ترنّح الكوكب الصحراوي لأول مرة. انكفأ الأب على جسد الإبن. استمرّ يمسك بيدي الوليد. سقط الرأس على الرأس. غاب جسد الابن في جسد الأب. توحّد الجسمان في بدن واحد لصيق بالأرض. أفلت الطائر من القفص وطارت شعلة النّور. بقي كوز الطّين هامداً، متحدا، مستسلما للتّراب. في العراء الحزين، الخالد، اكتمل نزول العتمة.

موسكو
٥/٦/١٩٩١م

(*) النصف الأوّل للجملة لفريد الدين العطّار النيسابوري «منطق الطير».

الفخّ

(١)

ـ اخنوخن. أنت قتلت أمّي!

سمع الإتّهام بوضوح. وسمع صداه يتردّد في القمم الخفيّة، البعيدة، العارية. توقّف وأصاخ السّمع. ثم بحث في الجبال المجاورة فلم يقع بصره على مخلوق. مشى بضع خطوات أخرى. تكرّر النّداء:

ـ اخنوخن. انت قتلت أمّي!

ألقى الصوت المجهول بالاتّهام فوق رأسه. رفع رأسه إلى أعلى فوجد فم الكهف في مواجهته. ظلمة كئيبة، موحشة، تصلح لإقامة أهل الخفاء. وقف في المواجهة لحظات، ثم استدار ومضى. خيّل له أنه سمع اقداماً تدحرج حجارة خلف ظهره، ولكنه مضى دون أن يلتفت. انتظر أن يتكرّر الإتهام، ولكن السكون الجليل عاد إلى تاسيلي. فكّر في الإتهام. أين ومتى قتل. لا يذكر أنه قتل أحداً حتى في المنام فمن أين جاء المجهول بهذا الإتهام القبيح؟

ليس الهتاف، ولا النداء مدهشاً بالنسبة لرجل مثله عاش حياته كلها في وطن الجن والأشباح تاسيلي، ولكن اللغز هو في الإتهام البشع. فهل تعلّم أهل الخفاء المزاح أيضاً؟

بلغ السفح. بدأ يصعد. انتصف النهار. مسح العرق عن جبينه بذراعه. القى بحزمة الحطب في مدخل الكهف. انصت مرة أخرى. ارتفع لحن السكون الخالد. انتزعت الصحراء المبادرة واستعادت سكينتها الأبدية. شمس منتصف النهار تجبر حتّى الجن على الإنسحاب.

(٢)

تفقّد الخدوش في ذراعيه. تناول حفنة من الرّمل وذرّها فوق الجراح. نهش الملح اللحم فتأوّه. ابتسم وهو يتابع شقاوة الملوحة وهي تتتبّع آثار الحطب، تأكل اللّحم، وتلعق الدّم.

تسكّع في المدخل. استطلع الحضيض فرأى كيف يتمادى السّراب ويمدّ أعرافاً من اللّهب على الرّوابي البعيدة، صانعاً، مع السّكون، الجلال الخفي.

نزّ العرق. عاد يمسح الجبين بكم الجلباب. تفقّد الخدوش. كانت ذراعاه موسومتين بخطوط صنعها الرّمل تشبه القُلاع الذي تخطّه عروق الاشجار البريّة فوق وجه الرّمل. عند طوق التّراب الذي تقيمه الرّيح حول الجذوع. ملوحة الرّمل امتصّت النزيف وأوقفت تدفّق الدّم. جراح المعصمين قدر الحطّاب. لا يذهب لاستجلاب الحطب دون أن يعود بجروح في المعصمين. وكانت أمّه ترش الرّمل على يديه وتقول بتسليم: «ماذا تظن؟ الحطب يريد نصيبه أيضاً. الحطب لا بد أن يأكل نصيبه أيضاً. لا بد أن يأكل قبل أن يؤكل، لا بد أن ينتقم قبل أن يؤكل، لا بد أن ينتقم قبل أن تحرقه بالنّار». تقول ذلك بلهجة جادّة وكئيبة الى حدّ يجعله يشعر بالشفقة والنّدم. يشفق على الحطب المسكين الذي سيحرق بالنّار، ويندم لأنه تسبّب في وقوع الجريمة. في البداية كان يضحك من لغتها ويسخر من قدرة الحطب على المناورة والمقاومة والانتقام فيسأل الأم: «وهل تستطيع حطبة يابسة أن ترغب في النّصيب يا أمي؟ هل يقدر عود ميّت أن يعارك ويدافع عن نفسه؟» فتجيب بنفس اللهجة الجادّة، الكئيبة، الغامضة: «وماذا تظن؟ كل شيء في الصحراء يتألم ويفرح. حتى الأرض الخرساء. حتى الحجارة. حتى ذرّات الرّمل. ألا تستمع الى ذرّات الرمل في السهل عندما تقرع الطبول وتردد الألحان في الليالي؟ إنها تفعل ذلك احتفالاً بالنسيم الشمالي، وفرحاً بالخلاص من حرّ النهار. انظر كم

تبدو يائسة وشقيّة في منتصف النهار. إنها تفتح صدرها وتتعذّب في صمت. إنها تستسلم للقدر ولا تشكو ابداً. ولكن التسليم بالقدر في النهار لا يمنعها من أن تفرح وتغني وترقص بالليل». وكانت تبدأ بشعائرها. تزم شفتيها، وتحدّق في الخلاء الموحش، الفسيح، الممدود في مواجهة الجبال، كأنها تنظر في الفراغ. ثم تبدأ في التمايل، مع شكوة الحليب، يميناً ويساراً. تستمر هذه الصلاة زمناً طويلاً، تمتد حتى القيلولة أحياناً. عندما كان صغيراً ظنّ أن مخض الحليب وتكوّن الزّبد هو الذي يستدعي هذا الزّمن الطويل الذي تنفقه العجوز في الشعائر اليومية، ولكنه فهم، فيما بعد، أن تحصيل الزّبد لا يستغرق ربع هذا الوقت. ومضى زمن أطول حتى فهم السرّ. فهم أن صلاة العجائز الحقيقية تبدأ بعد نهاية الصلاة. العبادة الحقيقية هي التي تصاحب الإيقاع الرّتيب الذي يحدثه اندفاع الحليب في الشكوة إلى الجانب الأيمن، ثم إلى الجانب الأيسر، حسب حركة الأم الى الجهتين. وقد لاحظ أنّها لا تحرّك يديها فقط، ولكنها تتحرّك بكل جسمها. تميل بالجزء العلوي حتى تكاد تلامس الأرض، ثم تميل إلى الناحية المعاكسة حتى تكاد تتوسّد الشكوة. كأنها ترقص. كأنها تمارس الجذب الذي يتقنه الرّجال عندما يقعون في الوجد. الرّجال الذين تستفزّهم الألحان وتوقظ فيهم قوى الجنّ. والشّبه بينها وبين المجذوبين لا يقتصر على الحركة والترنّح يميناً وشمالاً فحسب، ولكن في حالة الغيبوبة أيضاً. فهي، إذا بدأت العمل، لا ترى، ولا تسمع، ولا تفهم، ولا تنطق، ولا ترد على سؤال. تظل واجمة، كئيبة، جليلة، كأنّها تصلّي. عندما تكبّر للصلاة أيضاً لا ترى ولا تسمع ولا تفهم ولا ترد على سؤال.

في ذلك اليوم عندما حدّثته عن عذاب الأشياء في الصّحراء راقب موقد النار. انصت للأنين في اعواد الحطب. تأملها وهي تحترق في ألسنة النار ورأى كيف ينزّ منها سائل معتم كالدّم. قال في نفسه: «إنها تنزف! إنها تنزف!». كان الأنين موجعاً والنزيف يتواصل بلا توقف. مدّ يده وأخرج عوداً نازفاً من الموقد. تحسّس السّائل فوجده لزجاً، قانياً، حارّاً. نزيف حقيقي. دم حقيقي. أحسّ بالغثيان. امتنع عن الطعام في ذلك اليوم. وفي الليل حاول أن يتصيّد الفرح في ذرات الرمل الحزينة. انصت طويلاً. نامت الأم. ارتفع شخيرها في الناحية الأخرى من العراء، ولكنه واصل السّهر. ارتفع القمر. تسلّى بمراقبة القرص السري الغامض. و.. فجأة سمع نشيداً. موّالاً. أغنية حقيقية. فاجعة. تقترب وتبتعد، يصاحبها ضجيج خفي. بعد قليل تبدّى الضجيج واتضح في قرع منتظم، حزين، للطبول. كان فرحاً

حزيناً.

تابع القرص السري، وانصت للفرح الحزين. فلم يشعر كيف فزّت من مقلتيه المفتوحتين دموع حارّة، كبيرة.

(٢)

يروي الرعاة الحكماء أن الصحراوي لا بد أن يموت بالأسباب الثلاثة: الظمأ، السيل، الأمراض الخفيّة. ويؤكدون أن من لم يمت بالأسباب الثلاثة نال عمراً طويلاً. وتقول عجائز تاسيلي أن هذه حكمة لا تخص الرعاة، ولكنها وجدت مزبورة في جدران الكهوف حيث حفرها الأسلاف الأوائل نقلاً عن «آنهي» المفقود.

الأب مات بالسبب الأوّل قبل أن يعي معنى الموت والحياة. والأم ماتت بالسبب الثالث. وهي ميتة أجمع أهل تاسيلي أنها أجمل ميتة يمكن لصحراوي أن يطمع بها. نهض في الصباح فوجدها ما تزال نائمة، مكومة في مدخل الكهف كقطعة قماش بالية. تسند رأسها الصغير بمعصمها وتيمم شطر القبيلة. ناحية الشرق. كانت الشمس تناضل للخروج من الأسر وتتحفّز لتعذيب الصحراء بأشعة النار. أدهشه أن يرى قرن الشمس ولا يجدها تترنّح فوق الشكوة في طقوس وجدها اليومي. أرجع السبب للسهر ورجع عن نيّته في إزعاجها. قرر أن يتركها تتمتع بالأحلام حتى يعود من تفقّد الإبل. ماذا يحدث في تاسيلي لو أشرقت الشمس وعجوز بائسة، متعبة، ما تزال نائمة؟ تعمّد ألاّ يوقظها. ابتسم وهو يتناول وعاء الحليب وينزل الى النوق في الوادي. تذكّر ما تردده دائماً من أن طلوع الشمس على امرأة نائمة أمر يفوق حلول الوباء شؤماً. الأرض التي تشرق فيها الشمس والنساء نائمات لن ترى الخير أبداً. لن تسقط فيها قطرة مطر، ولن تشقّها السيول. فكيف ستبرر غفوتها؟ ماذا ستقول لأشعة الشمس عندما تطلع على رأسها وتضبطها متلبّسة بالنوم؟ أي شؤم ستراه تاسيلي وهي التي لم تر سوى الشؤم منذ عشرة آلاف عام؟ أي شؤم يمكن أن يجرّه شروق الشمس فوق رأس انثى نائمة على تاسيلي التي عانت من العطش والمجاعة والأوبئة وقساوة الشموس؟ أي مصاب آخر يمكن أن يفاجىء به القدر تاسيلي التي ذاقت على يديه

كل المفاجآت؟

عاد بالحليب من الوادي فوجدها ما تزال تتوسد معصمها الهزيل. نفذت الشمس وعيدها وسلّطت على وجهها أشعة نحاسية واعدة بالحريق. انعكست دفقة من الضوء في عينها اليمنى التي اكتشف فجأة أنها بقيت نصف مفتوحة. لا يعرف لماذا أحس بالقلق. ربما لأن السبب يرجع الى هذا التعبير المبهم الذي اثاره فيه انعكاس ضوء الشروق في بياض المقلة. تعبير رآه في مقلة الشاة الذبيحة. تعبير الفجيعة. اقترب خطوات. تحسس يدها فوجدها باردة، كسولة، مثل قطعة حطب. أراد أن ينطق بإسمها. أن.. لم يستطع. تصاعد القلق. ركع بجوارها وهزّها بكلتا يديه. اختل توازن الجسد الهزيل ومال الى الوراء. هجعت على الظهر، وارتفع رأسها الى السماء. تفتّح الجفنان عن كل المقلة اليمنى. رأى التعبير الخفي واضحاً الآن. استسلام، ووداعة، وتساؤل أكثر طفولة.

فهم ما حدث.

أدرك أن لدى القدر دائماً شؤماً آخر يخبئه حتى تحين اللحظة المناسبة. أدرك أن لدى القدر مفاجآت يستطيع أن ينال به حتى تاسيلي التي عرفت كل المفاجآت. مفاجآت يناله بها حتى هو الأعزل، المعزول، المقطوع من صخرة في كهوف تاسيلي.

(٤)

أشعل النّار في الحطب وتربّع في ظل فوهة الكهف. أعدّ وعاء الشاي وانتظر أن يخمد اللهب. رفع رأسه الى السقف وتلهى بمشاهدة الجموع التي أتقن الأسلاف حفرها في الصّخر. رسوم ملوّنة لرجال مردة يرتدون أقنعة، يطاردون حيوانات اختفت من الصحراء. و.. أشباح. تفنّن الأجداد وابدعوا في حفر خيالات الجنّ على الحجر. أوّل تعرّفه على هذه المخلوقات كان على صخور الكهوف. في الصّغر، عندما طارد الجديان الشقيّة في الكهوف وبين شقوق الجبال اكتشف مغارات كثيرة موسومة بهذه الأشباح والعمالقة والغيلان. ولكن الأم ما لبثت أن كشفت له السّر. قالت يوماً بعد أن انتهت من وجد الصباح: «لا تستعذ منهم ولا تلعنهم فهم ليسوا سوى أهلك أيضاً». احتجّ «أهلي؟ الجن أهلي؟». رمقته باستنكار. قالت

بغموض العجائز: «ولم تستنكر؟ كل سكّان الصحراء أهلك. بل هم السكّان الأصليون الذين سبقونا إلى الصحراء. ألا يسميهم الحكماء «كيل أسوف»؟» سكت يومها وفكّر طوال الأيام التالية في صلة القرابة بأهل الخفاء. كان يتنقل بين المغارات ويزيح الأتربة والاملاح والطين عن وجوههم المحفورة في الحجارة ويستعيد ما قالته العجوز. عاد في إحدى الليالي وسألها: «ولكن لماذا يخيفوننا إذا كانوا أجدادا؟» وكان الجواب على شفتيها جاهزاً دائماً: «الجن لا يخيفون أحداً. لا يخاف الجنَ إلا مخلوق شرّير. لا أنكر أنهم مرحون وميّالون للمداعبات في بعض الأحيان، ولكنهم لا يؤذون إلا الأشرار». يذكر ليلتها جيداً كيف سألها: «ومن هم الأشرار يا أمي؟» هنا سكتت فساد سكون الصحراء السري. ظنّ أنها لن تتكلم فتهيأ لأن يعيد السؤال. في النهاية أجابت: «الأشرار هم الذين يقتلون الودّان ويبيعونه لتجّار القوافل. الأشرار هم الذين يصطادون أنثى الودّان وهي حبلى. الأشرار هم الذين يقطعون أعراف الشجر وهو أخضر. الأشرار هم الذين يشوهون وجوه الأسلاف المنقوشة على الصخور. ويخربون خطوط الأولين ويزيلون وصاياهم. أو يسلخونها من أصلها ويبيعونها للأغراب. الأشرار. الأشرار، يا ولدي، كثيرون هذه الأيام». سكتت فعاد السكون السري الى الهيمنة. ارتفع القمر وفكّر. فكّر وفكّر، ثم سأل: «وإذا كان الصياد جوعانا: ألا يبيح له ذلك أن يصطاد أنثى الودّان حتى لو كانت حبلى؟». قالت بوضوح انطبع في ذاكرته الى اليوم، إلى الأبد: «لا يا بني. لا. لا شيء يبيح صيد انثى الودان. لا شيء. حتى الجوع». عاد يعاند: «ولكن ألا يستطيع المهاجر أن يقتطع عوداً أخضر إذا كان البرد قاسيا؟». أجابت: «لا يستطيع. البرد لا يبرر قطع الشجر الأخضر مهما كان قاسياً. لا يجب على المهاجر أن يتدفأ بالشجر الأخضر كما لا يجوز له أن يأكل اللّحم الحي. هل يجوز للإنسان أن يأكل لحم أخيه الإنسان؟». حاججها: «وهل يجوز مقارنة لحم الإنسان بأعواد الشجر؟ هل الشجرة إنسان؟». أجابت بيقين: «شجر. حيوان. إنسان. نحن من صنع هذه الألقاب الغبيّة. وما تسمّيه شجرا مخلوق مسالم لا ينطق ولا يتكلّم ولا يبادر بسوء، ولكن هذا لا يعني أنه ليس أذكى مني ومنك ومن أي إنسان». و... سكتت. انتظر أن تكمل، ولكن السكوت استمر. التفت. رأى، على ضوء القمر، دمعة كبيرة تتلألأ في أهداب عينها اليمنى.

(٥)

أنصت لتوجّع الحطب في النّار. أنين أليم مكتوم. لحن الحزن والشكوى. أغنية الانفصال عن جسد الأم الأخضر. الأم تقول أن هذا التوجّع هو لغات تنطق بها الأغصان الخضراء وتشكو بها الإنسان الى الخالق. التوجع يعقبه النزيف. رأى غصن الطلح ينزف دماً قانياً. دماً موجعاً أيضاً. فكّر أن الحطّاب لا بد أن يقترف الإثم وينتزع عوداً أخضر. أعواد كثيرة تبدو من الخارج يابسة، ميتة، في حين تخفي تحت طبقة اللّحاء حياة حقيقية، وعندما تلقي بها في النّار تبكي وتشكو وتتوجع. إنها مثل الضّب الذبيح. يبدو ميتاً بعد أن نزف وفقد الدّم، ولكنه يقفز من الموقد بمجرد أن تلقيه في النّار، ويجرى في العراء. فكيف يستطيع الحطاب أن يميّز العود الأخضر من العود اليابس؟ كيف يستطيع الصيّاد أن يعرف أن شاة الودّان التي تتقافز بين الصخور كالشّبح انها انثى تحمل جنيناً؟

الأم قالت ان الحكماء الذين يحبّون الصحراء يعرفون. الحكماء الذين يعشقون تاسيلي ويحرصون أن يفكّوا الرموز على الحجارة، ويبكون على «آنهي» الضائع، ويلثمون أجسام الأسلاف في جدران الكهوف يعرفون. لأنهم لا يعقلون الطلح أو الودّان، أو وصايا الأولين بعقولهم، وإنما يحسونها ويتحسّسونها بأبدانهم. سألها في ذلك اليوم: «وكيف يمكن لابن تاسيلي أن يكون حكيماً مثلهم؟» فكان جوابها جاهزاً: «لن يكون ابن تاسيلي حكيماً ما لم يحب تاسيلي. لن تحسّ بالحياة الخبيئة في العود اليابس إلاّ إذا أحببت الطّلح. لن تحسّ أن الشبح هو انثى الودّان إلا إذا أحببت الودّان. ولن تحفظ حكمة الأسلاف وتعرف سر وصايا الأوّلين إلا إذا أحببت نقشهم في الحجر وأثرهم في الصخور. ولن تحبّ تاسيلي إن لم تبكِ حبّاً على تاسيلي. لأن تاسيلي كانت في يوم من الأيام جزء مدهش من السماء. تعايش فيها الجن والانس والودّان والضب والطلح والأثل في فردوس تجري في وديانه سيول خالدة. ولكن الإنسان هو الذي بدأ. الإنسان هو الذي خان العهد ورفع يده على أخيه الإنسان. ثم كاد للجنّ، واصطاد الودّان، وذبح الضّب، وقطّع أوصال الطلح والأثل فقعقعت السماء بالغضب وتزلزلت الأرض، وانفصلت تاسيلي عن السماوات. جفّت الينابيع الخالدة. ووجد الإنسان نفسه وحيداً في العراء .فابك. إبكِ على تاسيلي وتوسّل أن تعود جزءاً من السماء. واعلم أنها لن تعود الى السماء ما لم تتوقف أنت عن صيد انثى الودّان الحبلى، وتتراجع عن قطع الحطب الأخضر. و.. إبك أيضاً. لا تتوقف عن البكاء. الإنسان

الذي يحب لا يجب أن يكف عن البكاء ».

كانت تبكي. ووجد نفسه يبكي أيضاً. وعرف لماذا تبكي دائماً وتفز عيونها بالدمع، كلما جاء ذكر الحيوانات الصغيرة، أو الأشياء الخفيّة، أو الأسلاف، أو الماضي البعيد للصّحراء. و... أيضاً، عندما تسمع همهمات الجن في الكهوف، أو تكتشف عوداً أخضر ينزف في النّار، لحظتها تقهرها العبرة، وتشارك الأشياء في البكاء.

(٦)

في الليل زاره الجنّي لأوّل مرة.

نزل الى الوادي ليقضي الليل بجوار الجمال. نام في العراء المشرف على الوديان الشمالية واستيقظ على حركة الاستنفار في الإبل. كانت قلقة، متوترة، ترفع رقابها في العتمة وتتلفّت في عصبيّة. ولم يقرأ الإشارة في الوقت المناسب لأنه نسى وصيّة الأم القائلة ان للجمال قدرة خفيّة على الإحساس بوجود أهل الخفاء. فإذا ساورها القلق ودبّ فيها الاستنفار فاعرف أن كائنا خفيا قد أقبل.

أحس بقشعريرة. وكانت القشعريرة هي الإشارة الثانيّة التي تجاهلها أيضاً قبل أن يتلقى ركلة قاسيّة على عجيزته اليمنى. هبّ واقفا فتلقّى صفعة أقسى على خده الأيسر. تحسس الخد فهوى الجنّي على منكبه الأيمن بهراوة ثقيلة. وقع على الأرض، وركع على ركبتيه، محاولاً أن يتقي الضربات بيديه وذراعيه. تواصلت الضربات. تأوّه. توجّع. تلوّى على الأرض. صاح بصوت وحشي رددته الجبال: « كفى! كفى! هذا يكفي! ».

توقّف العدوان.

سمع خطواته وهو ينصرف. انكفأ على وجهه وطفق يلهث. بدنه كله يتوجّع، يحترق بحرارة كالحمّى. زحف إلى المتاع وتجرع الماء من الزمزمية. استلقى على قفاه وندّت عنه آهة فاجعة. قال في نفسه: « ما أقسى يده! ما أشرس يده! ». وفهم لماذا يخاف الرعاة من الجن، ومن سيرة الجن، ومن انتقام الجن. حبس أنفاسه

وانصت. عاد السكون الخالد يبتلع كل شيء في الصحراء. الجمال هدأت واطمأنَت. بركت بعض الرؤوس وشرعت تجتر بسكينة واطمئنان. أيقن أن الشبح ابتعد، واستغرب التزامه بالصمت طوال انهماكه في تنفيذ العقاب.

لم يتكلم. لم يتّهم. لم ينطق بالوعيد. لم يعد عليه تهمة النّهار: «اخنوخن. انت قتلت أمّي!». أم أن الجني الذي اعتدى عليه هو مخلوق آخر؟ جني من قبيلة أخرى؟ ولكن لماذا لم يهاجمه جن قبل اليوم؟ لماذا لم يتعرضوا له بسوء طوال السنوات الماضية؟ وهل يعتدي جن على إنس بلا سبب؟ الأم تؤكد أن ذلك مستحيل. تقول انهم مسالمون ولا يحتكمون الى العدوان إلا ردّاً على عدوان، ولا يؤذون إلاّ مخلوقاً شريرا. فمتى ارتكب الشرّ؟ أين ومتى قتل أمّه؟ أين ومتى قتل أمّاً؟

و.. فجأة، وكما يفعل الإلهام، انكشف الغموض. انكشف بوحي سماوي وانبثق في الذاكرة كالضوء: صنع فخاً ونصبه للودّان منذ ثلاثة أيام في وادي «أميهرو»! تضاعفت نار الحمّى. تحولت أوجاع البدن الى قلق خفي تكتّل في قفص الصدر وخنقه بالعبرة. بدأ يرتجف.

(٧)

في الفجر وضع السرج فوق ظهر الجمل وسافر الى وادي «أميهرو».

وصل مع القيلولة. هدّدت الشمس بعذاب النّار. وأطلقت السراب يسرح في الخلاء. ترجّل عن المهري. ترك الجمل يرتع في اشجار الوادي. تتبّع آثاره عندما جاء منذ أيام وقرر أن يتسلّى بصنع الفخ. ولا يعرف الآن سبباً لهذا العمل غير التسلية. فالوديان فازت في أواخر الشتاء بالسيول. النّوق توالدت مضيفة الى قطيعه إثنى عشر حواراً. وحمل له الرعاة بشارة أخرى من المراعي وقالوا له أن ماشيته تكاثرت وتكاد تتضاعف بالجديان. تاسيلي تفيض بالحليب والسّمن والزّبد والأجبان هذا العام. مؤونة السنة الماضية من الحبوب والتمور لم تنفد من المطامير. فماذا دفعه لصنع الفخ غير الملل والتسلية؟.

وما يثير دهشته الآن ليس صنع الفخ وحده، ولكن الثمن الذي دفعه في صنع

الفخ. أطاح بشجرة كاملة حتى يتمكّن من تركيب لعبته المشؤومة. فقد العقل، وأضاع الذاكرة، وخالف أوّل وصية نطقت بها العجوز. وجد الوادي يجري بالسيل، والنوّق تتوالد، والبشائر تتوالى فتكاسل وركن الى الاسترخاء. سها فزلّ وحاكى الأشرار. وإلا من ينسى وصايا الأم، ويخالف تعاليم الأسلاف لمجرّد أن الخير فاض في تاسيلي وعمّ؟ من يغفل عن تقلّبات الصحراء، ويستسلم للاسترخاء دون أن يقرأ حساب يوم يشيح فيه النعيم بوجهه فتعم المجاعة والأوبئة والجفاف؟ من تغريه وفرة الخير ويصنع فخا للصيّد بدل أن ينحر شاة قرباناً للاسلاف وشكراً للآلهة هو الشرير!

(٨)

وقف فوق الحفرة فدقّ قلبه بشدّة.

كانت الحفرة خاوية.

أطبق فم الشرك على الشاة، ولكنها استطاعت أن تخرج من الهاوية وتجرجر المصيدة الى الجبل. اقتفى الأثر. على بعد خطوات خلَف الحيوان بعراً. تناول بعره وهرسها بين أصابعه. بدأت تجف وتتيبّس. البعرة تعود إلى يومين أو ثلاثة أيام. الأرجح أنها ثلاثة أيام. الحيوان وقع. نزل من الجبل ووقع في الشرك في نفس اليوم الذي نصب فيه «لعبته». في مساء نفس اليوم. قطعان الودّان لا تنزل لترعى في السهول إلاّ في الليل. تنزل في قطعان عادة، وتعود لتعتصم بالقمم قبل انبثاق قبس الفجر. ولكن هذه الشاة لم تكن عضواً في قطيع. ربما انفصلت عن القطيع في الوادي المجاور وقررت أن تجرّب حظّها وحيدة. الودّان المسكين لا يعرف العزلة. لا يعرف أن المجازفة تبدأ لحظة اختيار العزلة. الخطر في العزلة. والحرية في العزلة أيضا. الخطر والحرية إذن رفيقان. قرينان. توأمان. وهذه هي الحيلة الوحيدة، الحكمة الوحيدة التي لم يسمعها من الأم، ولم يتعلمها من الأسلاف، ولم يقرأها في رموز الكهوف. هذا هو المبدأ الوحيد الذي تعلّمه بنفسه في الصحراء. المعتزل قوي حقّا لأنه لا يستطيع أن يعتمد على أحد يهرع لإنقاذه عندما يقع في ورطة. عندما يقع في الخطر. عندما يهاجمه ضبع. أو يلتف حول رقبته ثعبان. أو يغويه السّراب ويرميه بعيدا عن صراط القوافل، فيجد نفسه أسير غول إسمه: الظمأ.

ولكن هل يستطيع القطيع أن يفعل شيئاً؟ هل يفيد التواجد بين الجماعة حسب شريعة الصحراء؟ لا. لا يفيد ولا ينفع. بل يؤذي أكثر مما يفيد. لأن الأذى إنما يأتي، أغلب الأحيان، من الجماعة. العضو في قبيلة، أو في قطيع، يسترخي معتمداً على الجماعة، وما أن تحل لحظة الامتحان ويحتاج لمساعدة اعضاء القطيع يكتشف أنهم أضعف من أن يساعدوا حتى أنفسهم. يكتشف انهم إنما كانوا، طوال الوقت، ينتظرون يد المساعدة منه هو لا أن يقوموا هم بتقديمها له. يكتشف أنه غريق يتعلّق بقشّة. يكتشف أنه مخدوع. والمصاب أن من لم يجرّب الانتماء الى الجماعة، القطيع، لن يستطيع ان يختصر الطريق ويتولّى أمر نفسه بنفسه.

وشاة الودّان التي اختارت أن تنفصل عن القطيع وتبحث عن الكلأ في وادي «أميهرو» بدل الوادي المجاور، هي عضو شجاع قرّر أن يصنع مصيره ويتولى أمر نفسه بنفسه. وما وقوعها في الفخ إلا شهادة على هذه الشجاعة، وبرهان على مسؤولية الاختيار.

(٩)

مضى وراء الأثر. الشّاة تعارك الشّرك، وتستميت في الوصول الى الجبل قبل ميلاد القبس. أثر الصراع يتضح كلما عبرت الشاة ألسنة الرمال التي تشطر الوادي المفروش بطبقة رقيقة من الحصى، تتبعثر فوقها الحجارة الرمادية المحروقة بالشمس. ويبدو أنها تجد صعوبة شديدة في جرّ الفخ. ضاق عنق الوادي، وبدأ يتشعّب كلما صعد إلى أعلى واقترب من الجبل. اشتدّت كثافة الحجارة الرمادية الكئيبة وساعدت في ضياع الأثر. مشى مسافة عبر الوادي الذي انحرف يميناً، ولكنه عاد على عقبيه. تذكّر أن مسيرة الودّان تتجه نحو حصنه الأبدي. نحو الجبل. قطع الوادي. صعد المرتفع. المرتفع قاده الى السفح الموحش، المتوحش، القاسي، المفروش بالحجارة العدوانية. ولكن القبلي أنتصر، بعد مسافة، وقصم ظهر الجبل بلسان رملي عنيد. هناك، على الفراش الذهبي اللّميس، عثر على الأثر مرة أخرى. على الرّمل عثر على قطرات دم يابس. واصلت المسيرة الى أعلى. نحو قمم الصلصال والمستحيل. بدأ يستعين بيديه في الصعود. تحاشى الوعورة وصخور الصلصال فانعطف يميناً، نحو حيد الجبل. استمرّ يتسلّق الكتل الحجرية الجليلة مستعيناً بيديه، يتسلّى بقراءة رموز «تيفيناغ» المحفورة على الأحجار حتى انتزعه

من غفوته نعيق غراب. رفع رأسه فرأى الشاة معلّقة بين قمتين عاليتين، متقاربتين في الرؤوس، متباعدتين في الأسفل، عند قاعدتيهما المنصوبتين على شعفة الجبل. الفخ استقرّ في حجارة القمتين في الفجوة الفاصلة بينهما بسبب حجمه، فهوت الشاة الى الهاوية، وظلّت معلّقة من قائمتيها الخلفيتين ورأسها يتدلّى إلى الأسفل. على رأسها يحوم غرابان. و.. على بطنها الممتلىء استقرّ عقاب نهم، ينقر البطن. بل.. يا ربّي. استطاع الوحش الجارح أن يبقر البطن حتى برز رأس الجدي وتدلى من احشاء الأنثى. من البطن تدلّت أيضا خيوط المخاط والدّم. في عيني الأم الفارغة رأى الفجيعة. كانت الشاة نتوجا.

انحنى وشرع يتقيأ بصوت عال كأنه يريد أن يتقيأ امعاءه.

سمع الصوت ينطق بوعيد القدر، من فم القدر:

ـ اخنوخن! أنت قتلت أمي!

(١٠)

لم يحدث أن وقع سوء تفاهم بينه وبين أهل الخفاء قبل اليوم. بل ان علاقته بهم، فاقت علاقته بالرّعاة إنسجاما طوال السنوات الماضية.

طبيعي أيضا أن العلاقة لم تبدأ بين يوم وليلة، ولكنها كبرت معه وتطورت مع نموه، وتوطدت مع اكتشافه لتاسيلي ورموز تاسيلي الأخرى. تكونت مع الفهم الطويل، القاسي، لأسرار الحجارة، ووصايا الأجداد المخطوطة على جدران الكهوف. ثم بدأت لغة الأم تضيء له الظلمات. ظلمات الأشياء والكهوف وما خفي على عقله الصغير من سلوك أهل الخفاء والظلمات. وكانت لا تمل من تكرار اسطورتها عن الرّباط المقدس الذي يجعل من كل كائنات الصحراء أخوة ينتمون الى الأصل الواحد. وطبيعي أن يمضي وقت ليس بالقصير حتى يفهم عمق العلاقة وقداسة الأخوة. اكتشف الأسرار بعد أن وقف على قدميه ودبّ بين الوديان والصخور. رأى الجن على جدران الكهوف، ثم سمعهم كثيراً، وهم يتراطنون ويهمهمون بلغتهم الغامضة، ومضى وقت أطول قبل أن يقابلهم في الوديان متنكرين في ثياب الرّحل وتجّار القوافل. عندما قابلهم أول مرة في وادي

«اميهرو» وهو يرعى الجديان، عاد وحدّث الأم بما حدث. قال لها أن ضيوفاً نزلوا الوادي واعطوه حفنة تمر وقطعة كبيرة من خبز الشعير. أكل الخبز، ولكنه أخرج لها حبّات التمر من جيبه. تأملت حبّات التمر وظلّت تبتسم في غموض. لم تخبره في المرة الأولى بهويّتهم. جاءها بعد شهور واخبرها كيف قضى القيلولة في نجع كبير نزل السهل المجاور. سقوه ماء واعطوه قطعة قماش جديدة. ابتسمت بنفس الغموض ثم قررت أن تفاتحه في أمرهم. قالت: «انت كبرت، ويجب أن تعرف أننا ضيوف بؤساء على أهل الصحراء الحقيقيين. هل تعرف من هم أهل الصحراء الحقيقيين؟». لم يجبها. أثاره التعبير الصارم الذي سيطر على وجهها فظل يرمقها بفضول. اضافت: «أهل الصحراء الحقيقيين هم الجنّ. إنهم قبيلة كبيرة وقوية وطيّبة مثلنا. إنهم أطيب منّا. ولكنهم لا يتساهلون أبداً مع الأشرار. إذا ارتكبت في حقّهم شرّاً نلت الشرّ مضاعفاً. وإذا فعلت خيراً نلت على يديهم خيراً مضاعفاً. ألم يعطوك القماش؟ ألم يستضيفوك بالتمر والخبز منذ شهور؟. إنهم أخيار فاحرص على صداقتك بهم». سكت طويلاً ثم قال: «ولكنهم لا يبدون مثل الجن. إنهم بشر لا يختلفون عنّا في شيء». قالت: «ومن اخبرك أنهم يختلفون عنا؟ إن لهم وجوهاً كثيرة. ولو أرادوا بك سوءً لطلعوا لك في هيئة غيلان. ولكنهم خرجوا لك بلباس النّاس حتى لا يفزعوك. يحرصون دائماً ألاّ يخرجوا للناس الطيبين بوجوه بشعة. إنهم حكماء يا ولدي». في تلك اللحظة انتبه لخيال يقف فوق رأس أمه. رفع عينيه فرأى رجلاً طويل القامة، يرتدي لباساً شفافاً فضفاضاً، ملفعاً بعمامة بيضاء أيضاً. يبتسم له ويهز رأسه علامة الموافقة.

ابتسم أيضا وهزّ رأسه موافقاً.

(١١)

في نفس الليلة، بعد العشاء، روت له تاريخ القرابة التي تربط أهل الصحراء بأهل الخفاء. هجعت في عراء المدخل وطلبت منه أن يعدّ الشاي. شهد الأفق ميلاد البدر فبدأت روايتها: «في الزمان القديم لم تكن الصحراء مسكونة إلا بهم. الجن هم أهلها الأوائل. ثم جاءت قبيلة الإنس، ونزل أجدادنا ضيوفاً عند أجدادهم. وجدوا الصحراء آمنة ومسالمة وصالحة للسكن فطاب لهم المقام. تقدّموا الى السكان الأصليين وطلبوا السماح لهم بالإقامة في الفردوس الصحراوي. قبل الجن إيواء أجدادنا شرط الالتزام بميثاق. اتدري ما هو الميثاق؟».

سكتت لحظة ثم واصلت: «الميثاق يقضي أن يوافق أهلنا ألاّ يسفكوا دماً، وألا يصطادوا أنثى نتوجاً تحمل جنيناً، ولا ينزعوا عشبة من جذورها، ولا يقطعوا غصناً من شجرة خضراء. قبل الضيوف حكم المضيف ووافقوا على الالتزام بالميثاق. استقرّوا وتزاوجوا مع قبائل الجن وعاشوا في الصحراء الكبرى الآمنة في سلام. ولكن هبوب القبلي سبّب الجفاف وعمّم المجاعة فقام الإنسان الى أنثى الودّان وقتلها وهي نتوج في شهرها الرابع. ونزع العشب من أصله وأكل جذوره. قام الى الأشجار الخضراء وكسر أغصانها اليانعة. وتشاجر إنسي مع جنّي حول الحسناء فكمن له الإنسي في الظلمة وقام إليه وقتله. خان الإنسان العهد وصنع بينه وبين أهل الصحراء الأصليين عداوة ما زالت قائمة الى اليوم. انسحب الجن الى الخفاء والظلمات وتركوا الصحراء للإنسان. فلا تنس، يا بني، أن الجنّ هم أخوتك في الدّم. واذكر، دائماً، اننا أوّل من خان العهد وبدأ بالعدوان».

قدّم لها كوب الشاي فرأى في عينها اليمنى دمعة كبيرة تومض تحت ضوء البدر.

(١٢)

عاد إلى الإبل.

هجع على الرابية. راود النوم، ولكن الأرق انقضّ. هيمن السّكون الخالد ولكن صوت النّهار قرع رأسه: «اخنوخن! أنت قتلت أمي». وشبح الشاة المعلقة من قائمتيها الخلفيتين في الفراغ لا يفارق عينيه. وأسوأ ما في المشهد ليس وضع الشّاة المدلاّة في الهاوية، ولا هجمة الطيور الجارحة على الجثة المعلّقة، ولكن في شيء آخر لن يستطيع أن ينساه، وسيبقى مطبوعاً في ذاكرته إلى الأبد. ليس في شيء واحد وإنما في شيئين إثنين: البطن المبقورة وقد تدلّى منها رأس الجنين الميّت الملفوف في قماط من المخاط والدّم، وفي النظرة الغريبة، الفاجعة، التي رآها في عين الشاة. نظرة مستسلمة للمصير، ولكنها تخاطب شيئاً خفياً وراء المصير. ترفع أمرها للجن والصحراء والقدر. تشكو بفجيعة ممزوجة بتسليم حكيم.

عاد بدنه يفزّ بالقشعريرة. بالغثيان. بالحمّى. تقيأ من جديد. تقيأ بوحشيّة افزعت الإبل.

استمرّ المشهد. تمادى. تبدّى. حرق قلبه. قالت له الفجيعة في عين الشاة. «أنت السبب!». واستعاد صوت النهار: «اخنوخن. أنت قتلت أمي». تذكّر الآن أن صوت اليوم كان حزيناً، يائساً، فاجعاً أيضاً. صوت كأنه أنين مريض، أو هذيان محموم. الصوت ضاعف من بشاعة المشهد، وزاد الفاجعة فجيعةً. صوت اليوم جعله يحسّ أنه آثم، قاتل، شرير. اليوم خالف وصيّة الأم ووجد نفسه عضواً في عشيرة الأشرار. اليوم خان العهد، وحنث بالوعد، وفتح على نفسه باب العداوة مع سكان الصحراء الأصليين.

(١٣)

في النهار، عندما هجع تحت طلحة لقضاء القيلولة، هتف الصوت فوق رأسه:

ـ أخنوخن. أنت قتلت أمي!

كرّر الإتهام ثلاث مرات بصوت واضح، صارم، يتوعد بالحساب.

وبالفعل، جاء الليل، ولم يتأخر الحساب. وكما حدث، في المرة الماضية، فإن الإبل أول من أحسّ بوصوله. أجفلت ودبّت فيها حركة قلق. وقفت وهي تتلفت حولها كأنها تراقب المخلوق الخفي. لم يحاوره. لم يكرر تهمة النهار. لم يضيّع وقته في مخاطبته. وجّه له ركلة قاسية اسفل السرّة جعلته يتلوّى طويلا. ثم انهال عليه بالهراوة. كان مخلوقا مدرّبا، حريصا أن ينال المواضع الموجعة في البدن متحاشياً، أيضاً، المواضع الخطرة التي قد يسبب نيلها بالكسور. كان مخلوقاً إنسانياً أكثر من الإنس.

(١٤)

استمرّ العذاب الليلي ثلاثة أيام متتالية.

يجيئه في النهار ويقرأ على رأسه التهمة، ويعود لينفّذ العقاب في الليل.

هذا النظام أدهش اخنوخن. فما معنى الاصرار على المخاطبة في النهار وجعل

الليل أرضاً للقصاص؟ هل تقضي شريعتهم بإدانة الخطاة في النهار وتنفيذ الأحكام بهم في الليل؟ وهل صاحب الصوت هو نفسه جلاّد الليالي؟. هو لا يشك أن لكل عشيرة في الصحراء شريعتها. لم يستعر هذا اليقين من تعاليم الأم، ولكنه اكتشفه بعلاقته بكائنات الصحراء.

للنمل طريقته، وللسراب مسلكه، وللطيور نظامها، وللوحوش أخلاقها، وللسكون العظيم تقاليده. فكيف لا يكون لشعب أعظم، وقبائل أعرق وأنبل مثل الجن شرائع خاصة؟ وأن يجهل معنى الشريعة، معنى نظام هذا العقاب، فهذا لا يعني أنهم لا يخفون وراء ذلك سراً أو حكمة؟. وهو يشك أيضاً أن يكون صاحب صوت النهار هو نفسه جلاّده الليلي. الصوت النهاري بائس، يائس، فجيع. وجلاّد الليل عنيف، قاس، عدواني، لا تنقصه الثقة بالنفس. صوت النهار هو القاضي، ورسول الليل هو الجلاّد.

(١٥)

استمرّ القصاص ليليّاً.

فاض اخنوخن بالألم. ليست آلام الجسد هي التي أخرجته عن طوره في تلك الليلة، ولكن شيء آخر. ألم آخر. الألم الناجم عن الإحساس بالاثم. الألم الناتج عن الاحساس بخيانة العهد، ومخالفة وصايا الأم، وقيامه بقتل أم. قتل أمّاً لمجرد التسلية. لو فعل ذلك لأنه جاع كبقية الأشرار لوجد لنفسه مبرراً ما. لو قتل بطريق الخطأ لوجد حجة تقنع الأم في قبرها وتطفىء في صدره نار الألم.

ولكنه لم يجد لجريمته مبرراً واحداً سوى الشّبع.

الآن عرف سرّ كراهيّة أهل الصحراء للشّبع.

الشّبع هو الشيطان الذي يصنع الشرّ. إذا شبع الإنسان فلا يرجى منه خير. إذا شبع الإنسان تفرغ للمكائد، وبادر بالظلم، وأبدع في اختراع الشر. إذا شبع الإنسان بشّع كل شيء وحوّل حتى التسلية البريئة الى جريمة.

هو أيضاً سار في هذا الطريق.

شبع، فاسترخى، فتسلّى، فارتكب جريمة.

ما الذي سينزع من صدره الندم الآن؟ ما الذي سينزع من صدره الجمرة؟ كيف سيكفّر عن خيانة العهد؟ كيف سيمسح من عيني الأم ـ الشاة فجيعتها؟ كيف سيمسح الدمعة المعلقة الآن في عين الأم اليمنى وهي تهجع في قبرها؟ كيف سيمسح الدم؟ كيف؟ كيف؟

(١٦)

ركلات الجلاّد الليلي لا تكفي.

ركلات الجلاّد الليلي تذكّره بجريمته وتزيد من شقائه. هراوة الجلاّد لم تعد تؤلم. فشل حتى الجن في أن يغسلوا قلبه من الألم، أو يطهروا روحه من المرارة. بل ان القصاص الليلي ضاعف من ألمه، ومن إحساسه بقبح جريمته. وكلما بدأت شعائر القصاص، وبدأ الجلاّد في تنفيذ الطقوس الليلية تصاعد العذاب وصعد الى حلقه. وفي ليلة من الليالي فاض به العذاب فوجد نفسه يصيح بلا وعي في وجه الجلاّد:

ـ هل تسمع؟ أنا لم أقتل أمك وحدها. هل تسمع؟ أنا، أنا قتلت أمي أيضاً. هل تسمع؟ هل تفهم؟

واصل الجلاّد عمله فهتف دون أن يحاول إتقاء الضربات:

ـ هل تظن أن عقابك يفيد؟ هل تظن أن عصاتك تؤلمني؟ ها ـ ها ـ ها. أنت تضيّع وقتك وجهدك. جسدي مات ولم يعد يحس بالضرب. أريدك أن تخترع عقاباً أسوأ من الهراوة. ما هو العقاب الذي يليق بمخلوق قتل أمه؟ قل لي: ما هو أسوأ عقاب يستطيع أن يخترعه الجن للقصاص من قاتل الأم؟ ها ـ ها ـ ها! توقف الجلاّد فجأة. ناح اخنوخن وتوسّل بصوت باكٍ:

ـ اقتلني! هل تستطيع أن تقتلني؟ الموت هو القصاص الوحيد.

انهار على الأرض. قبّل التراب، وناح بصوتٍ طفولي عالٍ.

لم يعقّب الجنّي. ولم ينصرف. الجلاد لا يتكلّم أبداً. الجلاّد أخرس. الجلاّد رسول جاء للبلاغ المبين. الجلاّد يناقش ولا يدلي برأي. الجلاّد وسيلة لتنفيذ الحكم.

رفع اخنوخن رأسه. أحسّ بوجود الجلاّد ببدنه. بدأ يكتسب خاصيّة الجمال في الإحساس بحضور الجن. صرخ اخنوخن:

ـ اجبني. لماذا تتخبّأ وراء الحجاب كالنساء ولا تجيب؟ كلّمني! صارعني! لماذا لا تظهر؟ لماذا لا تتبدّى وتظهر وتصارعني كما يفعل الرجل مع الرجل؟ أرني وجهك!

وقف على قدميه. لم يجب الجلاّد. تراجع أخنوخن مرة أخرى:

ـ ولكن ما فائدة المصارعة؟ هل تستطيع المصارعة أن تخلّصني من الألم؟ لماذا لا تخبرني بسرّ الألم إن كنت جنيّاً حقّاً؟ لماذا لا تخترع دواء آخر غير الضرب الغبيّ؟ لماذا لا تسخّر قدرتك الجنيّة لاختراع ألم أكبر يقدر أن يبتلع ألمي؟ إفعل شيئاً أقوى من الجلد إن كنت جنياً حقيقياً!

انحلّت عقدة لثامه فتدلّى على الأرض وبقي طرفه الآخر ملفوفاً حول الرقبة. تمشّى في العراء دون وعي. لم ينتبه لسقوط اللثام. لم يلحظ حالة الاستنفار الشديد في قطيع الإبل. لم ير. لم يسمع. لم يحس بشيء غير الألم. لم ير غير النظرة الفاجعة في مقلة الأم، ولم يسمع غير نعيق الغربان فوق الجثّة. لم يحس بشيء غير الألم. عاد الى الموقع في حركة وحشية. وجّه خطابه للجن:

ـ هيا نبكي. دعنا نبكي أمّنا. لماذا لا تشاركني البكاء على الأم؟ إنها أمي أيضاً!

وجد أخنوخن نفسه يركع ويبكي بصوت فاجع:

ـ آ ـ آ ـ آ ـ آ ـ ع ـ ع ـ ع ـ ع ـ ع...

تردّد الصوت الغريب في القمم كأن قبائل الجن كلها تردد معه النواح:

ـ آ ـ آ ـ آ ـ آ ـ ع ـ ع ـ ع ـ ع ـ ع...

ولكن أخنوخن لم يتوقف عن بكائيته الفاجعة.

(١٧)

الظهور.

التبدّي.

الخروج من حجاب الظلمات، من القمقم المدفون في المغارات.

الخفاء مزيّة خصّتهم بها الصحراء ليدافعوا بها عن انفسهم من شرّ الإنس، ولا يتبدّون إلا إذا أنسوا للإنسي. الأم قالت له في الطفولة: «لا يتبدّون لك في الصغر خوفاً عليك. ولا يتبدّون لك في الكبر خوفاً منك. يتحاشون أن يُفزعوك طفلاً، ويخشون شرّك وأنت رجل. فلا تكن رجلاً شريراً إذا أردت أن تكسب صداقتهم.». يومها سألها قبل أن تبدأ في شعائر الوجد الصباحي مع الشكوة: «وماذا أفعل حتى لا أكون رجلاً شريراً؟ ماذا أفعل حتى أكسب صداقتهم؟». قالت وهي تستعد للطقوس وتتهيأ للغياب معهم في الملكوت: «ألا تكون رجلاً شريراً يكفي ألا تقتلع الأعشاب من جذورها، وألا تكسر الاشجار الخضراء، وألا تفسد تعاليم الاجداد على الصخور، والا تفكّر في صيد أنثى الودّان وهي تحمل في بطنها جنيناً. هذا يكفي كي تكسب صداقتهم. واعلم انهم ان صادقوك فلن يخونوك أبداً. إنهم أوفى من عاهد في الصحراء، فلا تخنهم أبداً». ثم اقتربت منه وحذرته: «وحتى تكبر وتكون عند حسن ظنّهم إياك أن ترمي الحجارة من الظلمات حتى لا تصيب أحدهم بسوء. إياك أن تحدق في المرآة اللعينة حتى لا تقع عينيك على أحدهم عن غير قصد من جانبهم. اصبر وانتظر ظهورهم. سوف يتبدّون لك بأنفسهم عندما يحين الميعاد».

انتظر الخروج.

خرج وراء الجديان الى المراعي، ولكنهم لم يخرجوا اليه. سمعهم كثيراً وهم يهمهمون في المغارات، ويتمتمون بلغة لم يتبيّنها أبداً، ولكنهم لم يتبدّوا. حاول مراراً أن يفاجئهم في الكهوف، أو عند حضيض الجبال، ولكنهم ينسحبون الى الخفاء ويأخذون لغتهم معهم بمجرّد أن يحسّوا به وهو يقترب من مجالسهم. في

مرّة فاجأهم فتناهروا وتنادوا للسكوت. تحوّل الكلام الى همس وسمع وقع أقدامهم وهي ترتطم بالحجارة أثناء انسحابهم. وفي احدى الأمسيات، بعد المغيب بقليل، سمع غناء شجنياً حزيناً في السفح. نسي أن يكون جيران أهل تاسيلي في الوجود، وظنّ أن أحد الرعاة أراد أن يتسلّى بموّال المساء. ترك الجديان في الوادي وصعد السّفح. عند مقابر الاسلاف غزت أنفه رائحة الشاي والدخان. استعان بيديه في الصعود حتى بلغ صخرة كبيرة. خلف الصخرة، في الجانب المقابل للقمم العالية، وجد موقد النار. ولكن لا أثر للراعي، ولا للشاي. انصت طويلاً فلم يسمع شيئاً. وقف يراقب السفح فنزلت عليه وصيّة الأم كالوحي. ابتسم ونزل إلى الوادي. استمروا يتخفون ويهربون من وجهه الى أن شبّ ورأت الأم أنه أصبح أهلاً لأن تسلّمه الجمال. بعثت بوصيّة الى الرعاة في «تادرارت» فجاء أحدهم يهش قطيعاً من الإبل. لم تجازف بتسليمه القطيع كاملاً. اختارت ثلاثة جمال وناقة وثنيّاً واحداً واعادت باقي القطيع مع الراعي إلى «تادرارت». أعدّت له زاداً من التمر ودقيق الشعير وقربة ماء وودّعته في أول رحلة يقوم بها في الصحارى البعيدة. الرحلة التي عليه أن يبرهن بها أنه ودّع الطفولة والصبينة مع الجديان ودخل مرحلة الرجولة. سافر الى «مساك صطفت» التي جاء منها الرعاة بأنباء السيول منذ شهرين.

هناك اكتشف أن الفوز بالرجولة ليس أمراً سهلاً، ورعي الإبل ليس أيسر من رعي الجديان كما حدّثه الرعاة. ربما كان أيسر حقّاً، ولكن الاسترخاء نصب له فخاً. وجد أن الجمال وديعة المسلك، بالمقارنة مع الجديان الشقيّة، ولا تستدعي اليقظة طالما يستطيع ألا يخاف عليها من الذئاب كما هو الحال مع الجديان. نسي أن اليقظة قدر الصحراوي. إذ من أين له أن يعلم أن اليقظة هي الشرط الأول للرجولة التي جاء من تاسيلي كي يقدّم فيها امتحاناً أمام الصحراء. اطمأن الى العقال في سيقان الجمال، ولم يعرف ان الجمل المقيّد بعقال يمشي مسافات أبعد من الجمل الطليق. الجمل المقيّد يمشي إلى الأمام ليل نهار ولا يتوقف عن الحركة، لأنه يشعر بالقيد فيحاول أن يتحرر من القيد بالتنقل، بالحركة، بالسّعي المستمر الى الأمام. يصبح القيد له هاجساً، وجعاً، سيفاً مسلطاً على الرقبة، فيحاول أن يقهره بالسعي، يجاهد بقطع المسافات في سبيل الخلاص. يعبر الصحراء لينال، في العبور، الحرية. لم يعرف أخنوخن حتى ذلك الوقت أن الجمل المقيد يغفل حتى عن الكلأ الذي جاء من أجله. يخترق الوديان الخضراء دون أن يتوقف. يدخل السهول

المفروشة بالعشب ليعبرها الى العراء. إنه لا يرى سوى الأفق. لأن حريته في المضي الى الأمام، وخلاصه في الأفق. ولكن الأفق لا ينتهي إلا ليبدأ أفق آخر. فيجد الجمل نفسه وقد قطع مسافة خرافية بين يوم وليلة، لأن الجمل لا يسعى، وإنما هو في سباق جنوني مع الأفق. وسوف يمضي وقت طويل قبل أن يفهم أخنوخن أن الرجل الحقيقي هو الذي يترك جماله ترعى في المراتع طليقة. لأنها لن تحتاج، في ذلك الحال، لأن تسابق الأفق كي تتحرر من القيد. الوصول إلى هذه القناعة كلّفه ثمناً غالياً.

قيّد الجمال الثلاثة وكذلك الناقة، ولم يترك، في ذلك اليوم، إلا الثنيّ. وهذا خطأ آخر في عرف الرعاة الحكماء. فالثنيّ الطليق يستفزّ الجمال السجينة ويضاعف شقاءها بالقيد. وإذا تضاعف شقاء الجمال بالقيد فإن هذا سيجعلها تضاعف هروبها من نفسها ظناً منها أنها تهرب من قيدها.

خرج ليتفقدها في اليوم الثاني من هروبها، وارتكب خطأ ثانياً كان أسوأ من كل الأخطاء. ترك قربة الماء ظنّاً منه أن الإبل لن تبتعد كثيراً مطمئناً نفسه بأنها لن تستطيع أن تقطع مسافة طويلة وهي مكبّلة بالقيد.

مشى يوماً. مشى يوماً آخر. لم يدرك الإبل، فأدركه الظَمأ.

ترنّح واحتجبت الشمس وراء ظلمات الظمأ. انهار في عشية اليوم الثاني وسقط على الأرض. لم يعرف كم ظل في الغيبوبة.

أفاق بين يدي قبيلة صحراويّة رحيمة. طاف حوله الرجال واعتنت به النساء. سقوه حساء لم يذق في حياته مثيلاً له. وشرب ماء سلسبيلاً لم يشرب أعذب منه، وأكل طعاماً لم يأكل ألذّ منه. في الصباح أحسّ بالشفاء فوجد أنهم جاؤوا له بجماله أيضاً. شيّعه شيخ مهيب خمّن أنه زعيم القبيلة، أهدى له رسناً جلدياً مزيناً بثلاث حلقات نحاسية، وقدّم له نصيحة لا تناسب إلا الزعيم الحكيم. قال: «الرجل النبيل لا يقيّد جمله أبداً». ثم صافحه ومضى. بعد ثلاثة أيام من عودته اكتشف أن الحلقات النحاسيّة الثلاث، المثبّتة في طرف الرّسن، كانت ذهبيّة!

ليس هو من اكتشف الذهب في الرّسن، ولكن الفضل في ذلك يرجع الى أحد الرّعاة العابرين. نزل في ضيافته وهو في طريقه الى وادي «ابرهوه»، أعدّ له خبز الملاّل في الرّمل، وأوقد النّار لتحضير الشاي. في ذلك الوقت كان الضيف يعبث

بالرَّسن ويتسلى بالحلقات النحاسية. وفجأة سمع أخنوخن ضيفه يقول: «عمل عجيب. عمل مدهش. هل تلقيت هذا العمل النفيس هدية من زعيم الجن؟». التفت اخنوخن فوجد الضيف يقلّب الحلقات المعلقة في الرّسن بفضول الخبراء.

قال الراعي: «انظر الى الزخارف. إنها عمل يفوق رسوم الكهوف في الإتقان. يفوق نقوش الحجارة في القدم». اقترب اخنوخن وسأل بدهشة: «ولكنني لا أفهم». حدجه الراعي، تحت ضوء النار، بغموض. قال: «هذه أندر انواع الذهب. هل تلقيته هدية من زعيم؟». سرد عليه اخنوخن قصة الرّسن، فهزّ الراعي رأسه بجلال وردّد: «ألم أقل انه هدية من زعيم الجن؟ من يستطيع أن يمتلك ذهباً بهذا القدم، بهذا الاتقان في النَّقش غيرهم؟». سأل أخنوخن ببلاهة: «هل تظن أن الجن هم الذين أنقذوني؟». راقبه الراعي زمناً. هزّ رأسه وقال بيقين: «وهل تشك في ذلك؟».

قصّ الحادثة على الأم بعدها بشهور فامتنعت عن التعليق فعرف انها لم تشك أيضاً.

(١٨)

فشل في أن يوقف البكاء.

تلوّى في العراء. يشهق بصوت غير إنساني، بصوت حيواني، محاولاً أن يطهّر صدره من الوجع، ويلفظ، مع الصوت الوحشي، الألم. بكى كطفل تيتّم. بل انه لم يبك بهذه الفجيعة حتى عندما سافرت الأم الى المجهول، وتركت له جسدها الهزيل كي يواريه الحجارة ويطعمه للتراب. تيتّمه اليوم أقسى من تيتمَه لما فقد الأم. فقد الأب قبلها ولكنه لم يحس بضياع اليتامى. ربما لأن ذلك حدث قبل أن يعي معنى الضياع والعزلة والحياة. وفقد الأم، ولكنها تركت له الصحراء. أو تركته أمانة في عنق الصحراء. عُهدة في يد الصحراء. خان العهد فتنكرت له الصحراء، أمه الثانية، أمه بالتبني. قتل الأم الأولى. الأم التي جعلته يحس بصلة القرابة بينه وبين الصحراء. بينه وبين كائنات الصحراء. بينه وبين الجنّ. بينه وبين الودّان. بينه وبين شجرة الطلح. بينه وبين طائر الوقواق. أحسّ أنه لا يبكي عزلته، ولا تيتمه، ولا فقدان الأب والأم، ولا الأم النّتوج بأخيه اللذين قتلهما معاً حبّاً في التسلية،

وإنما . . يبكي غضبة الصحراء . يبكي ضياعه الأبدي .

لم يعرف كم مضى من الوقت . لم يعرف متى انصرف جلاّده الليلي . ولم يعرف متى تسلل القبس السري وشق الأفق بخيط شحيح من ضوء مدبراً مؤامرة فصل السماء عن جسد معشوقته الخالدة : الصحراء .

نهض . ترنّح خطوات . سقط مرة أخرى . زحف على يديه وركبتيه . شقّ الوادي زاحفاً . صعد المرتفع المزروع بمقابر الاسلاف . تنقّل بين الأكوام المستديرة زاحفاً . اهتدى الى قبرها . القبر الذي شيّده منذ سنوات ونسي حتى أن يسقيه بالماء بين الحين والآخر . انكفأ فوق القبر ولثم الحجارة . احتضن الحجارة . وشعر كيف يتدفق الدمع الحار على التي احتضنت بحر النهار .

لم يعرف الحكمة القاسية التي تقول ان القبر الذي تتساهل بريّه الماء سيأتي يوم تضطرّ فيه أن ترويه بالدموع .

(١٩)

انقضت ثلاثة أيام قبل أن يعود صوت النهار وتليه زيارة الجلاّد في الليل . استسلم لقدره وترك الجلاّد يمارس عمله . انهال عليه بالهراوة حتى أحسّ بالغثيان . انكفأ على بطنه وشرع يتقيأ . ما أدهشه ان الشعور بالإهانة هو ما أيقظ فيه الغثيان وليس الألم . في الصحراء لا يضرب بهذه القساوة حتى العبد المعاند ، حتى الحمار الكافر . في تاسيلي لا يضرب الرّجل رجلاً حتى بقشة ، حتى بعود أخضر . فهم الآن حكمة الجنّ . فهم الآن أنهم يريدون إهانته . إذلاله . الذلّ هو ما يليق بمخلوق يصنع فخّاً لاصطياد أمّ لمجرد أنه شبعان ولم يبق له عمل آخر إلا أن يتسلّى . الإذلال هو ما يليق بالصحراوي إذا اختار ، بلا سبب ، أن ينضم لعشيرة الأشرار . وها هو يسمع الإدانة في النهار ليتلقى الجزاء في الليل . الجزاء اللائق بالعبيد . بالحمير . بالأشرار . لأن الذل ، في عرف الصحراء ، أشرّ من الموت . الذل عار ، والعار أسوأ من الموت . فإلى متى سيتحمل أن يظلّ عبداً؟ إلى متى يرتضي أن يهان ويضرب كالحمار؟ هل تستحق الحياة تحمّل العار؟

في تلك الليلة لم يتوقف الجنّي عن ضربه حتى احتمى منه بقبر الأم .

(٢٠)

اكتشف سراً آخر.

كلما أقبل الجلاّد، واشتدّ عليه الضرب هرب الى السفح، واعتصم بقبر الأم. كلما لجأ الى القبر تراجع الجنيّ عن مطاردته. فهل هو إجلال للمقابر والموتى من جانب الجن، أم تقديس للأمّ؟ وهل يقدسون أمه لخصال الفضيلة والخير أم لأنها تمت للجن بصلة قرابة؟ لقد أخبرته عن أخوة أهل الصحراء بأهل الخلاء، وحدثته مراراً عن رباط الدّم بينهما، كما لم يأتِ ذكر الجن إلا وتنبري تتحدث عن فضائلهم وخيرهم وطيبتهم. والحق أنهم كانوا معه رحماء دائماً، ولم يبخلوا عليه بالعطايا في صباه. ظل يفكر في صلات القربى بين كائنات الصحراء حتى توصّل الى أن كون جلاّده هو أحد اخوته هو أمر جائز. بل ان شعوراً خفيّاً خامره بأن يكون جلاّده الليلي أخا له من قبيلة أهل الخفاء.

ولكن الاكتشاف لم يجبر الجلاّد على التراجع. كأنّه يؤدي واجباً مقدّساً. كأنه ينفذ حكما إلهيّا. كأنه رسول القدر. كفّ القدر.

احتمى من حملة التعذيب بقبر الأم مرة أخرى.

ثم أصبح يقضي لياليه متوسّداً قبر الأم.

(٢١)

حوّل القبر الى مأوى يعتصم به في الليالي.

هجر الوديان والكهوف وصنع من المقبرة بيتاً يأوي إليه في الليل. كان صوت الإدانة يزوره في الوديان نهاراً فيعرف أن الجلاّد سيزوره في الليل. ينتظر حتى المغيب فيترك الإبل في الوديان ويحتكم الى الحرم. يوقد النّار بجوار القبر ويصنع شاي المساء. يتعشى بالتّمر أو يقضم من خبز الملاّل الذي تبقّى من رغيف القيلولة. يعدّ الرغيف في رمل الوادي مستثمراً أمان النهار. وعندما يقترب الظلام يحمل تموينه الى الحرم.

استمر على هذا الحال إلى أن اضطر أن يلتجىء إلى طرق القوافل لمقايضة أحد الجمال بالشَعير. غادر السهل مبكراً عازماً أن يتحايل على الوقت ويختصر المسافة التي تعوّد أن يقطعها في أربعة أيام الى يومين فقط.

ولكنه عاد من منتصف الطريق.

جاءه رسول الإدانة بمجرّد أن قطع وادي «أميهرو». وفي الليل جاءه على يدي الجلاّد أعسر حساب. اعتدى عليه بضرب وحشي فاق كل توقّع. واستخدم في عدوانه أسوأ الأدوات المتداولة في الصحراء لتأديب العصاة وإهانة الحمير والعبيد. بدأ باستعمال قبضته. تعب فاستبدلها بالعصا. ثم استبدل العصا بسوط أحرّ من الجمر. أدرك أخنوخن أن الجلاّد اختلى به بعيداً عن حرم القبر وقرر أن يضاعف العقاب انتقاماً لليالي التي قضاها بدون جزاء محتمياً بالحصن المقدّس. ليلتها لم ينجُ من يدي الجنّي بسهولة. ترك الجمل وهرب. ظلّ يجري عبر العراء دون أن يتوقف الجان عن مطاردته. عاد الى الحرم في آخر الليل. ممزّق الثياب. ملوّثاً بالدّم. بدنه مغسول بالعرق والذلّ.

(٢٢)

اكتشف حقيقة أخرى.

اكتشف أن فرحه بالحرم لم يطل. الحصن تحول الى سجن. وهو، أخنوخن الطائر، الطليق المتنقّل بين الكهوف والقمم والوديان، تحوّل، فجأة، إلى أسير في هذا الحصن، في هذا السجن. اكتشف أن النهار وحده لا يكفي حتى لردّ الإبل على أعقابها دون أن يدركه الليل في منتصف الطريق، فكيف بالوصول الى طريق القوافل، أو بلوغ منتجعات الرعاة؟ وإذا استمر مهدداً بالجلاد حتى حلول الشتاء فإن قامة النهار لن تكفي حتى لاستجلاب الماء من البئر. وكل الدلائل لا تشير إلى أن الجلاّد ينوي أن يتراجع في الوقت القريب، فما العمل؟ كيف يستطيع أن يستعيد احترامه لنفسه ويغسل عن جسده عار الضرب الذي حوّله من مخلوق نبيل، مكابر، الى حيوان أسوأ من حمار كافر؟

ولكن هاجساً شقياً قال له: «أنت لست حماراً. أنت قاتل. أيهما أبشع في

عرف الصحراء : أن تكون حماراً عنيداً، أم قاتلاً للأمّ؟ أليس الحمار أكثر نبلاً من قاتل في شرائع الأرض وأعراف السماء؟ ».

سرت في بدنه رجفة. هام بين القبور. ترقرقت مقلتاه بالدّموع.

أجاب الهاجس بصوت مبحوح : « لا فرق بينهما، لأنهما، كليهما، جديران بالموت ».

(٢٣)

وجد نفسه مشدودا إلى حجارة القبر مثل معزاة مقيّدة إلى الوتد بحبل. أصبح الحرم سجنا بعد أن كان خلاصا وملاذا. وإذا كان للمعزاة سيّد يأتي لها بحزمة عشب، فإن القدر جعل منه عبدا بدون سيّد. هرب من عبودية العصا وعار الضرب ليجد نفسه طفلا يحتمي بتلابيب الأم، وعبدا لحجارة قبر!

فكّر أيّاما في هذا المأزق، ثم توصّل إلى حيلة أخرى.

قضى ليلة كاملة يبكي فوق الحجارة يتوسّل الغفران، ونهض في الصباح وبدأ يحفر القبر. تذكر عندما سافرت الأم وقام بحفر المثوى في مقبرة الأجداد، وقال لنفسه أنه لم يتخيَّل أن يضطر، بعد سنوات، للاستعانة بالرّفات ونبش الحفرة من جديد. مسح الدّمع من عينيه والعرق عن جبينه، واستمرّ يزيح الحجارة والتراب حتى حلّ الضحى.

بلغ الرّفات.

تغذّى التّراب بأجزاء من الكفن وتولّت الديدان أمر الجسد. جرّدته من اللّحم وتركت هيكل العظام. أدهشته ضآلة العظام ونحافة الأطراف. الهيكل في حجم طفل حديث الولادة. وقفص الصدر كأنه لجدي أو ماعز. بلغ الجمجمة. أزاح التراب عن جزئها العلوي. ما زالت خصلات بائسة من الشيب تتمسك بالعظم. فوقها تيبّس الطين وقطعة بائدة، متآكلة، باهتة، من الكفن. أزاح مزيداً من التراب بيدين مرتجفتين. بلغ الطرف الأيمن من الجمجمة. مسح الغبار عن العين اليمنى. عين الشفقة، والرحمة، والحب. العين التي تنزف بالدّمع عندما يستجيب قلب الأم

للانفعال، والمحبّة والحنين.

فوجىء.

حدّقت فيه مقلة المحبة بنظرة خاوية، عمياء، قاسيّة.

ظل ينحني في فوهة القبر في ذهول. خيّل له أن قلبه أيضاً توقّف. التنفس أيضاً توقف. جاهد لالتقاط الهواء واستعادة النّفَس. قفز خارج القبر باعجوبة. تلوّى في العراء كالمجذوب. دنّس حرم السكون بأصوات غريبة، غامضة. ثم استولت عليه نوبة من القيء.

(٢٤)

حمل معه القبر في تنقلاته.

عرف انه لا بد أن ينقل القبر في أمتعته إذا أراد ألا ينزل إلى الأم، ويشاركها الإقامة في القبر. ولمّا كان الحجاب بين الاحياء والأموات قائماً كما قام يوماً - بسبب الخيانة - بين أهل الصحراء وأهل الخفاء، ولمّا كان طريق الوصل بينهما مقطوعاً إلى الأبد كما أكدت له الأم بنفسها مراراً، ولمّا كان الإنسان على استعداد أن يصنع المستحيل في سبيل استمرار الحياة مادام على قيد الحياة، فلا خلاص إلاّ بالمعجزة. إلا بإخراج الأم من رقدتها القاسية لتهاجر معه وتتنقّل، وتعيش حياة الصحراء. لا بد أن تخرج اليه من القبر إذا أراد هو أن يستمرَ في الحياة. لا بد أن يعود الميّت من الموت إذا شاء الحي ألا يخرج من الحياة. القدر شاء أن يحكم إغلاق الدائرة وصنع له أحد الخيارين. القدر هو الذي رسم الخطّة. القدر قال له: إما أن تذهب الى حضن الأم، أو تأخذ أمّك معك في حضنك. لا خيار ثالثاً. نفس القدر الذي ساقه الى هذا المصير بلعبة. بتسلية. بشرك بائس صنعه من الشجر لقتل الوقت. الوقت النفيس الذي لم يجرؤ صحراوي على الاستهتار به يوماً فكيف بـ« قتله ». ولولا الترف. لولا السيول والخيرات التي غمرت تاسيلي، لولا امتلاء المطامير بالتمور والحبوب، لولا النعمة والشبع لما تجاسر على « قتل » الوقت بهذه الطريقة الغبية، الشريرة التي يستنكرها عرف تاسيلي، وتستفظعها شريعة الصحراء. وها هي النتيجة. بدل أن يقتل الوقت قتله الوقت. بدل أن يصطاد

طريدة، ليس في حاجة إليها أصلا، اصطاده القدر. وبدل أن يهنأ بالسكينة والسكون لاحقه جلاّد الليل وصنع من جسده دابّة تتلقّى الهراوة والعار!

فكيف لا يمد يده الى أمه ويأخذها معه الى الصحراء؟ كيف لا يحتمي بها كما احتمى بها دائماً؟ بل وماذا سيفعل في تاسيلي بدون أمه؟ ماذا فعلت به الوحشة طوال الأعوام الماضية التي أعقبت سفرها؟ في الأيام الأولى هام بين الكهوف كأشباح الجن. غالب الإحساس بالضياع. ضياع أشرس من ذلك الضياع الذي أحسّ به أهل الصحراء عندما فقدوا كتاب الحكمة المقدّسة «آنهي». كان يبكي بصوت طفولي عال فتردد الكهوف الصدى. سمع الجنيّات تنوح أيضاً. وشاركه الجن الحزن والمأتم. قابل بعضهم في الجبال الجنوبية المشرفة على وادي «اميهرو». وجاءه آخرون في المغارة، وسهروا معه الليل كله. ناحت الجنيّات مهدّلات الشعور، ولكن الشيوخ التزموا الصمت في وقار وشرعوا ينصتون للسكون المقدس. تنقلوا حوله. أشعلوا النيران وأعدّوا الشاي. جاءت العجائز باطعمة شهية الرائحة، ولكنه لم يستطع أن يأكل برغم الإلحاح. تقاطر الجن على المغارة ثلاثة أيام متتالية. ثم ارتدوا لباس المهاجرين وذهبوا الى «تاسيلي ناهجّار» واخبروا الرعاة بالوفاة. في اليوم الرابع ازدحمت المغارة بالمعزين من قبائل الإنس. تقبّل منهم التعازي صامتا أيضا.

ولكن لا تعازي الإنس، ولا تعاطف الرعاة استطاع أن يغلب الضياع ويقتل فيه الإحساس الوحشي بالوحشة.

ثم..

ثم عادت إليه الأم.

بدأت تزوره كل ليلة. تجلس في المدخل وترفع صوتها بالأغاني الصحراوية الحزينة. بالمواويل الشجنية التي تتحدّث عن الضياع. ضياع «آنهي»، ضياع «واو»، ضياع المعشوق الذي لم يعد من رحلة القوافل. وفهم أن الضياع هو قدر الصحراوي. الضياع هو قدر الإنسان.

استمرّت تزوره بانتظام حتى طلب منها ذات ليلة: «أريدك أن تمخضي لي الحليب يا أمي كأيام زمان. الشكوة جفّت في الزاوية وأنا لا أريد اللبن إلا من يديك.». والحق انه كذب عليها. لم يكن اللبن هو الغاية، ولكنه أخفى عنها رغبته

في أن يراها وهي تهيم في الوجد. كان يقع في الوجد دائماً عندما يراها تترنّح وتهيم وتجذّب وهي تمخض الحليب المقدّس.

ذهبت في تلك الليلة ولم تعد أبداً. فكر فيما يمكن أن يغضبها، ويسبّب في هذا المسلك المفاجىء. فكّر طويلاً.

لقد نسي ما قالته له يوماً من أن الأموات إذا ذهبوا يستطيعون أن يغنَوا، ولكنهم لن يستطيعوا أن يمخضوا حليباً للأحياء دون أن يستدرجوهم الى الموت أيضاً.

(٢٥)

سيرة التميمة عبرت تاسيلي الى الشرق والشمال فوصلت «آزجر»، واجتازت القمم الغربية فبلغت «آهجّار». وحملها تجّار القوافل الى «آير» و«آضاغ» في أقاصي الجنوب.

لم يقل الرعاة، الذين تناقلوا السيرة، أن الجنيّ الذي اختار الإقامة مع الجن في تاسيلي قد اتّخذ من جمجمة الأم تميمة تحميه من اعتداءات جيران الظلمات، لأنه لم يبح لأحد بسرّه، لم يخبر أحداً بأمر النّزاع مع أهل الصحراء القدماء، ولكن الرعاة قالوا ان الجنيّ اخنوخن لم يطق فراق الأم ليس لأنها أم، ولكن لأنه لم يعرف في حياته إنساناً غيرها، فلحقها الى القبر وأخرج عظامها واحتفظ بها في جراب السّرج كي تؤنّسه في وحدته.

كلما سمع الشائعة من عابر جوّال، أو راعٍ مهاجر، ابتسم بكآبة والتزم الصمت.

ظلّ يتنقل بها في رحلاته كلها. بل حرص أن يحمل الجراب معه حتى في تنقلاته بين الوديان ساعياً وراء قطيع الإبل. يجلس في المراعي. يخرج الجمجمة في الجراب. يحررها من غلالات القماش، يرشّها بالماء، يمسحها بعناية بطرف لثامه. في العين اليمنى الفاجعة وضع قطعة من وبر الجمل كي يخفي الفجيعة من العين. ولكنه حرص أن يترك خصلات الشعر الأشيب، الشاحب، الذي نجا من شراهة التراب، مشدودة الى قمة الجمجمة. وعندما ينتهي من الطعام ويحتسي

الدور الثالث من الشاي، يلف الجمجمة بغلالات القماش، ويعيدها الى مثواها الجديد في الجراب.

استمرّ على هذه الشعائر الى أن سلبها منه السيل.

(٢٦)

السيل أيضاً لم يهاجمه عبثاً.

السيل أرسله القدر كجزاء، كقصاص جديد على إثم جديد.

هجع في وادي «اميهرو» في ليلة شتوية قاسية. في المساء، عند الغرب، لاحظ كيف تتزاحم غيوم غاضبة وتزحف على القمم البعيدة. قمم تاسيلي ناهجّار. ولكنه لم يتوقع أن تدركه بأنفاسها بهذه السرعة. في الليل نزل البرد. استيقظ فوجد النداوة تزرع الوادي بطبقة جليدية بيضاء. كان يرتجف. أطرافه جمدت. فقد القدرة على تحريك أصابع اليدين. مضى وقت طويل وهو يدفئها بانفاسه. ثم تحرّك ببطولة حتى بلغ أقرب شجرة. تحسس الأغصان ولكنه لم يتبيّنها في العتمة. وربما ساهم الجليد في تجفيفها فبدت يابسة. انتزع كوماً وأوقد النَار. ارتفعت ألسنة اللهب. ظلّ يحتمي بالنار ويحوم فوقها كفراشة بلهاء. اقترب أكثر فتشبّث لسان النار بكم الجلباب. دسّ الكم في الأرض وأهال عليه التراب باليد الأخرى. كاد يحترق فيما استمر يرتعد من الجليد. لم يسمع الأنين الفاجع في الأغصان الخضراء. لم ير دموع الشجر. لم ير نزيف الدّم في أعضاء الشجر. لم ير بركة الدم التي استنزفتها النار، وسالت على الرمل بجوار الموقد.

(٢٧)

أيقظه الفحيح. حشرجة الجمر في الموقد لحظة هاجمها الغمر. حشرجة مكتومة، فاجعة. هبّ واقفاً فاكتشف أن السائل، السلسبيل، الوديع الذي يعبده أهل الصحراء، قد تحوّل الى غول. في البدء حفر تحت قدميه بشقاوة الأشقياء. تخلّت عنه الأرض فسقط على قفاه. تلقفه اللسان الوحشي وفرّ به عبر الوادي.

دحرجه الموج المجنون مسافة طويلة. تجرع الماء الممزوج بالطين والبعر والقشّ. امسك بشجرة حلفاء ملساء، وأحسّ كيف دفعه اللسان المتوحش الى الأمام فاقتلع الشجرة من جذورها، ورافقته في رحلته الى المجهول.

في الرحلة اعترضته اشجار، وحجارة، وأجسام لم يميّزها في قعر الوادي، ولكن السيل لم يتح الفرصة ليتشبّث بها. كلما مدّ يده وحاول النجاة انتزعه الموج المجنون وقذفه بعيداً عن يد النجاة. الصحراء تسخّر الأشجار والحجارة والأجسام الخفيّة لإنقاذه، والسيل يقاتل لإبعادها عنه، وأخذه بعيداً عنها.

استمرّ العراك.

اعترضته شجرة كبيرة. طلحة كبيرة. تشبّث بجذعها بكلتا يديه. التفّ حولها بجسمه كالثعبان. التصق بها. التحم بها. أصبح جزءاً منها، واصبحت جزءاً منه. حاول أن يثبّت قدميه على الأرض فسحب السيل الأرض من تحته وجرف الرمل. بدأ يتقيأ الروث والطين والقش، دون أن يتخلى عن التحامه بالطلحة. بشجرة الخلاص.

بقي يجاهد طوال النهار. مع العشيّة هدأ الموج ونزل مستوى الماء. قبل حلول المساء تراءت قمم الأشجار مع انخفاض مستوى السيل. فتخلّى عن شجرة الحياة وقطع الوادي الى الشاطىء. استلقى على الضفة ونام.

في صباح اليوم التالي اكتشف ان الشجرة التي انقذته من الموت ووهبته الحياة نفس الطلحة التي جرّدها من الأغصان الخضراء واطعمها للنار كي يتدفأ بها.

الشجرة أعادت له الحياة، ولكنها أخذت منه تميمة الحياة.

(٢٨)

صمم أن يستردّها ولو طارت الى السماء.

انتظر حتى جفّ الماء في الوادي. بدأ بحثه في الأشجار المجاورة. فتّشها شجرة شجرة، كما تفقّد حجارة الوادي وصخوره. لا أثر للجمجمة ولا للأمتعة.

جلس على المهري وسافر عبر مجرى الوادي. هاجر وراء السيل في مسيرة اثني عشر يوماً.

في النهايات انقسم الوادي وتعدّد المجرى في أودية صغيرة، تتوازى وتتجاور حيناً، وتتنافر وتتباعد في مواقع أخرى.

قضى شهراً كاملاً وهو يتفحّص الوديان، ويفتّش الشُعب. بعد ثلاثة أسابيع عثر على طرف السرج الأمامي مشدودا إلى شجرة حلفاء كثيفة على ضفة إحدى الشّعب، ولكن الجمجمة طارت الى الأبد.

أخيرا يئس.

وعندما يئس، وعرف أهل الخفاء أنه يئس، زاره رسول الإدانة في الليل وسرد على رأسه قصة مفاجئة. لم يأت في النهار، ولكنه تعمّد الإخلال بالخطّة فجاءه بالصوت بدل السوط. لم يعرف سرّ التحوّل إلا بعد أن تكلّم الصوت:

ـ هل نسيت يا شقي أنك طلبت منها الحليب؟ هربت لتأتي لك بالحليب، ولم يكن أمامها إلا أن تتحوّل إلى أنثى الودّان. لا بد أن تتحوّل إلى أمّ إذا أرادت أن ترضعك الحليب. هل نسيت يا شقي انك لم تتوقف عن رضع الحليب من ثديها حتى بلغت السابعة؟ كنت وحيدا، ولم يكن أمامها إلا أن تدلّلك. كنت وحيدها المدلّل. وعندما أرادت أن تدلّلك مرة أخرى صنعت لها شركا وقتلتها.

سكت الصوت لحظة بنفس النبرة الواضحة، القاسية:

ـ نسيت أن أقول لك أنها أمي أيضا. لم تخطىء عندما ناديتني بـ«الأخ» لأن الدّم هو الذي تكلم فيك يومها. لقد قتلت أمك وأمي يا أخنوخن. ورحت تحتمي من جريمتك بجمجمتها. ما أشقاك يا اخنوخن! ما أشقاك يا أخنوخن!

ردّد «ما أشقاك يا أخنوخن» عدة مرات وهو ينسحب ويبتعد. ثم سمعه ينشج في العراء ويشهق بأنين موجع.

وجد بدنه مبللاً بالعرق. بسائل لزج لا شك انه عرق. لثامه مبلل. لزج. و... سكين من نار تستقر في صدره. أحس بضيق في التنفس. وقف على قدميه. ترنّح. سقط على الأرض. تزحزحت السكين النارية وصعدت ببطء الى أعلى. نحرت الصدر ووجدت الطريق الى الحلق. عبرت البلعوم شقّت البلعوم بحريق. توقفت في الحلق. تدفّق النزيف. جوفه كلّه ينزف. ما أرحم الجلاّد القديم بالمقارنة مع زائر

الليلة. ما أقسى الصوت بمقابل السوط. ما أسهل تعذيب الجسد بجوار التنكيل بالروح. ما أهون نزيف البدن بالمقارنة مع نزيف الروح.

لم يع. لم يحس. لم يتعب. ظلَ يركض حتى انشقّت الصحراء وولدت الفجر. حتى وجد نفسه يتسلّق القمّة. حاول أن يسحب الهواء، أن يتنفّس، أن يزحزح السكين الى أسفل، أو إلى أعلى، ولكن السكين تشبّثت بالحلق. تحرق وتذبح وتسدّ النّفس. احتجبت الجبال. تاهت الصحراء. غاب العراء الأبدي. اختفى الإحساس بالسكون الخالد. و.. انفصل اخنوخن عن الصحراء. وجد نفسه في منفى لا يعرفه. في أرض أخرى غير الصحراء. وأحس أنه كائن غير الصحراوي.

حاول أن يلتقط الهواء.

سدّت السكين النارية كل المنافذ، والأوعية، والقنوات، والأوردة. جحظت عيناه. دارتا في محجريهما في تحية وداع مهداة الى الملكوت الصحراوي في الأفق. أحاط لثامه برقبته. لم يلحظ كيف سقط طرف اللثام وتعلق بنتوء بارز، شرس، في الصخرة. أطلق انينا طويلا، موجعا، كأنه جمل يذبح. و.. قفز. قفز من القمّة.

لم يسقط الى الأرض. القدر الذي حول اللثام، في رمشة، الى فخ، تلقفه قبل أن يبلغ السفح.

لم يهبط الى الأرض. إلى الحضيض.

شدّت الصخرة طرف اللثام فوجد نفسه معلقا في برزخ بين السماء والأرض. وطرف اللثام الآخر ملفوف، كثعبان الادغال، حول رقبته.

لحظتها، فقط، أحسّ بتزحزح السكين وانزلاقه الى مكان ما. تنفّس. شهق. طلّق التنفّس. ودّع النَفس، فاستقرّ في مقلتيه تسليم، وخلاص، وبسمة غموض. نفس الغموض الذي نطقت به مقلتا الأم المشدودة إلى الفخ، المعلّقة، من رجليها الخلفيتين، في الجبل.

موسكو
١٩٩١/٥/٢م

النصوص الحجرية

(١)

آنهي. سفر الصحراء الضائع. وُضع في «واو» الضائعة، وأضاعه الجدّ الأوّل عقب خروجه في رحلة التيه. تناقلته أجيال الصحراويين، وصنع منه الحكماء دليلاً للحياة. ويجمع أهل الصحراء أن ضياع الصحراوي لم يبدأ مع نفي الجدّ الأوّل وإخراجه من واو، ولكن الضياع الحقيقي، المنفى الحقيقي، التيه الحقيقي، بدأ مع اضاعة السّفر الحجري، ليستمر منذ ذلك التاريخ الذي عجزت حتى الأساطير ان تحدد له تاريخاً.

ولكن هل وصفتُ السّفر الضائع بـ«الحجري»؟

هنا يجب أن نتوقف قليلاً. اختلفت الروايات بشأن الطريقة التي تلقّى فيها الصحراوي هذا الدستور الخالد. ولكن الحكماء ما لبثوا أن اتفقوا، كعادتهم، وتوصلوا الى إجماع يقول ان الصيغة الأولى للنصوص وُجدت منقوشة بيد الآلهة على ألواح مصقولة من حجارة. مكتوبة برموز «تيفيناغ» المقدّسة. وهي رموز أخرى تختلف قليلاً عن الأبجدية الحالية المطبوعة على جدران الكهوف. كانت الرموز الإلهية الأولى أقرب الى اللغة الرمزية التي يحتكم إليها الحكماء في مخاطباتهم في مجالس الأغراب. يقال انها رموز مستعارة من لغة الآلهة. وقد احتكرها الكهنة والسحرة والعرافون لأجيال وأجيال. وهم الذين قاموا بنقل النصوص الحجرية الى لغة الناس. مما ساعد على زرع السكينة في النفوس. فساد التفاهم والسلام. وتطهرت السلالة الصحراوية من العنف والشرّ. وتوقفت عن

الغزوات وسفك الدماء. واقلعت عن صيد الغزلان والودّان. واكتشفت بذهول أن الأمر لا يتطلب العنف إذا أردت أن تكسب معركة، والإقلاع عن الصيد لا يجلب المجاعة، والحياة نفسها ليست في حاجة الى الغزو والسلب واخضاع العبيد لمن أراد أن يكتفي فيها بالسعادة.

ولا أحد يعرف كم استغرقت هذه الحقبة الذهبية التي تحصّن فيها النّاس بالسكينة فوجدوا أنهم قد أقاموا «واوا» أخرى في الصحراء دون أن يدروا. انزلوا واو السماء إلى أرض الصحراء، لأنهم استعاروا دستور الزّهد، والتزموا بالنصوص الإلهية المزبورة على الحجارة.

ولكن الاسترخاء خذلهم مرّة أخرى.

نسوا أن الفرق بين السكينة وبين الاسترخاء، كالفرق بين شرائع الأرض التي تعاملوا بها فيما بينهم وبين شرائع السماء التي استوحوها من الوصايا الحجرية. ويروى أن وباء الاسترخاء جاءهم من البنيان والبيوت. رأوا أن ينزلوا الوديان، ويستقروا في السهول. حفروا عيونا، وحرثوا أرضا، وبنوا بيوتاً. عبثوا بسلسبيل الحياة وتركوه يروي بحر الرمال العظيم فأغضبوا السماء. تخلّت عنهم الآلهة فارتكبوا معصية أكبر. خرجوا للعراء ودفعهم الاسترخاء للتسلية. بماذا يمكن أن يتسلّى المخلوق في الصحراء؟ نصبوا فخّا واصطادوا طريدة. قتلوا شاة ودّان نتوج.

خرجوا من العصر الذهبي، وعادوا، بضربة قدر، إلى عصور الظلمات.

الاسترخاء انساهم أخطر وصية نزلت في النصوص الحجرية: من نزل بأرض أكثر من أربعين يوما أصبح عبداً. ومن أصبح عبداً استعبدته الرغبة. والرغبة هي الخطوة الأولى في صراط الخطأ الكبير.

(٢)

في حقبة الظلمات بدأت مسيرة الخوف.

أصبح الصحراوي يخاف الجنّ. وهو خوف جديد، لم يعرفه قبل أن يعرف

العدوان.

الآلهة خلقت الجن لردع أهل الصحراء.

انقطع الميثاق بين العشيرتين. خان الإنسان العهد فتوارى الحلفاء، وغابوا في الظلمات. انسحبوا الى دنيا الخفاء. لأنهم لم يجدوا انفع من الخفاء كي يخيفوا الإنسان.

اجتمع الكهنة والسحّرة والعرّافون وابتدعوا حيلة التحاكم.

نقلوا النصوص، نصوص آنهي، من لغة الآلهة إلى لغة البشر. من إشارات السماء الى رموز «تيفيناغ». من الغموض الى الوضوح. من الحجر إلى رقع الجلد. وكل التزييف الذي تعرضت له النصوص الإلهية نتج عن هذه السلسلة من التحولات. وبرغم اعتراض فريق من حكماء هذا الثالوث المقدّس (الكهنة، السحرة، العرّافون) إلا أن الفريق المؤيّد للنقل، الدّاعي الى التحويل، هو الذي انتصر في النهاية.

قال الفريق الموالي للآلهة: النقل يقتل الحكمة، ويزيّف إرادة الآلهة، وإذا تزيفت إرادة الآلهة في النصوص ابتذلت الشريعة وانتهكت روح النصوص.

قال الفريق الموالي للبشر: ما فائدة تعاليم كتاب لم يسخّر لحياة النّاس؟ ما جدوى النصوص إذا عجزت في أن تحمي العشيرة الصحراوية من بطش الجن؟ بل ما نفع أي نص، أي رمز، أي وصيّة، إن لم تتحوّل الى تعويذة للحياة، وتميمة تحصّن أهل الباديات ضد مكائد أهل الخافيات؟ هزّ الفريق الموالي للآلهة رؤوسهم وقالوا بحزن من أقرّ بهزيمته: أنتم تنتصرون لمخلوق عقيدته البطش وشريعته الرغبة. وهو لن يتوقف عن البطش لأنه لا يعرف حدوداً للرغبة. ولكنه لن يفلح طالما لم يعد الى صراط السكينة. ومن لم يجد الصراط الى السكينة لم يجد الصراط الى نفسه، ومن لم يجد الصراط الى نفسه، ضاع الى الأبد، ولن تحميه من الضياع حتى تمائم النصوص الإلهية المرسومة المنقولة على الرقع الجلدية.

ولم يكن صعباً أن يدرك الفريق الآخر، الموالي للمخلوقات الصحراوية، ان العبارة الأخيرة هي استعارة حرفية من نصوص «آنهي».

(٣)

انفصلت قبيلة الصحراء عن قبيلة الجن. استوطن أهل الصحراء الأرض العراء، ونزل الجن الى الخفاء.

قامت بينهما العداوة.

استنصر الجن بالخفاء، واحتكم أهل الصحراء إلى تعاويذ الآلهة. وسموا جلود الطرائد بالنصوص المنقولة من الحجارة المقدسة، وعلقوها في رقابهم لإرهاب أهل الخفاء. فاحتكم أهل الخفاء إلى الزمان، وتسلّحوا بالنسيان لمقاومة بني الإنسان، لأنهم عرفوا أن نقطة ضعف المخلوق في الذاكرة. فبطل مفعول التعاويذ بالتقادم، ونسي ابن الصحراء لغة الله الأولى. وعندما نسي لغة النصوص الحجرية المنقولة فقد الدليل للحياة، وكتب عليه الشقاء والضياع في صحراء أبدية بلا حدود.

كان المنفى أول قصاص أصاب الصحراوي بعد أن نسي وفقد الصلة بالنصوص الإلهية الأصلية.

فهل توجد هزيمة تفوق فقدان الصلة بالأصل؟

(٤)

ولكن الصحراء ليست وطن الجن فحسب، وانما هي وطن السّر أيضاً. ففي عرائها استطاع أن يختبىء المهاجرون بالوصايا الأولى. الوصايا الأصلية المنقوشة بلغة الآلهة، فحصّنوها من زيف البشر، وحفظوها من لغة السّحرة، فظلّوا على صلتهم العذرية بالسماء.

هؤلاء قوم اهتدوا الى صراط الخلاص بالهجرة. هجروا الاستقرار فنجوا من وباء الاسترخاء. هربوا الى الخلاء واعتنقوا العبور. لا يقضون ليلة في عراء حتى يرحلوا عنه الى عراء آخر في اليوم التالي. لا ينزلون الوادي في المساء حتى يسلموا زمام أمرهم للأفق، بمجرد أن يشقه قبس الفجر. لا ينالون أي شيء إلا ليتخلّوا عنه.

هؤلاء هم الفئة الوحيدة التي فازت بالنجاة وتمتعت بنعمة الذّاكرة فباركتها

الآلهة وأوكلت اليها أمر الوصايا الحجرية.

ولما كان هؤلاء لا يتمتعون بالذاكرة وحدها وإنما بالحكمة أيضاً فقد أيقنوا أن الصحراء وحدها خالدة، وكل ما سواها مهدد بالفناء. وخوفاً على النصوص من الضياع قاموا بنقلها الى جدران الكهوف بلغة أخرى جديدة هي لغة الصور. ظلوا يرتحلون ويتنقلون في صحراء الله الواسعة ويحفرون الرموز مجسدة على الصخور في الأشكال. نقلوا كل الرموز الخفية ونقشوها على الحجر بلغة الرسم.

ولولا هذه الحيلة لاندثرت النصوص وماتت معهم. ولكن هذا العمل لم ينقذ اللغة الإلهية من إبهام اللغة السرية. الحكماء أرجعوا النزعة الرمزية في تجسيد الصور الى طبيعة الأسلاف. قالوا انهم لم يكونوا ليستطيعوا أن يحفروا خطّاً واحداً على حجر باللغة الصحراوية المفهومة دون ان يقعوا ضحية الابتذال أو الزيف. وترجمة النصوص الى لغة الصور كان حلاً وسطاً صالح بين تطرف الكهنة في اجتهادهم من جانب وبين قداسة النصوص الإلهية وسمّو اللغة السماوية الأصلية من جانب آخر. هذا ساعد على ايجاد لغة مشتركة، كانت مفقودة، وقرّب السماء من الصحراء.

موسكو
١٩٩١/٥/١٦

أركان المخطوط الحجريّ

ورث أهل الصحراء ثلاثة أركان في الكتاب المسجّل على الحجارة. ويزعم حكماء القبائل أن الكهنة الأوائل هم من قام بتصنيف المخطوط الحجري وتقسيمه إلى أركان ثلاثة كوّنت الأحزاب المقدّسة للكتاب المفقود. فالنصوص الأصلية متداخلة، مبعثرة، تتحدّث عن رحلة الصحراوي في القارة الخالية دون ترتيب. تتناول التّيه بإشارة حكيمة في رأس اللوّح الحجري، وتعقبه برمز يدل على موقع بئر، وتنهي السّفر بإيماءة غامضة كعادة «آنهي» عندما تكون الإشارة خاصة بالكنوز. فجاء حكماء الزمان القديم (المتمثل في ثالوث الكهنة والسحرة والعرافين) وصنّفوا الأسفار حسب الموضوعات، وقسموها الى ثلاث أركان كبرى. وكتبوا على رأس كل ركن العبارة الشهيرة التي ما تزال تتردد في كل ميعاد أو اجتماع:

$$\Sigma :: O \therefore | \; \Sigma > \Sigma \ldots \| . | \vdots \; \Sigma$$ (*)

ولا أحد يعلم حتى اليوم عمّا إذا كانت العبارة العريقة قد وردت نصّاً في النصوص الإلهية، أم أن الحكمة من ابتداع الثالوث المشرف على تصنيف الكتاب ونقله من لغة الرموز الى لغة أهل الصحراء. ولكن ما يعلمه الجميع هو أن هذه التميمة السرّية هي التي أنقذت الصحراوي دائماً من المتاهة، وقادته الى واحة الصراط. فإذا ضاع الصحراوي ولم يعرف أن يقرأ طريقه في النجوم احتكم الى الحجارة لينال دليله الى الكنوز الجوفية الحقيقية. كنوز الماء والآبار. فإذا تاه في الحياة وفقد الصراط الى نفسه احتكم الى المخطوط في الحجارة ليجد اللغة الإلهية

(*) إيخركن إديقلد آنهي: من تاه فلن يعيده إلا آنهي. (مثل قديم للطوارق).

التي تقول له ان طريق الحقيقة القاسي، الطويل، الى النفس، لا يبدأ بغير السكينة. فإذا جاع وصبر على الجوع نزل اليه الجن متنكرين في ثياب الصحراويين ليقولوا ان الصبر صراط الزهد، ومن لم يتخذ من الزهد عقيدة لن يجد للغنى طريقاً. ولا ينسى حكماء الخفاء أن يقدّموا له خريطة منقولة على جلد حيوان بري، كي تدلّه الى كنوز الذهب.

ولكن ما حاجة الصحراوي لكنوز الذّهب إذا كان قد فاز بكنوز أخرى. بالكنز الإلهي الذي حقّقه بالزهد؟ هذا ما يجعل الصحراويون يقولون ان كنوز الصحراء تهرب من طالبيها، وتهرع لرافضيها. للذهب، دائماً، مزاج الجن، مزاج السّراب: إذا بحثت عنه وطاردته هرب منك، وإذا تجاهلته وأشحت عنه طلع لك ولاحقك.

الحكماء يجمعون أن هذا المزاج اللعوب هو مسلك الحياة.

المبتدأ: الصحراوي ولد تائهاً

من تاه فلن يعيده إلاّ آنهي.

هل هذا اعتراف بسلطة المخطوط السحرية؟ أم إيماء لسلطته الأخرى، الخفيّة، الروحية؟ جزّأ الحكماء التيه الى قسمين. الأول: تيه في الأفق. في الأرض. في الصحراء. التيه الذي ينجم عن متابعة قوّاد المجهول المدعو، بلغة الأرض، سراباً. هذا تيه موروث. هو قدر الصحراوي الذي جاء الى الحياة تائهاً. أو وجد نفسه في الصحراء الواسعة تائهاً، متابعاً رحلة قديمة بدأها جدّه الأول عندما طُرد من «واو» فكتب عليه وعلى ذريته المنفى الأبدي. لهذه الفئة أفرد المخطوط الحجري ركناً كاملاً في قسم الآبار. فبرأي الحكماء أن لا شيء يحتاج إليه التائه في الأفق غير الماء. أما التائه عن نفسه فهو الضائع الوحيد الذي لا تفيد فيه تميمة الماء.

الثاني: تعمّد فريق من الحكماء اضافة عبارة الى المبدأ الإلهي القائل: «من تاه فلن يعيده إلا آنهي» ليصبح بعد التعديل: «من تاه عن نفسه فلن يعيده إلا آنهي». وتحجّج هذا الفريق بأن المبدأ يبقى ناقصاً، ولن يكون إلهياً ما لم يثبّت هذا الإيضاح. قالوا ان التيه المقصود هو التيه عن النفس. تيه الرّوح عن صراط

السكينة. وهو التيه الأسوأ. ونفوا أن يكون التيه الصحراوي في الأفق هو المعني بالأمر. لأن هذا يحطّ من الرمز ويمسّ قداسة المخطوط. فأين آنهي من التيه الدنيوي والركض وراء الأرزاق؟ أين آنهي في نهم الخلق وجشع الساعين وراء الكسب؟ آنهي، في رأي هذا الفريق، لم يكتب لهذه الفئة.

آنهي نص مبعوث للباحثين عن كنوز أخرى. ولعلّ أول هذه الكنوز هو الحقيقة. ولما كان الصحراوي يدفع عمره، ويشقى طوال الحياة كي يفوز بهذا الكنز فإن آنهي جاء كي يعلمه أن الحقيقة التي يفني عمره بحثاً عنها هي أقرب له من حبل الوريد. جاء كي يخبره أن الرحلة كلها تبدأ من النفس وتنتهي الى النفس. ولن تنتهي الى النفس إلا إذا تخلّت عن الحظوظ واهتدت الى صراط السكينة.

المحظوظ الحقيقي هو من قطع المشوار وعاد الى نفسه من أقصر طريق. ويزعم المتشائمون أن آنهي نفسه فشل في أن يقصّر المسافة الى النفس. كأنّ القدر شاء للصحراوي الباحث أن يدفع عمراً كاملاً مقابل بلوغ ذلك الجزء الأقرب له من حبل الوريد والأبعد من الصين: النفس!

الأركان الثلاثة

ورد تقسيم المخطوط إلى أركان ثلاثة: ركن الماء. ركن الحياة. وركن الكنوز.

هنا أيضاً اختلف الحكماء وانقسموا الى فريقين. الأوّل يؤكد قداسة الأركان الثلاثة ويرجعها الى أصل إلهي. في حين يعترض الفريق الثاني ويُرجع ركن الماء وحده الى أصله الإلهي. زاعماً ان السماء لم تكن في حاجة لعنصر آخر غير الماء كي تصنع الحياة. في حين احتاج الثالوث القديم الى تعاليم أخرى تكون للتائه الأبدي مرشداً الى الحياة. أما الرّكن الخاص بالكنوز فكان من صنع الشيطان وحده. انشغل دهراً يفكر في حيلة يستدرج بها هذا المخلوق المكابر الذي سمّته الآلهة إنساناً، حتى اهتدى الى المعدن الأصفر. سحر ببريقه الإنسان فقرر الحصول عليه. ولكن ملك الظلمات سلّم الذّهب الى الخفاء وجعل له الجن عسساً. بدأت معركة الجن والإنس منذ ذلك التاريخ ولم تنته حتى اليوم. وما زال الباحثون عن

الكنوز القديمة يسخَرون السَحر ويصارعون الجن في سبيل الحصول على المعدن الأصفر. يأتون من مراكش محمّلين بالخرائط والتعاويذ. يختلون بالأطفال كي يقرأوا في عيونهم أخبار الكنوز: فإذا حالفهم الحظ وهداهم الى عين تحمل كنزاً اختطفوا الطفل وذبحوه قرباناً للجن وأضحية يرشون بها عسس أهل الخفاء. ويعد ركن الحياة أكبر الأركان حجماً وأكثرها تداخلاً وتعقيداً. تعقيد يصل الى حدّ التناقض في بعض النصوص. وهو تناقض يعزوه بعض الحكماء الى ثراء الحياة وتشابك العلاقات الإنسانية، في حين ينفي آخرون هذا الزّعم ويصرون على بساطة الحياة، مؤكدين أن التعقيد من اختراع الانسان، والتّشابك في الشرائع أمر ناتج عن نشاطه ومحاولاته في تغيير مجرى الحياة الإلهية الأولى. فيرد الفريق الأول بالقول ان الإدعاء ببساطة الحياة وبراءتها هو مبرر لقفل باب الاجتهاد في وجه المخلوق الصحراوي الباحث عن الحقيقة، وقتل لمواهبه الأصلية التي خصّته بها الآلهة. يرد الفريق الثاني على هذا الرد فيتهم الفريق الأول بالدعوة للتمرد ومخالفة شريعة الخالق، واضعاً التسليم في كل اعتبار، داعياً إلى الالتزام بالدستور الإلهي، واتخاذ السكينة طريقا وحيدا للسعادة.

وما زال الخلاف بين الفريقين الحكيمين مستمراً.

يبقى ركن الماء، وهو أنفس الأركان الثلاثة.

وكان جديرا حقاً أن يضعه عشّاق الهجرة فوق الركنين الآخرين ويعتبروه جديراً للفوز باسم «ركن الحياة ودليل السعادة» تأكيداً منهم على أن الصحراوي لا يحتاج لغير الماء كي يكون سعيداً، كاشفين، بذلك، عن موقفهم من النزاع الدائر بين الحكماء حول معنى الحياة، وأقرب الطرق للوصول الى السعادة. لأنهم يضحّون بالحياة ويستبدلونها بمعنى الحياة، يبيعون السعادة مقابل الطريق الذي يتوهمون انه يستطيع ان يقودهم الى السعادة.

عشّاق الهجرة تجاسروا فعكسوا الآية. اختاروا الماء بدل الحكمة. فقايضوا، بهذا الاختيار، الحياة مقابل معنى الحياة. كسبوا السعادة بدل المسائل المؤدية الى السعادة. تركوا الحكماء وطلاّب الحقيقة يتنازعون وخرجوا. خرجوا بسرّهم الى الخلاء، فرّوا بالتميمة واحتموا بالعزلة والهجرة الأبدية.

ولم يكن ليحتاجون في هذه الرحلة الخالدة لشيء آخر غير الماء.

كانوا يتنقلون بين الكهوف. يرصدون السفوح، ويقلبون الحجارة، فإن عثروا على لوح مطمور انهمكوا في فك الرموز. ولا يتوقفون عن القراءة والمحاولة حتى يهتدوا الى موقع البئر الجديد. والاهتداء الى بئر هو اكتشاف لنبع الحياة.

اعتاد عشّاق الهجرة ان يتساءلوا: أي شيء يحتاجه الصحراوي غير اكتشاف نبع الحياة؟

ولم يكونوا ليتوقعون أن يتلقَّوا جواباً على السؤال من خلق شَغله النزاع حول معنى الحياة عن الحياة، وأنساه الصّدام الأبدي عن الطريق الى السعادة أن يعيش السعادة نفسها.

موسكو
١٩٩١/٥/١٩م

العمامة الزرقاء

انتصب الجبل المدبّب جنوب الحمادة الحمراء، يتفرّج على رؤوس أهل الصحراء الملفوفة بالعمامات الزّرقاء. لفحه القبلي وحرقت شمس الجنوب رأسه الحاسر. صلّى طويلاً. توسّل آلاف آلاف السنين موجهاً خطابه الى السماء. طلب، في صلاته الصامتة، عمامة من السماء تقيه صفعات القبلي وتحميه من حريق قرص النار المعلّق فوق رأسه، وتجعل منه شبيهاً جليلاً بأهل الصحراء النبلاء.

سمعت الحمادة شعائره الصامتة فحدثته قائلة:

ـ أنت إبن السماء، فكيف تحير في اكتساب خرقة بائسة استطاع حتى الإنسان أن يصنعها لنفسه؟

اغتمّ الجبل المدبّب وقال باكتئاب:

ـ وهل يستهان بمواهب هذا المخلوق الصغير؟ لو لم يكن عبقريّاً لما استعبد جسدك وشقّ وجهك بالمحراث. لو لم يكن مخلوقاً مختاراً لما ركّع الجبل المكابر. لم استطع ان امنعه من ان يتسلّق قامتي ويتربّع على رأسي. الانسان هو ابن الآلهة المدلل ولست أنا.

ـ ظننت أنّك ابن السماء المدلل أيضاً.

تابع الجبل الأفق البعيد وقال بحزن:

ـ كنت مدللا في السماء، ولكن نالني غضب مولاي فأنزلني الى أرضه،

وعرّض رأسي للشمس والقبلي تنفيذاً للقصاص.

ـ هل اقترفت إثماً جسيماً إلى هذا الحدّ؟

ـ إثمي في رأسي المدبّب. الرأس المكابر، المرفوع، لا يروق لآلهة السماوات.

ـ فهمت. الآلهة ترفض من يشاركها في الكبرياء، كما ترفض السماء رأساً ينافسها في الارتفاع. هذه طبيعة الآلهة، طبيعة الاشياء. من أراد أن يجاور الآلهة ويحتفظ بالعُلا، عليه أن يفهم طبيعة الأشياء.

قال الجبل المدبّب متعجباً:

ـ يحيّرني أن تتحدّث الحمادة الوضيعة، المطروحة في الحضيض، بلغة الحكمة والآلهة. لم أسمع هذه اللغة الجميلة منذ طُردت من السماء.

ابتسمت الحمادة وأجابت بخبث العجائز:

ـ ومن يملك الحق أن يتحدّث لغة الآلهة غير الأرض والحضيض؟ من رضي بالانحطاط، وقبِلَ أن يكون مداساً وفراشاً وحقلاً امتلك الحق في لغة الحق والحكمة والآلهة أكثر من حق أهل السماء انفسهم.

هزّ الجبل رأسه المدبّب عجباً وقال:

ـ هذا منطق يغضب الآلهة. أخشى أن ينالك القصاص.

ضحكت الحمادة لأوّل مرة منذ بداية اللقاء. قالت:

ـ وهل يوجد في كل الأكوان قصاص يعادل قصاصي؟ هل تستطيع الآلهة أن تبتكر جزاء أقسى من أن يطرح الآثم أرضاً، ويشتت ويفتت، وينقسم الى هباء ورمل وحصى وحجارة وصخور، ثم يعجن في الطين ليكون مداساً وفراشاً ومأوى وحقلاً وكل شيء؟ هل تستطيع آلهتك أن تخترع عقاباً أسوأ من هذا العقاب؟

فقال الجبل الأقهب بيقين:

ـ في رأس الآلهة دائماً توجد المعجزات.

فأجابته الحمادة بيقين أيضاً:

ـ استنفدوا كل المعجزات بشأني. وربما كان القبلي آخرِ تلك المعجزات التي سلّطوها على رأسي.

ـ أرأيت أن في رأسهم دائماً تختبىء مفاجآت؟

ـ دعنا الآن من الآلهة وهيّا نعقد صفقة.

تساءل الجبل متعجباً:

ـ صفقة؟

سكتت الحمادة طويلاً، لاعبت السّراب اللعوب، ثم قالت:

ـ أستطيع أن أهبك القناع الأزرق إذا ساعدتني في محاربة القبلي.

استنكر الجبل:

ـ وهل يوجد من يستطيع أن يقاوم رسول القدر؟

ـ تتمتّع بكل الخصال اللازمة للقيام بهذا العمل.

ـ خصال؟

ـ الرأس المرفوع، القامة المارِدة، العرقوب العريض، و... قوة البدن.

ـ هل هذه مزايا كافية لمقاومة القدر؟

تعجبت الحمادة:

ـ ولماذا تخشى القدر إلى هذا الحد؟

قال الجبل بحزن:

ـ لأنني رأيت أن الآلهة نفسها تخاف القدر وتحذّر من الوقوف في وجهه.

فكّرت الحمادة قليلاً. تنهدت بيأس فارتفعت في الأفق ألسنة البخار والسراب. قالت أخيراً:

ـ لديّ عرض آخر.

ـ ما هو؟

ـ ما دمت تخشى القدر إلى هذا الحدّ فلا أظنّك تخشى أن تعترض السّحب العابرة، وتأتي لي منها بالماء، فأنا ظمأى.

قال الجبل في حيرة:

ـ الحق أنّي لا أعرف كيف أفعل ذلك.

صرخت الحمادة بغضب:

ـ أنت تعجز في محاربة القبلي وتدّعي أن في مقاومة الريح تحديا لإرادة الاقدار، وتتكاسل في اعتراض سحابة لأنك لا تريد أن تستخدم الصومعة المدبّبة التي تتوج رأسك. إعلم يا جبل أن على منْ وجد نفسه في الصحراء أن يفعل شيئا. الوجود في الصحراء غير الوجود في أي مكان آخر. فأن تتمتع بالخلوة والخلاء لا بد أن تدفع ثمنا مقابل ذلك. لا شيء بلا ثمن. هذا دين الكون. هذا دين كل الأكوان. مسحت عرقا غمر جبينها بسبب الانفعال ثم اختتمت خطابها الغاضب:

ـ ليس أمامك إلاّ أن تدفع لي ماء مقابل العمآمة الزرقاء.

أشاحت عنه بوجهها وتركته وحيدا.

فكّر الجبل طويلا. استعاد الحوار بالحرف واكتشف، مدهوشا، ان الحمادة على حق. قال لنفسه أن لا شيء بلا ثمن حقّا. وكان سعيدا لأنها فتحت عينيه على هذا السّر. عليه أن يبذل جهدا ما إذا أراد أن يشتري الحماية من حريق الشمس وصفعات القبلي. يبيع الجهد الصغير وينال قناعا أزرق، مهيبا، يلف رأسه إلى الأبد. يا لها من صفقة حقا! المقايضة سرّ الكون، والتجارة تميمة الحياة.

في الليل تسلل الجبل واعترض السحابة. نطحها بالعمود المنصوب على رأسه فأصابها بجرح بليغ. بدأت السحابة تنزف الماء وتبكي. اعتذر الجبل بعينين دامعتين وخاطبها بطلب الغفران قائلاً: «اغفر لي يا بساط الماء قساوتي. لولا قوانين الوجود لما جرؤت على انتهاك حرمك. لولا قساوة الحياة لما تجاسرت على العدوان. ليس ذنبي أن المهزلة قائمة على المقايضة. ليس إثمي أن التجارة هي التي

تحكم الصحراء أيضاً. لست أنا من صنع تميمة الكائنات التي ترفض أن تهبني عمامة إلا إذا جئتها بمائك». بكت السحابة الجريحة، ولكنها غفرت للجبل خشونته.

شربت الحمادة حتى ارتوت. جاءت الى الجبل وقالت له:

ـ الآن سأعرف كيف أشكرك. سأرد لك الجميل شريطة أن تتحمّل وتصبر.

لم يفهم الجبل فأوضحت الحمادة:

ـ لا بد أن تتألم إذا أردت أن تنال. وإذا أردت أن تنال فلا بد أن تولد مرتين.

هزّ الجبل رأسه ولم يفهم.

بدأت الولادة.

أخرجت الحمادة أثقالها، وسلطت على الجبل الأقهب بركاناً قاسياً استمر يلفظ الحمم عدة شهور. تعذّب الجبل وغاب في الظلمات. وُلد من جديد فاوقفت الحمادة حمم الأحشاء. تلوَنت قمته بالزرقة، ووجد نفسه يرفع رأساً متوجاً بعمامة زرقاء. شكر الحمادة الحمراء وآلى على نفسه أن يأتي لها من السحاب بالمياه السرّية كلما تمادى في الصحراء الجفاف.

موسكو
١٩٩١/٤/١٧م

البرزخ

اشتعل الفضاء في الواحة.

بقيت في القمة، وسط فروة السعف، فوق العش، تحتمي بالنخلة، وتحمي الفرخ.

في الأسفل، عند الجذع، كمن مقاتلان خلف تلة رملية صغيرة. يرتديان ثياباً فضفاضة، ناصعة. معمّمان بلثامين ناصعين أيضاً كأنهما أقبلا للمساهمة في فرح أو عيد وليس للمشاركة في اشتباك. أحدهما نحيل، طويل القامة، يمسك بسلاح قصير الذراع. أما الثاني فمكتنز، عريض المنكبين، يمسك بسلاح أطول ذراعاً. زحف النحيل على مرفقيه حتى رأس التلة. سدّد الأداة إلى الشمال و..:

ـ طاخ ـ طاخ ـ طاخ..

ثلاث مرات. فزعت. تكوّر القلب وتدحرج إلى أسفل. صفقت بجناحيها دون أن تدري. وجدت نفسها تتخلى عن الفرخ وتطير. اخترقت الفروة وخرجت إلى الفضاء. رفرفت بهلع وهي تتجه صوب الأحراش البعيدة. ولكنها سمعت النداء البائس:

ـ صوْ ـ صَوْ ـ صَوْ..

فتذكرت الفرخ. عاد لها العقل الطائش فحلّقت في دائرة طويلة وعادت باتجاه النخلة المكابرة. في اللحظة التي مرقت فيها داخل الفروة تزلزلت الواحة بالدوي:

ـ بوووم!

اهتزت النخلة، وشاهدت أفراداً من العشيرة ينتشرون فوق الأحراش الشمالية، ويتشتتون في الفضاء. ظلّت ترفرف داخل الفروة في احتيار. حلّقت فوق العش. ظل الفرخ المزغب يرفرف بجناحيه في عجز، شاهرا رقبته البائسة الصغيرة في الهواء، باحثاً عن صدرها. حطّت فوقه وغمرته بريشها الدافىء، الكثيف.

دسّ رأسه في الريش، هرشها بمنقاره الشقي في الصدر. ظل الصدر يعلو ويهبط. في الناحية الأخرى ارتفعت سحابة من الغبار. غطّت قرص الضِّحى وأخفت سرب العشيرة. في الأحراش ارتفع ذيل طويل من دخان.

هدأ الدويّ المتبادل. توقف حوار البارود. ولكنها استمرت ترتجف. في ريشها ارتجف الفرخ وازداد بها التصاقا. تلاحما. تداخلا. فأصبح نبضهما، رجفتها، ايقاعا محموما واحدا. ظل الغبار يتصاعد في الفضاء. تبعه دخان الأحراش الشمالية في ذيل شفاف، انتهكته أشعة الشمس. تخاطب المحاربان عند الجذع. استند النحيل على النخلة وتلهى بالتملص من الغبار. في حين انهمك الآخر في الاعتناء بالسلاح وشحنه بقطع الذخيرة. راقبتهما من خصاص السعف وتمنّت أن تبلعهما الأرض. لو بلعتهما الأرض أو طارا في الفضاء، مع حبيبات الغبار، لاستعادت قلبها وذاقت طعم الخلاص والسكينة، لو اختفيا لضمنت سلام العش وسلامة الفرخ العاجز، الخائف، الوحيد.

هيمن سكون.

فكّرت. لا يكمن السبب في المخلوقين. فهما يحتميان بالجذع كما تحتمي هي بالقمة. بالفروة. بل المصيبة أنها لا تمتلك مخالب مثل الصقور. لو كانت صقراً لاحتضنت الصغير بين مخلبيها وفرّت به الى أبعد نخلة، أو دغل أو واحة. لا. الذنب ليس هنا أيضاً. ليس من حقها أن تحلم بامتلاك ما لم تهبه الطبيعة. هل هي أحكم وأذكى من الطبيعة حتى تتجاسر وتحمل نفسها وزر هذه الأمنيات البلهاء؟ الخطأ في مكان آخر. أين الخطأ؟ و..

ـ طاق. طاق!

ثم:

ـ طق ـ طق ـ طق.

لم تعد تحتمل. وجدت نفسها تحلّق عالياً، بعيداً، غائبة، ناسية. وما أن عادت إلى نفسها حتى دارت وعادت إلى الفروة. إلى العش. وجدته ينتفض كأنه يحتضر. يزقزق بصوْصوته الفاجعة ويبحث عن حضنها الدافىء المفقود. ضمته إلى صدرها وضمت أيضاً رجفته إلى رجفتها. هدأ حوار النّار. راقبت تنقّل المحاربين على طول الجبهة الجنوبية. غيروا المواقع واحتموا بالاستحكامات الرملية، ولكن الجار النحيل وضيفه البدين لم يتحركا. أفلت منها الذّرق رغماً عنها. أفلت من الفزع فسقط على ذراع النحيل كما يبدو. سمعته يقول لجاره:

ـ هل يعقل أن يتحمل الحمام الطلقات ويبقى في رأس النخل؟ عجيب!

ضحك زميله. سمعته يعلّق:

ـ ربما فرخ. في القمة يبقى العش، ولكن الحمام يطير.

ثم ضحك، ولا تعرف لضحكته سبباً. إذن، أين الخطأ؟ الخطأ في رجفة أخرى. الرجفة الأولى. خفقة القلب البكر والتعلّق بالقرين. لو لم تعشق لما ارتبطت بقرين وارتكبت الحماقة. نعم، في هذه النزوة يكمن سرّ الشقاء كله. تعلقت، فباضت، فقست بيضة العشق عن الثمار. عن الخطيئة. عن الفرخ. الفرخ الذي يملك قلبها ويشدّها الآن إلى الشجرة، فتبرك راجفة بين الأشواك والليف تحت رحمة الخطر. تحت رحمة الطقطقات والطخطخات والدمدمات. دمدمات وحشية لم تسمع بمثلها قبل اليوم. روت لها جدتها عن هذا الدوي أساطير عقب عودتها من هجرة موسمية شقية إلى الشمال البعيد، ولكنها لم تظن أبداً أن أساطير العجائز يمكن أن تصبح حالاً واقعاً.. و..

ـ بوووم!

اهتزت النخلة، تزلزلت الأرض. احترقت السماء والشظايا وسحب الغبار والدخان. كادت الواحة البائسة أن تختفي. ومن فرط رعبها انشلّت هذه المرة. عجز جناحاها عن الرفرفة. فتكوّمت، وتكوّرت حول نفسها حتى كادت أن تختفي أيضاً. صَوصو الفرخ في أحشائها وتحولا، معاً، الى كتلة واحدة، صغيرة، راجفة،

من الريش. تحت الريش ساح سائل، وغمر البدن بالنداوة والبلل. من عينيها أيضاً فزّ البلل. بلل حار وأليم. تحول قلبها الى جمرة تتجوّل في صدرها وتلعن الذكور. يظل الذكر يحوم حول الأنثى حتى يوقعها ثم يتركها مع الفراخ في العش ويهرب. يهاجر وراء أول أنثى ويدعها وحدها مع الفراخ والخطر. لعن الله الذكر.

في الأسفل، عند الجذع، بصق البدين لعاباً ممزوجاً بذرّات الرّمل، وخاطب رفيقه:

ـ أخبرت الزّعيم بسلوك هذا الغول!

النّحيل لم يجب. انشغل بإزالة الرّمل عن البندقية، ثم شحنها بأصابع الرصاص. أضاف البدين:

ـ فوهته في سعة فم التنّور. طلقته تولول طويلاً قبل أن تسقط. ثم، ثم تزأر كالسّبع عندما تنفجر.

أنصت للمناوشات بعيارات البنادق في الجهة الغربية، القريبة من أحراش السّواقي. علّق النحيل فجأة:

ـ مسكين الحمام. يرمي بالفضلات وهو معتصم برأس النخلة. لن يتمسّك بالبقاء في النخلة لولا وجود العش. مسكين الحمام.

ولكن الرفيق مسح العرق عن وجهه بطرف لثامه، وواصل حديثه عن سلوك «الغول»:

ـ يخرج من هذا الوحش القبيح بدن يكفي لحرق غابة. رأيته عندما هاجمونا في مدن الشمال، عند بداية الغزو، يحرق مزرعة كاملة. ألم تر النّار كيف اشتعلت هناك في الأحراش، منذ قليل؟

هَسْهَس النحيل بكلام مهموس مثل أغنيّة شجينة مكتومة من النّوع الذي يخاطب به المهاجر الملكوت القائم خلف الأفق الخفي عندما يكون وحيداً في الصحراء. أنصت البدين للنّشيد فلمعت عيناه بالبلل والوميض. قال بصوت كسول:

ـ قلت للزعيم أنهم لن يدعونا نصل إليهم. سيرموننا بحمم التنوّر من أبعد

مسافة كما فعلوا معنا في الشَمال، ولكنه لم يأخذ بتدبيري، لأن المثل يقول: ليس من رأى كمن سمع.

هيمن صمت متوتر، كئيب، محفوف بالانتظار، ازداد البريق في عيني البدين، أفلتت من مقلته اليمنى حبة نقيّة كقطرة مطر ثم قال بصوت مخنوق:

- إنهم جبناء!

في تلك اللحظة انطلق العويل المكتوم، المشبوه، المتوعَد، الغدّار، قبل أن تسقط القذيفة عند حضيض النخلة.

قبل أن تفيق تماماً من الدوي سمعت صوتاً طائراً في الهواء. أدركت، في غمضة، أن هذا الصوت الكئيب، الموحش، الخفي، كان قد سبق الانفجارين السابقين، فازدادت تضاؤلاً والتحاماً بالوليد، حتى أصبحا قطعة واحدة. وبرغم هذا الالتحام إلا أن قوة الدمدمة هذه المرة أجبرتها أن تنفصل، في لحظة مشحونة، خاطفة، عن الطرف الآخر، عن جزئها، عن نفسها، وتطير إلى أعلى بدون ارادة أو وعي. فردت جناحيها تلقائياً، وبرغم أنها لم ترتفع، فوق العش، سوى شبر أو، ربما، عقلة اصبع، إلا أنها لم تجد العش، عندما عادت وأرادت أن تنزل فوق الوليد.

ماذا حدث؟ لم تنتبه، هذه المرة، للدوي، لم يفزعها عنف الانفجار، لم يتدحرج قلبها إلى أحشائها، لأن الشظية سلخت قلبها من جسدها وأخذته، مع العش، الى المجهول. تفقّدت الفروة بنظرة واحدة، شاملة، ولكنها كافية لترى الفاجعة. لا أثر للفرخ. ضمت جناحيها الى صدرها ونزلت على رأسها، نحو الأرض، وسط عاصفة الغبار التي خلّفها الانفجار. كان الرجل البدين ممدداً على الرملة، بجوار الجذع، وقد غطاه الغبار والدم وأشلاء العش. فوق صدره رقد فرخ صغير، اخضر، مكسو بزغب ذهبي. بمنقار مفتوح كأنه يطرح سؤالاً. في رقبته نز خيط صغير من الدم.

ظلت ترفرف فوق الجثمان الممدد بجنون من فقد عقله أيضاً.

زحف النحيل نحو رفيقه. تفحصه لحظات، ثم أسبل له جفنيه وسحب على وجهه اللثام. حام حوله وحامت هي فوقهما. جرّه من رجليه ويمّمه شطر القبلة. ولكنه لم يقترب من الفرخ.

رفرفت فوقهما بيأس وجنون.

ثم..

ثم عاد الصوت المخيف. الخفي، الوحشي، الذي سبق الدوي. وقبل أن تتدبر الخطر هوى جسم ودوى انفجار. اختفى الجثمان مع الفرخ، وطار إلى أعلى الرجل النحيل. في نفس اللحظة كان الطائر، المرفرف في الجو، يهوي إلى أسفل، ليلتقي مع الانسان الطالع، في برزخ غامض، بين السماء والأرض.

باتا تنتهك الحَرَم،
وتهرع إلى خباء العريس (*)

(*) باتا : بطلة روايتي « البئر » و« الواحة » (الروايتان الأولى والثانية من رباعية « الخـــوف »).

(١)

ركعت الشمس وانكسرت في طقوس الاحتضار. مدّت أشعة نحاسيّة حزينة كأنها غول الخرافات يمدّ ألف لسان وهو يختنق ويلفظ أنفاسه الأخيرة.

توعدت الصحراء بالعتمة.

انتاب المهاري القلق. فالعتمة خطر على الانسجام. العتمة قناع يحجب الكبرياء، يخل بالميزان، يطعن اللعبة في الصميم، ويحوّل الفرسان المهيبين، المكابرين، الى خيال، إلى أشباح تتراكض في ظلمة الخلاء.

« حان وقت الخروج ».

هكذا تهمس عتمة المساء في آذان الفرسان. يقرأون الخبر في عيون المهاري. يتلقون الإشارة في رعشة الغضون المطبوعة على الرقاب الهيفاء حيث تستقر بطون الأقدام. يتبادل الفرسان النظرات. تتبادل المهاري النظرات أيضاً. يتناقلون الخبر: « حان وقت الخروج ». ينطلق القرينان من هذا الجانب، بعد أن يكونا قد عقدا عزماً بالعينين، فينطلق بالمقابل، في الأفق الآخر، البعيد، المعاكس، قرينان مماثلان. يتعاكسان بجلال، وكبرياء، عند المركز، حيث تتحلّق الصبايا، ويرتفع الغناء. الصبايا. الصبايا دائماً مركز اللقاء. نقطة التقاطع، ينبوع الحزن والغناء. الصبايا. يقطع الصحراوي القارة الخالية من اقصاها الى أقصاها، ويعود الى نقطة الإنطلاق، إلى الصبايا. يخرج الى الغزوات في سبيل الصبايا، يصدّ الغزاة دفاعاً عن الصبايا

في سبيل الصبايا. يسقط في الوجد تدلّهاً وعشقاً للصبايا. يغني في الخلاء حنيناً للصبايا. يولد ليحبَّ الصبايا، ويموت خوفاً من فعل ربما بدا عاراً في نظر الصبايا. الصبايا في الصحراء، قدر الرّجل، إلهات الصحراء.

وعندما يرفعن الحناجر بالغناء الفاجع فإن كل شيء لا بد أن يرقص في الصحراء: الرجل يرقص، المهري يرقص، الجن يرقص، السراب يرقص، وحجارة الجبال أيضاً تلين وترق، وتسقط في الوجد، و... ترقص!

تقاطع الغناء الشّجنى الحزين مع عتمة المساء. وإذا حان الوقت، وحدث التقاطع، فلا بد من تنفيذ المشيئة الصحراوية القديمة التي تجبر أحد الطرفين على التنازل والانسحاب من ساحة المهرجان. ولمّا كان المساء لا يستطيع أن يتوقف أو يتراجع عن المجيء فلا بد أن يأتي الدور على الغناء كي يتنازل ويتوقف. وإذا توقف الغناء انتهت الشعائر وجاء وقت الخروج. بدأت العتمة في تنفيذ المشيئة الخالدة.

لم يبق للفرسان إلا الانسحاب، والخروج من الحلبة.

(٢)

انتقل الفرح من السهل الفسيح الى الخباء المخنوق.

في خباء العروس جلست باتا. حولها تحلّقت الصبايا. قامت اثنتان بغسلها بالماء النفيس. وتطوعت فتاتان بتدليكها بمرهم زهرة الرّتم. هرعت ثلاث أخريات لتمشيط شعرها وتزييته بزيت الزيتون المستْجلب من جبل نفوسة.

تلامع الشعر الفاحم تحت اشعة الشمس الصارمة فضفرته العجوز الخبيرة في جدائل دقيقة شدّتها الى الخلف فتدلّت الضفائر على جانبي أجمل وجه أنجبته الصحراء، كأنها قلائد الخرز المعقودة حول جيد باتا الذي بدا، بعد شعائر الغسل والتدليك والدهون، مصقولاً كقطعة حجر شذّبها ريح القبلي. في عيني العروس لمع ذلك البريق الذي صرع كل رجال القبيلة وسمّته العجائز الحكيمات: «بريق الجنّ». بريق الأسلاف الذين استبدلوها بابنتهم في غفلة من أهلها عند الميلاد، ونفخوا فيها من روحهم الشيطانية فأزاحتها من الصحراء وهي ما تزال في المهد. ثم

وضعوا في يدها بندقية، بمجرد أن خرجت من القماط، لتطلق على أبيها النار وهو يتمتع بإغفاءة القيلولة. الاسلاف أنفسهم، مُلاّك الصحراء الأصليين، الذين نزعوا من قلبها نعمة الحياء وشجعوها أن تهجم على رفيقها الفتى، في المرعى، في نية لأن تكتشف الرجل تحت ثوبه الفضفاض. فكيف لا يصرع هذا البريق فرسان الخلاء؟ وكيف لا تصل سيرة هذا الكائن الخفي، الذي تخبئه في الوعاء الجميل، الى أمراء آهجّار وآير وآضاغ؟ كيف لا يتسابق النبلاء للفوز بإمرأة مستعارة من دنيا الأساطير، لها سحر الماضي، وفتنة الصحراء، وروح صبايا الجن وقدراتهن؟.

بريق الجنّ. سلطة الاستدراج والغواية. وهج النار الذي يجذب الفراشات للانتحار في اللهب. الألق الفضي المستمد من ألسنة السراب وهي تقود الظمآن لتسلمه الى الأفق الخفي. بريق المجهول هو سرّ باتا وتميمتها السحرية التي ساعدتها في أن تتربع على عرش أجمل امرأة في الصحراء. اجمل عروس في الصحراء. الطقوس الآن زادت هذا البريق ألقاً وسحراً وطغياناً وجنوناً. فهنيئاً لعريس آير الذي سيضم اليه، على متراس الرمل، حفيدة الحُسن والجن والأساطير.

(٣)

أخيراً نهضت العجوز وخاطبت باتا بلسان الاسلاف:

ـ الآن حان أوان الانسحاب كي نعطيك فرصة الهرب. عليك أن تنزعي من رأسك كل حماقات الجن وتعلمي انك تدخلين على عريس من الإنس. لا يفوتني أن أعترف أن هناك أصواتاً كثيرة ترتفع في نقاط متفرقة من الصحراء ترجع أصل أهل الصحراء أيضاً الى الجن، ولكن حتى لو ضممنا أصواتنا لتلك الأصوات فإن وحدة هذا الأصل تعود الى ماضٍ أبعد من ان يصدّق أو يؤخذ على محمل الجدّ. لا تبتسمي هكذا وأحسني الاستماع عندما تتكلم العجائز! وحتى لو سلمنا بالاشتراك في الأصل القديم فنحن اليوم ابناء الصحراء. ضيوف الصحراء. ومن رضي أن يقبل استضافة الصحراء عليه أن يلتزم بشريعتها. وهروب العروس ليلة العرس أولى الشرائع. وقد تمتعت كل امرأة سلمت مصيرها لرجل بهروب الليلة..

ولكن باتا قاطعتها فجأة بجسارة تليق بفتاة من الجن:

ـ ولكن الى أين ستفر العروس في هذا العراء؟ أين ستختفي امرأة في خلاء فسيح لا يستطيع أن يخفي بعرة بعير؟

تضاحكت مجموعة من الصبايا في زاوية الخباء، ورأت العجوز أن عليها أن تقمع وقاحة باتا بحجة صارمة حمايةً للشرائع الصحراوية المقدّسة من الاستهتار. لفّت وجهها المكبّل بالتجاعيد وقالت:

ـ تخطئين كثيراً يا ابنتي ان استهنت بقدرة الصحراء على حجب الكائنات وإخفاء الخلق. وما كان جديرا بابنة الجن ان تطعن في كفاءة الصحراء على الإخفاء. ألا تخفي الجن أنفسهم؟ ألاّ تخفي الشعوب والقبائل؟ ألاّ تستر أكبر الأسرار؟ ألا تحجب الماء؟ ألا تخبىء الكنوز؟ ألا تخبىء المدن والعجائب؟ ألا تخفي سلطان الضياء وإله الكائنات نفسه؟ بل إنها تخفي كل شيء ولا تبدي، في عرائها، إلا السراب اللعوب لأنها تريد أن تسخر من الخلق البلهاء أمثالك! أم أنك تمزحين؟ لا شك أنك تمزحين.. احتجّت باتا:

ـ لا أعرف حقا أين تخفي كل هذا العجب، ولكني أتحدث عن مخبأ حقيقي؟

ـ وهل المخابىء التي تحدثت عنها وهمية؟ اختبئي وراء سدرة أو شجرة رتم، أو صخرة، أو رابية، أو حفرة، أو ادخلي حتى في الحجر...

ضحكت إحدى الفتيات المكدسات في زاوية الخباء فاعترضت صبيّة بلهجة جادّة:

ـ إذا سمحت لها، يا عمتي، بأن تتوغل في الصحراء وتدخل حتى الجحور فإن هذا من شأنه أن يصعّب مهمتنا في البحث عنها ويجعل العثور عليها في الليلة الأولى بعيد الاحتمال. وبدل أن تجيب العجوز على اعتراض الفتاة قرعت رأسها بسبابتها كأنّها تذكرت شيئاً. ازدادت الغضون على وجهها خشونة وشبهاً بجذور الأشجار عندما يقتلعها السيل، وصرخت في وجه العروس:

ـ ولكن.. يا ربي، كادت الجنيّة تجعلني أنسى! ولكن.. لماذا لا تبكين؟ لماذا لا أرى دمعاً يسيل؟ لماذا تصرّين على مخالفة شرائع الأولين؟ هيا.. إبك الآن! يجب أن أسمعك الآن وأنت تبدأين في البكاء! بلّلي العين بالدّمع أولا!

انحنت على عمود من الحطب وتقدّمت نحو باتا. تقهقرت العروس

واندّست بين الفتيات.

تعالت الأصوات. اصوات الغنج والفزع والبكارة وتمنّع العذراوات.

أمّا باتا فكانت تحتمي بالصبايا وتبتسم بخبث وهي تتراجع امام العجوز.

(٤)

اضاء البدر العراء فسعت باتا في الأرض.

عبرت الرّابية الممدودة غرب - جنوب النّجع. اجتازت وادي الرّتم. تسكّعت في الخلاء المفروش بسجّاد من الحجارة المحروقة.

هامت باسترخاء، ولم تبحث عن الصخور، أو الجحور، أو الحفر، كما علّمتها العجوز أن تفعل، لأنها فكّرت في الخجل الكذوب، وتلهّت بعشق أهل الصحراء للتورية وخبرتهم في المضي عبر المسالك المؤدية الى النقائض. إذا أرادوا أمراً مضوا بعيداً، ولمّحوا له بالإشارة. وإذا جاعوا ضحكوا، وإذا شبعوا بكوا كما تفعل الذئاب. ويبدو أنهم استعاروا هذه الأخلاق من أجدادهم الذئاب. أما المسلك المقلوب، فعقيدة استعاروها من الوصايا المحفورة في الصخور التي تركها لهم الأسلاف في الرموز والصور وحروف «تيفيناغ». وقد استفاد طلاّب الكنوز من هذا السرّ. فكانوا يتجهون جنوباً إذا قادت الإشارة إلى الشمال. ويتجهون غرباً إذا دلّت العلامة على الحجر إلى الشرق. السحرة أيضاً استثمروا هذا التراث الحجري. فكان الساحر الموهوب لا يبدأ رحلته في الغيب، ولا يخاطب الآلهة في السماء إلا إذا تخرج من مدرسة الأرض، وتفقّد الوصايا السرية في جبال «آكوكاس» و«تادرارت» و«متخندوش» و«تاسيلي» والسلسلة الزرقاء التي تطوّق الحمادة وتحميها من حملات القبلي وغزوات بحر الرمال العظيم. السّحرة أول من فك الطلسم واستفاد من الرموز المعكوسة. السّحرة أول من توارى في الظل وترك جسده هيكلاً بليداً خاوياً لا يقتله الرصاص، ولا تنفذ إليه طعنات السكاكين. وعقلاء القبيلة أيضاً أرادوا أن يتشبّهوا بالسحرة فاخترعوا للعروس أن تتمنّع وهي راغبة، وتفرّ الى الخلاء بدل أن تهرع الى خباء المحبوب. فرضوا عليها أن تذرف الدمع المدرار بدل أن تملأ الصحراء بالفرح والضحك.

ولأنهم لا يتقنون إلاّ احتساء الشاي الأخضر والاصغاء للسكون الصحراوي المخيف، فإنهم يريدون ان يملأوا الكون بالكآبة. يستعيرون الحزن من السكون الميّت ويقومون بفرضه على قلوب العرائس ليلة الفرح مدّعين أن ذلك وحي من الأسلاف وتنفيذ لإرادة الأجداد. يقولون دائماً ان الحكمة في النقيض. السرّ في النقيض. الحياة في النقيض. ولكن هذه فلسفة أهل العراء.

أما هي، باتا، سليلة أهل الخفاء، فعليها أن تلتزم بالنقيض. أهل العراء يتوقون لمحاكاة أهل الخفاء فيلجأون للتواري والتخفي وعبادة السر، وأهل الخفاء يتوقون للتبدّي، والتعرّي، والظهور. أهل الخفاء يعتنقون ديناً آخر. عقيدة النقيض التي تقود الى الغاية من الصراط المستقيم. الجني، عكس الصحراوي، إذا جاع بكى، وإذا شبع ضحك، وإذا أشار الى الشمال سلك طريق الشمال، وإذا فرح رقص، وإذا انتفض قلبه بالعشق ذهب من أقصر طريق الى المعشوقة وكشف لها عن نيته في الفوز. قلوب الجن على أكفّها. والخداع من طبيعة أخرى، الخداع من طبيعة البشر وحدهم. الجن لا يعترفون بالنقائض، ولا تستطيع الجنية أن تتمنّع وهي راغبة. وهي الآن ستتقيّد بسلوك الأسلاف أيضا. ستذهب الى عريسها النبيل من أقصر طريق. سترفض نقائض الخداع وتنزع من رأسها الخجل الكاذب. ولماذا عليها ان تخجل إذا كانت عاشقة وسعيدة بالفوز بالعريس؟

ستتخلى عن حكمة العراء لأهل العراء. ستترك الحنين للإخفاء والتحايل لسلالة الإنس، وستلتزم بعقيدة الأسلاف، بفلسفة الباطن الساعية لاجتياز النقائض وإبراز النوايا، والذهاب الى الغاية من الصراط المستقيم.

انحرفت يمينا. عبرت الوادي. صعدت الرابية. توجهت الى خباء يقف بعيداً، وحيدا، معزولاً. في عزلته غموض، وغواية، ووعد بالوصول والفوز والفردوس.

(٥)

في العراء تراكض الصبيان. قطعوا السهول الجنوبية حتى بلغوا مراعي الإبل. فتّشوا الخلاء وبحثوا عن باتا بين الصخور والجحور وشجيرات البرّ. داروا غرباً وتسلّوا بالحوار في الطريق. قال أطولهم قامة:

ـ لا أعرف أين يمكن أن تختفي الشّقيّة. كأنها عادت الى أهلها في الخفاء.

ثم أكمل بسؤال:

ـ ألا يجوز أن تكون قد اختفت في حجاب الجن حقاً نكاية بنا؟

تضاحك الصبيان. علّق آخر:

ـ هل تصدّق أنها تنتمي الى الجنّ حقّاً؟

دافع الطويل عن فكرته:

ـ ولماذا لا أصدق؟ وهل فيكم من لا يصدّق؟ هل في القبيلة من لا يصدّق؟ بل هل في الصحراء كلها من يخامره شكّ؟ لقد قتلت أمها في اللحظة التي وهبتها فيه الحياة. وخرقت رأس أبيها برصاص البندقية في غفلة القيلولة. واغتصبت ابن جارتها في المراعي.

قاطعه أحد الصبيان:

ـ ولكن هذا ليس برهاناً على انتمائها الى الجن.

فعاد الأول يقول:

ـ هناك برهان آخر. سمعت العجائز تتهامس به. هل تدرون ما هو؟

هتفوا في صوت جماعي:

ـ ما هو؟

سكت الأول. صدم حجراً بنعله قبل أن يرفع رأسه ويقول:

ـ أنتم تعرفون أن أهلنا لا يجاهرون بالحقائق. يجاهرون بالدعابات وحدها، أما الحقائق فيهمسون بها لأنفسهم. يهمسون بها بينهم وبين أنفسهم. إذا أردتم أن تعرفوا الحق من الباطل في كلامهم راقبوا طريقتهم. فإن انحنى أحدهم وتكلم في أذن الآخر فإنه نطق بالحق..

قاطعه صبي آخر:

ـ دعنا من طرق الأهل في الكلام وخبرنا عن البرهان.

تنهّد الصبي الطويل ومرر يده على شعره الذي يقطع رأسه من الأمام الى الوراء كعرف الديك، وقال:

ـ حدث ذلك قبل ميلاد باتا بتسعة شهور. عندما كان زوج أمها مهاجراً في رحلة إلى كانو. نزل ضيف على الخباء آخر الليل، فأوقدت أمها النار لتعد الشاي. تحت ضوء النار عرفت في الزائر زوجها الذي لم يمض على خروجه من المضارب ثلاثة أيام. سألته في دهشة عن سبب عودته المفاجىء فادّعى أنه نسي رصاص البندقية، وقال ان عبور الصحراء بسلاح فارغ مجازفة هذه الأيام.

قضى معها الليل مقرراً أن يعود للالتحاق بالقافلة في الصباح، ولكنها اكتشفت اختفاءه في الفجر. أو ربما في الليل. ولم تستطع أن تعرف ميقات الاختفاء لانها أغفت، وعندما استيقظت لم تجده. أثارها أن ينصرف دون ان يودعها وأدهشها الأمر طويلا. كشفت الأمر لجارتها فطمأنتها الجارة قائلة ان غرابة الأطوار في طبيعة الرجال خاصة إذا كانوا ينوون السفر. والمرأة الحكيمة هي تلك التي تجد لهم المبرر. بعد أسابيع أحسّت الأم ان رجلها عاد لها في تلك الليلة ليمنحها الجنين. بدأ الدوار والغثيان وهاجمها جوع للطين الأبيض. كانت تجلس في المراعي، تنتظر المعشوق المهاجر، تتسلى بأغاني الشجن والحزن وتأكل الطين الأبيض في قعر الوادي. عاد الزوج بعد شهور، وما أن ضمّهما الفراش بعد الفراق الطويل حتى استفهمت عن تصرفه الغريب. ضحك ببراءة وهنأها باكتساب موهبة في الدعابة أثناء غيابه. وعندما اقتنع أنها جادة فيما تقول نفى قطعياً أن يكون قد عاد الى البيت في تلك المرة. كان الجنين قد تحرّك في بطنها، فزحفت خارج الخباء وبدأت تتقيأ بصوت عال. ولكن ما الفائدة؟ لقد تقيأت طعاماً، ولكن الجنين ظلّ متشبثاً ببطنها.

هيمن الصّمت. لم يسمعوا إلا أقدامهم وهي تدوس الأرض أو ترتطم بالحجارة. سأل صوت:

ـ هل تريد أن تقول ان زائر الليل كان جنيّاً؟

جاء الجواب على الفور:

- ومن يستطيع أن يتلبّس شخصية إنسان آخر غير الجن؟

تدخل صبي يتكلم لأول مرة:

- ماذا يحدث لو راقت لها حياة أهلها في الخفاء وقررت أن تبقى معهم الى الأبد؟

ردّ عليه عرف الديك:

- ولماذا تختفي إلى الأبد إذا كان العريس قد راق لها؟ ثم لا تنسَ أنها تنتسب إلى الإنس من ناحية الأم. ولذلك فهي تتمتع بميزة تجعلها قادرة أن تتنقّل بين العراء والخفاء.

احتجّ الصبي الأخير:

- لم نسمع أنها فعلت ذلك من قبل.

فعاد عرف الديك يقول:

- ومن ادراك انها لم تفعل؟ على كل حال فإن فرار العرائس ليلة الدخلة دعابة اخترعتها القبيلة لتسلية الصبيان أمثالنا.

احتجّ آخر:

- كيف تتجرأ وتشكك في عرف الأسلاف؟

قال عرف الديك:

- لا أحد يعلم عما إذا كان ذلك من وصايا الأسلاف حقاً، ولكن الجميع يعلم أن العروس تتلهّف للقاء العريس في ليلة الزفاف، وتتمنّى أن تهرع الى خبائه وترمي بنفسها بين يديه بدل الفرار الى الوادي.

ارتفع صوت آخر:

- إذا كان ما تقوله صحيحاً فما الذي يمنع الجنيّة باتا من تنفيذ هذا الحلم وهي

التي عرفتها القبيلة بغرابة الأطوار؟

سكت عرف الديك. قال بعد صمت:

- إذا اقتنعت بسخف الدعابة فلن يمنعها الحياء الكاذب من ان تقتحم بيت العريس.

هيمن الصمت مرة أخرى. قال أحد الصبيان:

- إذا كان ما تقولونه صحيحاً فعلينا أن نخبر القبيلة بهذه النوايا.

قال عرف الديك:

- لن يصدقنا أحد!

سكت الجميع. واصل الصبيان المسير. فوق رؤوسهم سطع القمر. قال عرف الديك كمن يخاطف نفسه:

- لن يصدّقنا أحد!

(٦)

في الصباح انتشر الخبر في النجع. عرف الجميع أن باتا لم تفرّ الى الوادي، ولكنها هرعت الى الجهة المعاكسة، لجأت الى خباء العريس. أُخبرت العجوز بالخبر. عفّرت رأسها الأشيب بالتراب. مشت بين المضارب حاسرة الرأس. ناحت بصوت فاجع:

- العار! العار! لم تبك. لم تفرّ من وجه العريس. ذهبت تعرض نفسها على العريس. كنت أعرف أنها ستفعل شيئاً كهذا. كنت أعرف يوم قتلت أمها التي وهبتها الحياة. يوم اطلقت النار على أبيها، يوم تعرّت في المرعى وعرّت ابن الجيران. اعرف أنها ستفعل شيئاً كهذا، وإلا كيف يمكن أن تكون باتا ابنة الجن؟ وإلا كيف ستقدم البرهان على انتمائها الى عشيرة أهل الخفاء الشياطين!

ولكن باتا عادت الى خبائها دون أن تخفي سعادتها بالعريس.

ظلّت تبتسم طوال الوقت، وترمق رفيقاتها بعينين يومض فيهما بريق الجن.

موسكو
٢٤/٤/١٩٩١م

المبتدأ في سفر الشّقاء

(١)

دخل الجمل الصحراء يختال مزهواً بقامته الهيفاء ورقبته المديدة فاستوقفته الصّحراء وقدّمت له عرضاً. قالت المعمّرة الحكيمة:

ـ عزمت أمري على الاعتزال بعد ما رأيته على يدي الخلق. هربت وتفضّأت وآثرت العري. تعاهدت مع غول السماء ليحرق كل ما يغري الإنسان ويشجعه على ملاحقتي. تصحرت وطاب لي الخلاص والخلوة. ملأتني السكينة بالوجد وناجيت الله في ملكوت السكون. ولكن النعيم لم يدم طويلاً. إذ فوجئت ذات يوم بابن آدم يقتحم علي خلوتي ويفسد فردوسي، يسلخ جسدي بالمحاريث ويمزّق وجهي. يدق أوتاداً في بدني ويشق قلبي بحثاً عن الكنوز. بل بلغ به الطمع والجشع حداً حفر فيه أخاديد مخيفة ليشرب من دمي من دون أن يشفق عليَ من النزيف. وأنا الآن أعرض عليك صفقة تربحك وتقيني شرّ هذا المخلوق. فخذ الإنسان واحمله على ظهرك بعيداً مقابل حصانة أهبها لك ضد الظمأ، وصبراً على الماء أخصّك به من دون الحيوانات كلها.

ضرب الجمل المكابر صدره بخفّة وخاطب الصحراء:

ـ أنا على استعداد لأن أحمل الكون كلّه على ظهري إذا ضمنت لي الصّحراء الحكيمة ألاّ أصاب مرّة أخرى بهذا الدّاء. ويبدو أن عجوزنا الجليلة عاقبتني بالعطش أوّل مرة في نيّة مبيّتة كي تستدرجني إلى العهد.

ضحكت الصحراء قبل أن تقول:

ـ رأيت كم أنت مكابر ومفاخر ولكنني لم أظن أنك حكيم (أو فلنقل لئيم) أيضاً.

ثم رفعت إلى قامته نظرة حزينة وأكملت:

ـ أنا لا أحب المخلوقات المكابرة التي تتشبّه بالإنسان، وإذا كنت سأبقي عليك في أرضي وأتركك ترتع فوق جسدي فلن أفعل إلاّ إذا قبلت العرض وخلصتني من العبء الأكبر، من وزر الإنسان.

ـ أعرف أنك طردت كل الحيوانات المكابرة. الزراف، الأسود، النمور، الفيلة..

قاطعته الصحراء:

ـ وتركت الوديعة. تركت الغزال والأرنب والفأر، ولكن يجب أن تعرف أنك لا تنتمي إلى هذه الفئة.

هزّ الجمل رقبته المديدة، وعاد يضرب صدره بخفّة ويسأل:

ـ هل جعلتك قامتي ورقبتي وهيئتي تضعينني في حساب المكابرين المتشبّهين بالإنسان؟

ـ ليس الهيئة وحدها. في مشيتك نفسها روح من استكبار. أنا أحسّ بجسدي، وأنت تمشي على صدري. فلا تنس.

ـ ولكن عقاب العطش أقسى عقاب. الحرمان من الماء أسوأ عذاب اخترعته الآلهة، ولا أعرف سرّ القساوة في هذا العقاب.

ـ ليس صعباً أن تعرف سرّ الظمأ إذا عرفت سرّ الحياة. بل إن سرّ الظمأ مستعار من سرّ الحياة. فالآلهة التي خلقت كل شيء من الماء تعرف أن الحرمان من هذا السائل هو حرمان بطيء من الحياة. وقد خصّتني الآلهة بهذا السّلاح مكافأة لي على عزلتي ومخالفة هواي.

طأطأ الجمل رأسه وخاطب الصّحراء:

ـ هنيئاً لك يا عجوزنا الحكيمة. فلا أحد غيرك استطاع أن يقدم حياته كلها قرباناً مقابل أن يختلي بالله!

ـ هل قبلت العرض؟

فكّر الجمل ثم قال:

ـ إذا كان ذلك سيعفيني من العطش فأنا على أهبة الاستعداد لحمل كل أثقالك.

ـ ليس لديّ ثقل أثقل من الإنسان.

ـ أنا طويل وعريض ومهيب ولكنّني مخلوق ضعيف ولا أطيق صبراً على الماء. سأحمل عنك الإنسان مقابل الحصانة ضد الظمأ.

ـ إذن فقد قام بيننا العهد!

(٢)

راق الجمل للإنسان ورأى أنه مكابر وجليل ومناسب للمركوب. حرق فخذته بالنّار ليطبعه بسيماء قبيلة بني آدم. ثم صمّم أن يتخذه مطيّة فبدأ يروّضه ويعدّه لقدره الجديد. أحاط صدغيه بقطعتين شرستين من حديد كأنهما شرك، شارعاً في صناعة شكيمة قاسية لم يسبق للجمل أن رأى مثيلاً لها على حيوان. طفق يجره بالشكيمة الحديدية القاسية ويعبر به الصحراء أياماً فيما بدأت فخذته المحروقة بالنّار تلتهب وتنزّ بالدّم والصّديد. وعندما تعب الإنسان من الهرولة والجرجرة والركض ذهب إلى سدرة وحيدة شقيّة واقتطع منها هراوة أقسى من الشكيمة.

بدأ فصل جديد من سفر الشّقاء.

كان يضربه بالهراوة الوحشية مع الشروق ولا يتوقف ولا يتعب حتى يحل المساء. استنجد الجمل بالصحّراء فأجابته بلغة السّكون المكابرة. استغاث بالآلهة وطلب النجدة من السماء فهربت السّحب وغابت الإشارة في السماء. أزبد وناح واستصرخ الملائكة فتلقّى علامة غامضة من القدر توصيه بالتسليم والتعلّق بالصّبر.

واصل الإنسان طقس القصاص. تحطمت الهراوة ولكنّه لم يتعب. ذهب الى السَدرة واستبدلها بأخرى. استمرّ يستبدل الهراوات حتى خرّ الجمل البائس ساجداً.

قفز فوق ظهره وانطلق يلاحق السّراب.

منذ ذلك اليوم انطبعت في الذاكرة الإشارة: كلّما أراد الرّاجل أن يمتطيه لوّح في وجهه بالهراوة فيخرّ له راكعاً.

(٢)

ثم شاء أن يعوّده على حمل المؤن وقرب الماء والأثقال. كان عاماً مجدباً تسقّط فيه صاحبه أخبار المطر. وما أن تناقل الرعاة ورجال الاستطلاع خبر فوز الحمادة الشمالية بمياه سحابة ضائعة حتى أناخه وبدأ يضع على ظهره الغثّ كل القيود التي تشدّ كل المخلوقات المصنوعة من طين إلى صدر أمهم الأرض: الفسطاط، والرّحى، والجوالق وأكياس المؤونة وقرب المياه والمفارش والأوتاد وأغطية سميكة كالبرادع وحجارة أخرى صقيلة وملساء ورثها عن أسلافه دون أن يعرف المهمّة التي استخدمت من أجلها ودون أن يتوقف عن التنقل بها أيضاً. وقد حاول أن يسدي له النصح ويحثه أن يلقي بالأصفاد بعيداً، إلى الأرض التي تحمل كل شيء، أو إلى الشيطان الذي اخترعها. ولكن النّطق أعجزه وهو الذي لم يتعلّم من اللّغة الناطقة سوى التوجّع والشكوى.

انتهى «الرفيق» من عمله فلوّح بالعصا الوحشية في وجهه. حاول أن ينهض ولكن هيهات. احمال الأرض واصفاد الشيطان كانت أثقل من جبل، وأقوى من الهراوة الوحشية، وأقسى، ربما، حتى من الظمأ نفسه. أنزل السلاح الوحشي على رقبته فلم يجد في نفسه إلا العجز. أنزلها على صدغه الأيمن فتأوّه ورفع شكوى أليمة، طويلة، موجّهة إلى السماء:

ـ آ ـ آ ـ آ ـ آ ـ ع ـ ع ـ ع ـ ع..

استولى الغضب على «الرفيق» فسدّد إليه ضربات متتالية أصابت الرأس والعينين والجبين والفكّين. استمر يرطن بالآهات ونداءات الشكوى. ولكن الإنسان

لم يرحم. بل ازداد وحشيّة وصعّد من الهجوم. يشدّه من الرّسن فتحفر شكيمة الحديد أخاديد في الصدغين. انبثق دم وهوت على الأرض لطخات كبيرة، ناصعة، من الزّبد الكثيف. ولكن لا الشكوى نفعت، ولا الدّماء شفعت. ارتفع جنون الإنسان درجة أخرى. ذهب إلى شجيرة بريّة بائسة أماتها العطش الطويل واستعار منها كوماً من الحطب اليابس. أحاط بدنه بأعواد الحطب دون أن يفهم في البداية ماذا ينوي أن يفعل. ثم..

ثم أوقد تحت لحمه ناراً.

مدّت النّار لساناً جشعاً، جائعاً، والتهمت الحطب اليابس. وامتدت تنتقل من عود إلى آخر حتى وصلت إلى البدن. أكلت الوبر فشمّ رائحة الشياط. ثم تسللت إلى أبعد. اجتازت البرزخ وأدركت اللحم الحي. فتح فكّيه على الاتساع، ورفع شكواه الى المجهول:

ـ أ ـ آ ـ آ ـ ه ـ ه...

رددت الجبال الزرقاء نداءه، وبلّغت الرّسالة إلى السماء. بعثت إليه قوّة خفيّة مكنته من أن يفز ويقف على ساقيه بالحمل الخرافي، الشيطاني.

(٤)

ورأى الإنسانُ الغزالَ يتقافز في الهواء كالطّيف، يعبر مراعي الحمادة مرحاً، طليقاً، فأراد أن يتحرّر أيضاً ويصبح مثله. نسي التميمة البرّية القديمة التي تقول أن كل مخلوق مسؤول عن اختياره، والقدر لن يكتب الحرية لمن اختار القيد واستسلم، منذ البدء، لأوزار الأرض واحمال عدوّ الكائنات إبليس. واغلب الظنّ أن إبليس هذا هو نفسه الذي قرر أن يسخر من المخلوق المملوك فسخّر الجنّ لتنقل له وحي المجازفة في الليل. نهض الإنسان في الصباح وشرع حالاً في تنفيذ الوحي الجنوني.

أوقد ناراً شرهة ودسّ في لهيبها وتداً مهيباً ثبّتت في نهايته إبرة أطول من عقلة السّبابة. وعندما التهبت واستعارت خصائص النّار أناخه وقيّد يديه الأماميتين وأحاط رقبته بجسمه وربط الرأس إلى الذيل. جاء بآلته الجنونيّة

وغرسها بوحشية في شفته العليا. سمع فحيح النار وهو يلتهم اللحم وشم رائحة الشياط. مضت ومضة خاطفة قبل أن يتلقى ضربة الألم في عصب الرأس. فتح فكّيه ورفع عقيرته بالشكوى:

ـ آ ـ آ ـ آ ـ آ ـ ه ـ ه ....

رددت الصحراء نداء الألم. تناقلته الجبال الزرقاء وبلّغته إلى السماء. نزلت الرحمة السماوية وحجبته عن الألم. خطفته بعيداً عن الإنسان فبقي بلا وعي زمناً. وعندما عاد الى الأرض وجد الإنسان قد انتهى من مهمته. استبدل الشكيمة الحديدية التي كانت تحيط صدغيه بلجام متوحش يخترق طرفه السفلي الشفة العليا.

كان الرأس ما يزال يسطع بوميض الألم.

(٥)

انتظر أن ينتهي الأمر عند هذا الحدّ، ولكن الشيطان أرسل لقرينه الإنسان جنيّاً آخر ونقل له فصلاً جديداً من سيرة العذاب. وجده يقفز في الفجر الصحراوي البتول ويشعل ناراً أخرى. انتظر حتى همدت. تناول سكيناً مخيفاً ودسّه في احشاء الجمر الشّره. أحسّ بالخطر فتملّص محاولاً أن يتخلّص من العقال. ولكن حبل المسد كان أقوى. تقدّم نحوه وشدّه من اللّجام بشراسة فأفلتت من صدره شكوى فاجعة. ولم يكن يدري أن طقوس الفجيعة لم تبدأ حقاً إلا في اللحظة التالية التي استّل فيها الإنسان سلاحه المخبّأ في جوف النّار وجزّ العضو المدسوس بين فخذتيه الخلفيتين. لم يجز العضو وحده ولكنّه نحر الخصيتين أيضاً. ولول الجمل وضاقت بألمه الصحراء الكبرى كلّها. عوى بالفجيعة كذئب يتوقع المجاعة(*):

ـ آ ـ آ ـ آ ـ آ ....

(*) تقول الاسطورة أن الذئب يعوي ضاحكاً عندما يجوع، لأنه على يقين أن الجوع لا بد أن يعقبه شبع. ويعكس الحال عندما يفوز بوليمة؛ فيملأ الصحراء عويلاً وصراخاً، خوفاً من العاقبة وتوقعاً للمجاعة.

ظلّ يتلوّى ويرغي ويرطن بلغته المجهولة. حدس الإنسان أنه ربما يلعن يوم الميلاد فعزّاه قائلاً:

- هذا ضروري كي تبرأ من هم الجري وراء النّوق. هذا ضروري كي تتفرغ للرقص والسّباق. بدون التضحية بهذا «الشيء» لن تقدر أن تتحمل وتحترم قواعد اللعبة!

(٦)

قواعد اللعبة لم تنته عند حزّ «الشيء».

في احدى الأسفار المدهشة وقع الانسان في قبضة العطش.

ترنّح وتضرّع الى السماء وقرأ التعاويذ وجاهر بالنّذور قبل أن يقهره الوهن ويتدحرج من فوق السّرج. زحف على يديه وقدميه وبطنه طويلاً. دسّ رأسه في بساط التربة الحمراء، الرّامضة، وقبّل أمّه القديمة التي نكرها دائماً وداسها برجليه ورفع أمامها أنفه استكباراً. ولكن الأم أشاحت عنه بوجهها ولم تعطه الماء. ولا يعرف الجمل متى وصل المبعوث الرّجيم ووسوس في صدر الإنسان بالاختراع الجديد. راقبه وهو يزحف نحوه كالحيّة ويتسلّق ساقيه الاماميتين. استعان بهما حتى وقف ثم اخرج من كمّه مديَة بشعة رشقها، برشاقة، في صدره. انهمر الدّم وطفق الانسان يرضع من النّبع الدموي. بدأ الجمل يغيب ويتراجع في النسيان. قطع مسافة في النسيان. اختلى بالصّحراء في برزخ الفناء. قال لها:

- ثمّة شيء واحد أقسى من الظّمأ: إنه الإنسان!

ابتسمت الصحراء بحزن كأنها توقعت نتيجة المسيرة، ولكنها لم تعلّق. أكمل الجمل وهو يقطع مسافة أخرى في صراط الفناء:

- خذي عنّي الإنسان وأعيدي لي ظمأي!

ولكن الجمل لم يعلم أن الأوان قد فات مرّتين. مرّة لأن القدر خطّ العهد في

اللّوح المحفوظ. والثانيَة لأن المخلوق لا ينبغي أن يضع وزناً لحساب الرّبح والخسارة إذا اجتاز البرزخ وسار في طريق الفناء.

طرابلس ـ مالطا
بين ١٤ و ١٩٩١/٣/٢٤

النّخلة تصلّي لأجل قاتلها

(١)

تذكر عندما جاء الممسوس بالكتلة العجيبة منذ سنوات.

أقبل مع العشيّة. يجلس داخل مطيّة نزقة تتدحرج على الأرض كعجاجة الجنّ. توقفت عند القدم، وسكتت عن الهدير والولولة. خرج من جوفها ممسوسان. عرفت أحدهما، ولكن الآخر كان مجهولا. هرعا إلى مؤخرة المطيّة واخرجا الكتلة العجيبة. صندوق بجسم أسود برزت منه الأحشاء! كأنّ اليد الممسوسة امتدت الى باطنه وأخرجت امعاءه لتلويها على بدنه البرّاني. امعاء دقيقة، مصارين غليظة، ملتوية، عروق ناتئة، أوردة رقيقة، و.. قلب كبير، خاو. وضعا الجسم المقلوب على البئر. مكثا حتى الليل لتثبيته على الفوهة. في الصباح بكّرا بالمجيء. دلدل الممسوس المجهول ساقا طويلا مصقولا ومجوفا في قاع البئر ووصله بالجسم البشع الجاثم فوق الفوهة. ثم. بعد وقت قصير. بدأت الكتلة تهدر وتولول. وفوجئت بالماء الحار، بدم الأرض، ينزف، ويتدفق في الفراغ، فتمتصه الشمس وتتلقّاه الرملة الظمأى، ويتبخّر في الهواء.

منذ ذلك التاريخ البعيد لم يتوقف الممسوس الجديد، الذي جلبه الممسوسان البشريان، عن الجلبة والهدير و.. إهدار الماء في الصحراء.

في الأيام الأولى ظنّت أن هذا العمل هو نزوة جديدة من النّزوات المدهشة الكثيرة التي اعتادتها من عشيرة الممسوسين. لعبة. دمية يتسلّون بها ردحا من الزمن ثم تتعرض للتحطيم والرّمي كما يفعلون مع كل الأشياء. ولكن الهدير استمر. والممسوس السيّد، الذي يدّعي ملكية الأرض، وملكيتها هي أيضا، حرص، على غير عادته، على الدمية القبيحة، وتولاّها بالرعاية. راقبته وهو

يتفقدها مع مطلع كل صباح. يتفحص الاحشاء الذميمة الملوية على جسمها الأسود. يأتي بزيت خاثر ويدهن الأطراف البشعة. يمسحها بقطعة قماش. بل انها رأته مرات، ويا للعجب، كيف يمزّق قطعا من لثامه المقدّس ليزيل عن جسدها طبقات الغبار وحبات الرمل. وهو عمل أثار دهشتها من مخلوق يعاف حتى أولاده، ولم تره يوما يمد يده لمداعبتهم أو يتنازل ليعطيهم حتى ابتسامة. ولا تعرف لماذا أثار فيها هذا الحنان إحساسا غامضاً بالخطر.

ولم يطل انتظار الخطر.

فبعد أن سيطرت على نفسها وعوّدتها على احتمال الدّمْدمة والهدير المستمر بدأت تحسّ بهروب الماء في الارض. بل انّها عاشت لحظة بلحظة كيف يتراجع ويتضاءل ويشحّ. وكلما علت زغاريد الكتلة الممسوسة فوق الفوهة، كلما ذعر السائل ويئس. كلَما امتصت من الجوف وهدرت في العراء، كلما فرّ الماء وتوغَل في سابع أرض.

بدأتْ تكتشف سرّ الكتلة الممسوسة. سرّ الدمية الحمقاء.

(٢)

سنّت خطَة، وتابعت المحنة على الجبهتين: البرانيّة والباطنيّة. راقبت الاستنزاف، واشرفت على الماء، وهو يجري. تابعته من موقعها السّماوي، برأسها المفلفل، المتهدّل كشعور الصبايا. كما تحسست السائل، دم الأرض، ماء الحياة، بعروقها الجوانية التي اخترقت الطبقات السطحيّة وعبرت إلى الباطن البعيد، منذ سنوات طويلة. وعرفت أن النزيف المهدور يستمد رصيده من الينبوع السفلي. كلما اتسعت رقعة العراء المروية بالدم الباطني كلما تضاءل الماء في المنبع وتراجع وقلّ. وكلما ازداد هدير الممسوسة المجنونة فوق الفوهة كلما تضاعف تدفَق السلسبيل وراح يتلاشى ويذوب في الصحراء الرملية الجدباء.

تضاعفت دهشتها من أفعال الممسوسين وأرادت أن تفهم معنى اللعبة الجديدة. رفضت أن تنصت للوسواس الذي تعوّدت أن تسمعه دائماً يهمس لها بأن كل ما يفعله هذا المخلوق باطل، لأنه هو نفسه باطل. صدّقت في الماضي أن أفعاله باطلة

ووافقت الوسواس أيضاً أن المخلوق نفسه باطل استنتاجاً من تجارب عاشتها في الواحة، ولكنها رفضت أن تصدّق، هذه المرة، أن الحماقة يمكن أن تبلغ بالمخلوق الممسوس حداً يجعله يصنع باطله بنفسه، فيحفر مثواه بيده.

في الشهور الأولى التي أعقبت استجلاب الكتلة، رأته يشقى في العراء. يشوّه وجه الأم بالمحراث، ويمزّق وجهها الجميل، الصّبور، الطيّب. بسكّة موحشة، شيطانية. نثر بذورا وغرس شجراً عقيماً على هيئة سياج. وظل يروي المساحات الهائلة بالدّم النقيّ، البكر، النفيس، شهوراً. ولكن البذر لم يطلع والشجر أيضا مات. استدعى حكيماً في الحقول والحرث وحياة النبات فسمعته يدلي بالتعاليم:

ـ هذه رقعة من فئة السّبخة. عليك بتجريب الناحية الأخرى، الرمليّة. لا تبخل على الأرض بالماء والزبل والحرث. الأرض تحبّ التشطيب والماء والزبل!

بدأ رحلة أخرى في مسيرة الشقاء والباطل. يستيقظ مع القبس الأول ويشرع في شق الأرض بالفأس وتبديل قنوات الدم ليوجّه مجرى النزيف الى الناحية الأخرى من الوادي. الناحية الرملية.

هنا كانت تلال التّبر الظمأى منذ مائة الف عام، تنتظر الكنز بجشع المعذبين بعطش مائة الف عام. وكلما زوّدها بلسان من نزيف الأرض النفيس اختفى في غمضة وطالبت بالمزيد والمزيد. احتاج الممسوس البائس أن يجبر كتلته الوحشية على العمل بلا توقف، واحتاج منه ذلك أن يضاعف العناية بها، ويهدهدها، ويمسّدها، ويدللها، ويمسح الغبار والعرق عن جبينها طوال الوقت. ولكن الصحراء لم ترتو، واليوم، الذي حلم فيه المخلوق أن يسلخ وجه الأمَ ويحفر فيه الأخاديد، ما زال بعيدا.

(٣)

زرع وغرس ولكنه لم يحصد ولم يجن ثماراً. طلع لُعاع متباعد هنا وهناك. لم تينع الشتّلات ولم تمت أيضاً. بقي كل شيء هكذا، شاحبا، بائسا، معلّقاً بين الحياة والموت لسبب مجهول. مضى موسم الحصاد دون أن يحصد. يئس وأهمل وترك.

ولكن تدفق الكنز الأرضي لم يتوقف. ونسى أن سرّ الحياة الذي أطلقه في الصحراء ليروي مروج التّبر الرملية العطشى كان قد منعه عنها، هي، من حيث لا يدري.

(٤)

هذه ليست المرّة الأولى التي ذاقت فيها طعم الظمأ.

في السنوات الأولى، عندما غرسها الجدّ الرحيم، وهي ما زالت فسيلا، هبّ القبلي. لفح أعرافها بالصهد وحرق جدائلها الطالعة بغبار كالسياط. في ذلك اليوم عرفت حيل الماء في باطن الأمّ. كانت عروقها قد قطعت مسافة في مسيرتها الأبديّة للإلتقاء به، ووصلت حدّ النّداوة. استعارت الحياة من النّدى واكتفت بالتوقف في البرزخ. وما أن هبّ القبلي المسموس حتى أحسّت بالسائل السرّي الحكيم يتململ ويتراجع في الرحم. تلقت الإشارة ولكنها كانت أشاء(*) فلم تفهم معنى الإيماء. وصل العدوّ الجنوبي الأزلي وشرع يصفعها. ولولت. طيّر جدائلها الخضراء في الهواء. استغاثت بصوت لم يفهمه أحد. شحبت. غزا الاصفرار جدائلها السبطة، المسترسلة، في يوم واحد، في حين استمر السائل السرّي في رحلته الباطنية، ساحبا من تحتها البساط. في تلك اللحظة بدأت المخاطبات مع الرّيح. استعطفته:

- تمهّل. آذيتني. نزعت شعري. تكاد تكسر ظهري. الرحمة!

تكلّم القبلي العجوز بلغة الحكماء الصحراويين القدماء:

- هيييه! ماذا تعرفين أيتها الصغيرة عن الرحمة؟ ماذا تعرفين عن الحياة وعن القبلي العجوز؟ ألم تسألي جدّاتك من العجائز؟

بكت. ولولوت. استمرّ:

- اعلمي يا طفلتي أن القبلي أيضاً لا يهاجر بدون سبب. اعلمي أن القبلي لا يكسر ساق نخلة في طريقه من باب التسلية.

- ولكنني لا أفهم. أنت تؤذيني حقا.

- سيمضي وقت طويل حتى تفهمي. ستجري في باطن الأرض مياه كثيرة

(*) الاشاء: صغار النّخل.

لتأخذي منها النصيب اللازم الذي سيجعلك تفهمين أشياء كثيرة في النهاية. ستعرفين أن الحياة مركّبة من الذّكر والأنثى. وإذا لم يلتقيا فلن تثمر النخلة ولن تستمر الحياة.

ـ لا أفهم.

ـ سيمضي وقت طويل قبل أن تفهمي أن القبلي العجوز هو رسول يحمل للنخلات البعيدة هبات الذكور، ذرّات اللقاح. ألا تريدين أن تفرحي بعراجين البلح عندما تكبرين وتحتملين الحمل؟

ـ وكيف لا أريد؟ أنا أنثى!

ـ عليك أن تحتملي هبوب القبلي إذن.

ـ ولكنني عطشانة. سأموت قبل أن أفرح بالعراجين. لقد أفزع قدومك حتى الماء في عروقي.

ـ لا شيء في الحياة بلا ثمن يا طفلتي. منْ أراد أن يتلقّى اللقاح ويجني في المواسم العراجين الثقيلة عليه أن يصبر كثيرا ويتحمل الصّهد وأذى الغبار. اعذريني. لقد تأخرت. إذا لم أسرع واجنح فسأتأخّر عن غابات النخيل في الغابات البعيدة. لا أنفي أنني حطمت في طريقي جذوعا كثيرة حتى أصل إلى المكان في الميعاد. لست أنا منْ خلق المسافات في الصحراء.

احتجّت بعقلها الطفولي. عقل الأشاء اليانع الذي دخل الحلبة المجهولة حديثا وكان عليه أن يقف سنوات طويلة في الواحة متفرجا، متأملا، متألما، حتى يفهم اللغز:

ـ ولكن ما جدوى أن تلقّح نخلة إذا كنت تصرع في طريقك أخرى.

هزّ القبلي العجوز رأسه على طريقة الحكماء ودمْدم بذلك الصوت الشجني المكتوم الذي لا يتقنه في الصحراء إلا العجائز والشعراء:

ـ هيييه. سيمضي وقت طويل يا طفلتي حتى تفهمي أن طبيعة الأشياء هي التي تقول ذلك. لا يلقّح القبلي نخلة إلا إذا صرع في طريقه أخرى. لا يولد مخلوق إلا إذا تنحّى له مخلوق آخر عن مكانه. سامحيني. عليَ أن أبلغ «آدرار» قبل حلول

المســاء . وعليَ أن أبلّغ الرســالة لغابات النخيل في غدامس بعـد ظهر الغـدَ . إحنِ رأسك قليلاً ودعيني أمرّ!

عض بأسنانه على تلابيبه. شمّر عن ساعديه. زفر بعمق و.. مرّ.

مرّ فوق رأسها، يجرّ الرّمل والغبار والصّهد.

وبرغم أنها كادت تموت عطشا في تلك التجربة، إلا أنها كانت، من بين كل الفسائل المجاورة، أوّل منْ حمل بالعراجين في موسم ذلك العام.

(٥)

طاردت الماء الهارب في الأعماق السفلى.

مضى الاخطبوط الممسوس يدندن ويطنطن فوق الفتحة المستديرة. يسحب الحياة من الباطن فتطلع روح الأرض وراءه. تجري في الفراغ، تغيب تحت ركام السَبخة والملح والرمل، تشربها مروج التّبر بجشع مائة الف عام، وتتبخّر في الهواء كالهباء. كالفناء.

يروق للممسوس الشقي أن يأتي إلى حقل الملح، يتسكع في السَبخة الرجراجة، يلوّث قدميه بلا معنى ويعود الى الكوخ لقضاء هجعة القيلولة. يروق له أحيانا أخرى أن يتسلّى بالاغتسال في الجابية. يغمر وجهه وأطرافه وينهر الأطفال عندما يقتربون منه محاولين تقليده.

ولكن الزرع لم ينبت.

تقهقر الماء وبدأت المحنة.

شاهدت آثار الشحوب على أحراش الأشاء الناشئة المجاورة للفوهة. رأت كيف اقترب الممسوس مرّة وتفحّص اعرافا دبّ في أطرافها الجفاف واليباب. وزحف الاصفرار سريعا إلى الرأس، ليأخذ طريقه من هناك الى القلب.

ماتت أولاً الفسائل التي بلغت من العمر حوْلاً وحولين. وتواصل الجفاف في الأحراش. ثم..

جاء دورها.

لم تتوقع أن تلحقها اللعنة بهذه السرعة، وقد وقفت تشاهد تحوّلات الزمان في الواحة أزيد من نصف قرن. وأكثر ما افزعها أنها لم تشعر يوماً أنها يمكن أن تزول. نعم. المدهش في الرحلة أنّها ظنّت نفسها خالدة، وبرغم أنها كثيراً ما أنصتت للسكون الجليل وتمتعت بالصحراء الأبدية إلا أنها ظلّت تنتظر، كل يوم، متى سيأتي اليوم الذي ستعيش فيه. لم تفطن للعبة، وسرحت في غيبوبة ألهتها عن الماء وأنستها الحياة الزائلة. نست أن الزوال آت، والفناء حق، والنخلة الحكيمة هي منْ تلذَذت بالماء وشربت منه قدر ما تستطيع. لم تصدّق أيضاً أن هذه الثروة، هذا الكنز المطمور في بطن الأمَ، يمكن أن يهرب أو يزول.

الآن، فقط، بدأت تفيق من الغيبوبة، وهي تحتضر وتتحسّر وتقاوم حرارة النزع الأخير.

(٦)

أقبل الشيخ الحكيم وحاوره عند الجذع. انصتت فبدأ الحكيم:

ـ أنت لن تفلح في الأرض لأن قلبك مرهون في مكان آخر بعيد. لا تحاول!

قال الممسوس بيأس التعساء:

ـ وهل أستطيع أن أخلق نفسي من جديد وأتنكّر للصحراء؟

ـ استنزفت القربة وأضعت الماء. ألا ترى كيف هبط مستوى الماء؟ انظر الى النخل. إنه يحتضر. سوف يموت.

ـ الأرض السّبخة لا تصلح للفلاحة.

ـ بل أنت منْ لا يصلح للفلاحة.

ـ أنْ يتطاول الصحراوي ويمد يده للحرث والزرع فهذا من علامات قيام الساعة!

ـ صدقت. ها نحن نشهدها تقوم في الواحة على يديك. قريباً لن نجد ماء للشرب. اخرج. آن لك أن تخرج.

ـ إلى أين؟

ـ ألم تقل أنك تركت قلبك في الصحراء. عُدْ إلى هناك ودع الفلاحة للفلاّح.

ـ ولكن أنت تعلم أني لم أترك البرّ طوعا. إنها جدباء. لعنة نزلت عليها.

ـ وأنت لعنة نزلت على الواحة. قتلت النَخل وسنموت بالعطش.

ـ هذه أرضي. ابتعتها من حلالي. من ثمن بعائري. ولم أكن يوماً ضيفاً على أحد.

ـ لعن الله المال مقابل الماء. ليس الفلاّح وحده منْ يركع ويلثم التراب عندما يجيء ذكر الماء، ولكن الصحراوي يفعل ذلك من باب أوْلى.

ـ لا حيلة لي في هروب الماء.

ـ جئت بآلتك الشيطانية فبلعت من الأرض آخر قطرة.

ـ لا حيلة..

ـ اللعنة..

(٧)

شهدت المبايعة أيضا.

السانية كانت مهملة، زحفت عليها الرملة المعاندة، قبل وصول البدوي. ورثها ولد شقي، مهذار، عن أب فاضل، ناضل بشجاعة ليزرعها ويسقيها ويبقيها على قيد الحياة. وما أن مات حتى أفلت الولد الولهان بالنساء. فأتيح لها أن تتفرَج مرات على غرامياته مع الفلاّحات الصغيرات، بل انه دعى الى جذعها مرة مطلّقة تباوية قضت معه ليلة صيفية كاملة. ولما كان من المستحيل الإبقاء على وله من هذا النوع في طي السرّ في واحة فقد اضطر الشقي أن يهاجر الى الشمال. وحتى عندما باع الأرض فإنه لم يكلف نفسه عناء الحضور شخصياً، بل أوكل قريباً له لإنجاز المبايعة.

ولا تستطيع أن تعرف منْ هو الشيطان الذي دسّ في رأس البدوي فكرة ابتياع تلك الكتلة الممسوسة السوداء التي جعلت منه هو نفسه، فيما بعد، كائناً

ممسوساً. وهي الصفقة الوحيدة التي فوجئت بها وتمّت من وراء ظهرها.

(٨)

استجمعت كل ما تبقى فيها من حياة، استدعت آخر قطرة نداوة من أبعد عرق في الأرض المتيبّسة، لتؤدّي عبادة الصبح. آخر صلاة. راقبت الفجر البكر حتى انشق الأفق عن أول شعاع شمسي. لم تعد الشمس الآن جلاّداً قاسياً. ففي لحظة الوداع، لحظة الفناء والانحلال، تستوي الأشياء، وتصبح الشمس نفسها قبْلَة. يصبح الخصم طرفاً وديعاً تتهيّأ للإلتقاء بها لتكون، مع القرص - العدو، جزءاً من كلّ واحد.

هبّت نسمة شمالية أخيرة. نسمة بحرية مثقلة بالرطوبة والمطر. امتصت منها النّداوة النفيسة كلها. ولكنها تبخّرت عند طلوع أول موجة من أشعة الشمس المكابرة.

شاهدت الممسوس البائس يعد جمله ويتأهّب للهجرة. تابعته وهو يتحرك ويدخل الحرم الرملي الرهيب. وكما ألفت أن تلقي بالرّطب في وجه مَنْ يرجمها بحجارة فإنها صلّت من أجله واقفة، مرفوعة الرأس، وطلبت له الغفران من الأرض والسماء.

(٩)

ظلّ القدّ المديد، الأملس، يقف طويلاً في الواحة. ولكن القبلي العجوز ما لبث أن أطاح به في إحدى مهماته العاجلة، فزحفت الرملة وسدّت فم البئر بتَلّة رملية عنيدة.

توسعت حدود الصحراء، وكسبت موقعاً جديداً في سفرها الخالد.

الدار البيضاء
١٩٩١/٢/١٣

القبليّ يَمْثُلُ للمساءلة
في الملكوت

(١)

بدا مهموماً منذ الصباح الباكر. وعندما يغتم فإن الصحراء كلها تغتم وتتجهم وتكتحل بالهم والسواد. وهو الإحساس الخالد الذي تعود أن يصحو به عقب كل إلهام بالمشيئة يتلقاه في الليل.

كست وجهه صرامة وجد وتهيأ للبلاغ المبين.

قطّب متفكرا في المسافة. ما أقسى المسافات في الصحراء، ولكن لا مفر للرسول من البلاغ.

السفر قدر الريح.

تأهب للمسير. شمر عن الساعد. عض على التلابيب. توكل على حضرة الحي الذي لا يموت. ولولت الصحراء بالعويل، وجر وراءه ذيولاً من غبار.

(٢)

نزل الوادي، وعبر أول واحة. أصاب، في طريقه، جذعاً ميتاً فهوى. كان لنخلة ميتة قتلها الظمأ بعد انتهاك الأرض واستنزاف الماء. ناحت غابة النخيل ولعنت العجلة بألف لسان. خاطب نفسه متحلياً بالتسامح: «فليغفر المولى. من سب الريح سب القدر، ومن سب القدر فقد كفر»، ومضى في الخلاء يتبعه الغبار. قالت نخلة لجارتها: «دائماً عجول. لم أره يوماً هادىء الطبع، صافي المزاج. آلمني،

سأنكسر. عجيزتي ستنكسر»، فسمع الجارة العجوز تعلق: «ابتليت الصحراء برسول احترف التخريب. وحتى إذا بنى فإنه لا يبني إلا للخراب. يمسح اليوم ما أقامه بالأمس. ويقيم اليوم ما يفسده غداً». لم يحزن للتحامل بقدر ما حزن لأنه لم يجد الوقت كي يحاورهن. فخاطب نفسه وهو يمضي بعيداً، بعيداً، في العراء الأبدي: «الخراب في البناء، والبناء في الأنقاض. أحفر اليوم بئراً طمرته بالأمس، وأطمس غداً ما حفرته اليوم. ما ذنب الريح إذا كانت الصحراء لا تستقيم بغير الخراب والبناء، الميلاد والفناء؟».

(٣)

في بحر الرمال العظيم رافقته كميات أكبر من التراب. سبقته الى واحة «ادرار»، فصرع اللسان الرملي المتوحش نخلة هيفاء يقدسها الأهالي ويستمدون أصلهم من صلبها. تجمهروا. ركعوا. بكوا. و.. لعنه البعض سراً. ولعنه آخرون حرفاً.

(٤)

في زلاف(*) وقفت نخلة قصيرة، وحيدة، تحاصرها تلال من التبر الرملي اللعوب تطوقها من جهات ثلاث. برزت من رأسها عراجين وليدة، مضمومة في قماط. احتضنتها بلهفة أم ثكلت في الذرية سبع سنوات متتالية. مضى زمن، كأنه قرون، وهي تنتظر الذكر، وتتوق للقاح. حسدت النخيل المدلل في الواحات. هناك لا تنتظر النخلة رحمة من القبلي، وتتلقى اللقاح من يد فلاح. لا تستجدي، ولكنها تتدلل وتتغنج فتأتيها بذار النقيض من يد العشاق.

ولكن لا عشاق في زلاف المهجورة.

وقد هجرها المعشوق الأبدي طوال سبع عجاف فناحت ويئست وهي ترى العراجين تتبرعم وتتشوق للغناء في شذى الذكر. للإلتقاء بالنقيض. اللقاء السري الذي يولد البلح ويعطي الرطب ويصنع الحياة. في كل حول من السبع العجاف

(*) زلاف: منطقة رملية تمتد بين وادي الشاطىء ووادي الآجال بجنوب ليبيا.

تربي الصيص، وتلقي بالحشف، وتجهض الحياة. في كل عام تنعي الميلاد، وتبكي الأفراح المجهضة، وتشكو للسماء قساوة الصحراء.

أخيراً استجاب الغيب وبعث برسوله القديم.

تجهم الأفق وشمت في الزوبعة رائحة افتقدتها طوال السبع العجاف. رقص القلب، وارتجف البدن، وتفتح العرجون السري انتظاراً لاحتضان النقيض الخفي. تمزق القماط وتبسم الحجاب. وصل العجاج. زغردت العروس وقبّلت القرين في ذرات الغبار. أسكرها الوجد فجذبت جذلى وهي تلوح في العجاج بخصلاتها الكثيفة، الخضراء.

(٥)

أمطري، أمطري،
بيتنا قدَ خوى
ما بقي من طعام لنا
غير حبِّ النّوى

ويرقص الصبيان عراةً في العراء. يرفعون الخطاب القديم الى السماء. وصية الأسلاف، تميمة النجوع والجوع، رجاء البطون ونداء الأرض الجدباء. يهرعون الى الحرم. يتحررون من الخيط ومن الثوب المخيط. يقابلون الإشارة السماوية بكوز عار من الطين. لأن السماء، حسب وصية الأجداد والآباء، تستجيب للنداء إذا تطهر المخاطب من دنس الدنيا وتوجه لها بالرجاء مجرداً، عارياً، بكراً، كما جاء.

أمطري، أمطري،
بيتنا قد خَوىَ
ما بقي من طعام لنا
غير حبِّ النّوىَ

يقدح الأفق بشرر الوعد المقدس. تقترب البشارة التي طال انتظارها طويلاً. تزحف السحابة الشمالية على الحمادة العطشى، فتتنفس الصحراء بالهواء المحمل بالنداوة والبحر والحياة.

ولكن القبلي يزحف من الجنوب أيضاً.

وصل في اللحظة التي تهيأت فيها السهول لتلقي ماء اللقاح. اعترض السحابة وساقها، بقساوة، في طريق مجهول.

انقشع السحاب.

تابعه الصبيان بيأس. ارتدوا اللباس وعادوا، من رحلة البكارة، الى قيد الخيط، وسجن المخيط. بعضهم بكى بصوت عال، واشتكى البعض الآخر القبلي الى السماء. المعاندون منهم شتموه بصوت مسموع فانتهرهم الحكماء. قالوا ان كل شيء في الصحراء محكوم بالمشيئة، ولا أحد وقف على نية الريح العجول. و...

خنقوا دموع الأسى والخيبة بأقنعتهم الرمادية الكئيبة.

الحمادة الجدباء أيضا أخفت فجيعتها وراء السكون الخالد.

(٦)

مضى يهش الغيوم الحبلى حتى بلغ حدود الحمادة شرقاً. تكاسل فوق فلاة رأى فيها مسافراً يسعى. ترنح عطشاً وبدأ يزحف على يديه وركبتيه. وقف مستعيناً بصخرة وتأمل السماوات. تلقى موجة جديدة من أنفاس الصهد فسقط. ثم بدأ ينزع لباسه يأساً. في تلك اللحظة رأى القبلي العجوز جمل المسافر يقبل على صاحبه. وقف فوق رأسه وحجب عنه قرص الموت. لعق وجهه ويديه وهمس له أمراً. أخرج المهاجر مدية لمع نصلها الشرس تحت شعاع قرص الموت. تقدم نحو نحر الحيوان الوديع متعثراً. وبدل أن يطعن الرقبة المكابرة ويشرب من الدم ألقى بالسلاح أرضاً وشرع يعانق الجمل ويقبل صدره وساقيه الأماميتين. استمر العناق الحار، عناق الوداع والنهاية، حتى دمعت عيون القبلي في قلب الغيم. لحظتها أوقف نوقه الحبلى وتراجع خطوة. قدح زناد الإشارة فقعقع الرعد. تفتحت الاثداء ودرت السماء ماءً. شرب المسافر من ينابيع الفردوس.

(٧)

نزل السهل، توقف في «واو» الواقعة بجوار الجبل المستحيل. شرع يدر

التراب في فم البئر المسمى بـ« حلمة الأرض » . قاومه رجال أبطال فقاومهم. كانوا يحفرون بالنهار ما يطمره بالليل. اشتد فيه الغضب فضاعف الجهد . نفخ فيهم الغبار بالنهار أيضاً فضاعفوا عدد الأبطال. ضاق بالمقاومة فاستمد الدعم من بحر الرمال العظيم. نقل في ساعة تلة رملية مكابرة وصبها كاملة في البئر العريق.

انكسرت مقاومة الأبطال.

(٨)

في السهل المكشوف، المغطى بسجادة قاسية من حجارة حرقتها شمس الأزل، تاهت قافلة التجار العائدة من « كانو » ، فاستدرجها السراب اللعوب في الاتجاه الشرقي بدل التوجه شمالاً إلى السلسلة الجبلية الزرقاء . أصر كبير التجار على مواصلة السفر في الظهيرة وأذعن الدليل. ولم يكن يدري أنه في إذعانه خطأ لا تغفره شرائع الصحراء حتى لو كان الدافع هو حماقة اقترفها كبير التجار نفسه.

انتصف النهار وتلاعب الإغواء في ألسنة السراب. استوت الجهات الأربع وهاجرت العلامات في المتاهة. ضلّت القافلة الصراط وبدأت شعائر القصاص. أسقط العطش الرجال واحداً وراء الآخر.

في تلك اللحظة فقط نزل الإلهام وعرف التاجر القديم، الذي قطع الصحراء منذ كان فتى يرافق الأب الى جنوب القارة، أن التجارة أيضاً باطل، لأنها لا تساوي قطرة ماء . عرف أن أكياس التبر، التي سخر لها حياته، هباء حقاً ولا فرق بينها وبين ذرات الرمل إذا قورنت بجرعة الماء .

بدأ يغيب فوعد بنذر سري.

وصل الريح، وجاء القبلي بالزوبعة.

ظل يصفر في الخلاء بحماس جنوني ويجد في حفر البئر القديم الواقع في حضيض المنحدر.

(٩)

شرب التاجر العجوز وعاد في أثره لينقذ باقي الرفاق من الظمأ. وعندما عاد لهم الوعي وصدقوا أنهم ما زالوا على قيد الحياة، وجدوا كبيرهم يمزق الأكياس بالسكين ويبدد هباء التبر إيفاءً بالنذر، فيتلقفه الجن الذين يمتطون الريح ليعيدوه الى التراب الذي أخذ منه. احتكموا الى السلاح وجردوا السيوف، لقتاله. وبرغم أنه استمات ببسالة إلا أنهم تمكنوا منه واسقطوه أخيرا.

قالوا ان الرجل جن، لأن أول ما يفعله العطش هو أن يذهب بالعقل.

خسر كبير التجار معركته مع الشركاء في القافلة حقاً، وكسب، لأول مرة في تاريخ تعامله مع الصحراء، معركته ضد نفسه.

(١٠)

احتكم الأبرياء الى الملكوت، واشتكوا ظلم الريح. فما كان من مولى الملكوت إلا نفي القبلي من الصحراء. نفاه، ثم أفناه ومحاه. تنفست القارة الصحراوية أخيراً، وتمتعت بفردوس السكينة. دبت الكائنات في العراء وبعثت من جديد. هرع العرافون الحكماء والفقهاء المؤمنون بنحر الذبائح والإيفاء بالنذور. أما القبلي فوقف بين يدي مولاه للمساءلة والحساب. على يمينه وقف ملك أوكلت له مهمة تدوين الحسنات، وعلى اليسار وقف الآخر، المكلف بتسجيل السيئات.

سأله مولاه:

- كثرت ضدك شكاوى العباد، وعاذ بي منك أوليائي. فما قولك؟

أجاب القبلي:

- ما أنا إلا رسول. عبد مأمور، مسخر من قدري.

- تلقيت شكوى من نخلة فاضلة. قالت انك تحترف التخريب، وحتى إذا بنيت فلا تبني إلا لتهدم. تمسح في الغد ما تقيمه اليوم، وتزيل اليوم ما شيدته بالأمس.

ـ ماذا أفعل إذا كانت الصحراء لا تستقيم إلا بالنقائض، فيندس عنصر الخراب في كل بناء، وتختبىء بذرة البناء في كل خراب؟ هذه من طبيعة الاشياء التي تدخل في صلاحيات مولاي وحده.

ـ كسرت بدن نخلة لا ذنب لها.

ـ وجدت الأهالي يعبدونها من دون مولاي. فاستكبرت وتطاولت وادعت الربوبية.

ـ ظننتها من الأولياء.

ـ في الولاية أيضاً يقوم برزخ لا يسمح مولاي بتجاوزه ولا القدر.

ـ أحسنت.

ـ ثم أني وهبت عطيتك لنخلة أخرى في زلاف لم تنل لقاحاً منذ سبعة أعوام.

ـ أحسنت.

أومأ للملكين بإشارة فدوّنا ملاحظات في صحيفتي الخير والشر.

عاد مولاه للمساءلة:

ـ بلغتني شكوى من مثال الصدق والبراءة. خطفت الغيم من عشيرة اتخذته غطاء، واستنزلته من السماء بتمائم الاستجداء. فكيف تبرر هذه القساوة؟

تكلم القبلي العجوز:

ـ لو تأخرت لحظة، يا مولاي، لضاع وليّ لك رفض، وهو يموت، أن ينحر جمله وينقذ حياته بدمه. لقد آثر الفناء على أن يقايضها بحياة صديقه الحيوان. أليس هذا هو الولي الحقيقي الذي أوصاني مولاي بأمثاله دائماً؟

ـ أحسنت.

ـ رأيت، يا مولاي، أن الأبرياء ربما تحمّلوا الجوع، ولكن من رفض أن يضحي بجمله وتركه قرباناً لمولاي، أولى بالخلاص.

ـ أحسنت.

أشار للملكي الخير والشر فدوّنا الرموز دون أن ينطق بكلام. ثم التفت الى الرسول وسأل:

ـ طمرت بئري القديم الذي جعلته وقفاً يشرب منه أوليائي في أسفارهم. فماذا تقول؟

ـ ولكنني لن أستطيع أن أحفر بئراً آخر أقدم لو لم أطمر «حلمة الأرض»، لأن رسالتي تمنعني من الإخلال بميزان الأشياء في الصحراء. إذا لم أطمر لن أحفر، وإذا لم أخرب لن أبني. إذا لم أمت لن أحيي. مهمتي ألا أزيد ولا أنتقص، ولا أعطي لهذا إذا لم آخذ من ذاك. وأرى أن إنقاذ عبد تاب ونذر لمولاي عشيقاً كان يعبده هو أمر يستحق أن يطمر بسببه أكثر من بئر صحراوي.

أومأ للملكين فدونا في صحيفتي الإتهام. تمهل قبل أن ينطق بالحكم:

ـ كتب على عبدي أن يعود الى الصحراء للمرة المليار بعد مليار المليار بعد المساءلة المليار بعد المليار بحساب الدورة الفلكية، ليواصل رسالته الأبدية.

ختمت المساءلة ورفع الملاكان الصحف.

الدار البيضاء
٢١ / ٢ / ١٩٩١م

تأملات الضبّ
في جحر البيات الشتوي

«يعيش هذا الحيوان في القفار ويشبه الوزغ في شكله، لكنه أضخم منه. طوله ذراع رجل وعرضه أربعة أصابع، لا يشرب أبداً، وإذا أرغم على الشرب بوضع الماء في فيه مات لحينه. وبيضه كبيض السلحفاة. ولا سم فيه. رأيت أعراباً يأخذون منه في الصحراء فأخذت منه بدوري وذبحته، غير أنه لا يسيل منه دم كثير، ولا يسلخ جلده إلا عند أكله بعد أن يشوى. لحمه لذيذ كلحم الضفدعة، وله نفس الطعم. وهو سريع كالوزغ. وإذا اختفى في غار وبقي ذيله خارجاً فلا تستطيع أية قوة إخراجه منه، فالصيادون يوسعون الغار بمعول صغير ويمسكونه. وإذا قرب من النار بعد ثلاثة أيام من ذبحه تحرك كما لو كان قد ذبح في تلك الساعة».

الحسن بن الوزان
الملقب بليون الأفريقي
«وصف افريقيا»

(١)

منذ كدّر السّلسبيل ودنّس الغدير وهو لم يتوقف عن التحسر. لا يتحسر على ملذات الصحراء ولكنه يتحسر على الحرمان من الماء. ويبدو أن السلطان الصحراوي، الذي لا تخفى عليه خافية، يعرف هذا السر فدبّر له أقسى قصاصه. وضع بينهما عداوة. وضع قوته في قطْرة ماء. ولو اكتفى بهذا العقاب لهان الأمر. ولكنه أجّج في صدره حنيناً للسائل المسحور، وأشعل في قلبه حريقاً من عطش أبدي. وباستثناء هذا القدر، هذا الحرمان، فإنه لا يتحسر على شيء آخر في الصحراء، ولا يظن أنه فقد شيئاً آخر بالتحول. كان سيداً على القبيلة حقاً، ولكن عليه الآن أن يعترف بأنه كان مخدوعاً بالنبل، مأخوذاً بالكبرياء. كان محاطاً بأساطير من المراسيم التي يراها الآن، في ظلمات الجحر الشتوي، أوهاماً زائفة. ويرى في عزلته أيضاً أن المراسيم والسلطان وطقوس السيادة ليست الميراث الوحيد المزيف، ولكن الأنثى أيضاً. بل ان هذه المخلوقة هي حجر الزاوية في بنيان الأوهام والأصفاد. ولهذا لم ير غرابة في أن تتقمص جلدها سعلاة الظلمات التي أغوته لاجتياز الماء الحرام. وقد بدأ، في عزلة بياته الشتوي الطويل، يميّز، بالعقل، ما ظل، طوال حياته السابقة على التحول، يراه بعين الشهوة والبدن المليان. ويبدو له الآن أن لا شيء يمدّ الهوى بالحياة والحيوية مثل الغذاء. وكلما تذكر العلاقة بين الغذاء والهوى ضحك بمرارة ولعن الماضي من أوله. وعرف أيضاً أن الصيام ليس تميمة لعلاج الهوى وحده، وانما هو الذي يرجع له الفضل في اكساب المناعة ضد الموت. ولا يعرف أولئك البلهاء الراكضين وراء الشّبع والامتلاك أن صيامه هو سرّ خلوده. إذ لاحظ بالتجربة أن الجوع يصفّي الدّم ويطرده من البدن. وعندما يختفي الدم في العروق والأوردة، أو عندما يتراجع الى الحدّ الأدنى،

ولا يتبقى منه سوى قطرات، يستطيع الرعاة أن يسنّوا سكاكينهم ما شاؤوا. يستطيعون أن ينحروا ويجرّوا المدى على الرّقبة، فإن الموت يهرب مع سائل الدّم، والحياة تستتر في مكان آخر غير الأوعية أو الأوردة أو العروق.

قبض عليه الرّعاة ثلاث مرات في الماضي، ولكنه استطاع أن ينجو في المرات الثلاث. التجربة الأولى حدثت في فصل الشتاء، في موسم البيات الشتوي. إذ فازت الحمادة في ذلك العام بأمطار وفيرة. فجرت الوديان بالسيول وغمرت جحره. أخرجه الماء من قبره، ولكنه ما لبث أن تجمّد من البرد وعجز عن الحركة. التقطه راعيان وجرّا على نحره السكين. سمعهما من برزخه الخالد يتحاوران. قال الأول ذو الصوت الخشن المبحوح:

ـ لم تخرج منه قطرة دم واحدة.

قال الثاني ذي النبّرة الصافية، الضاحكة:

ـ هذا حال الضبّ. إذا نزف الضّب بالدّم فتلك علامة شؤم. الشيوخ يقولون ان جفاف الدّم في البدن شرط الخلود. لن ينعم الضّب بالعيش دوماً إذا نزف الدماء الغزيرة.

عاد الأول، ذو الصوت المبحوح، يقول:

ـ يا له من شرط قاس. هذه تضحية تتطلب الصيام عن الطعام. والصيام يعني الموت. الضب مخلوق ميت.

ـ طبعاً هو ميت.

ـ ألم يحرم علينا أكل الميتة؟

ضحك الثاني ذو النّبرة الصافية، الضاحكة، قبل أن يعلّق: ـ نحن لا نأكل لحمه ولكنا نتبرّك به. هو جدنا الذي مسخه سلطان الضياء لأنه كدر الغدير ودنس الماء. نحن نأكل الجد كي يمنحنا بركته.

ـ سمعت الحكماء في القبيلة يقولون شيئاً كهذا. أكدوا أيضاً أن منافعه لا أول لها ولا آخر.

وضعوه في مخلاة ومضوا مسافة طويلة. ثم توقفوا وأوقدوا ناراً.

أحسّ بالدفء فظن أنه ربيع مبكر. تململ في برزخه الفاصل بين اليقظة والنوم، الحياة والفناء، وأنصت لأغنية شجنية حزينة رددّها ذو الصوت الصافي. كان الغناء هو الشعيرة الوحيدة التي افتقدها في منفاه الجديد في الصحراء، الغناء هو اللغة الوحيدة التي حُرم منها بعد أن حُشر في البدن الجديد. الغناء شيء آخر، يختلف نهائياً عن المراسم الأخرى.

سقطت من عينه دمعة وسرى في جسمه دفء النار. فتح عينيه وخرج من المخلاة. سرح طويلاً في الخلاء قبل أن يعثر على جُحر. وعندما دخل الكهف وعاد ليواصل البيات الشتوي الخالد كان آخر ما سمعه هو صدى بعيد للأغنية الصحراوية الشجية.

(٢)

توقّف الراعي عن الغناء فجأة. سأل رفيقه:

ـ هل يعطينا لحم الجدّ القوة حقّاً؟

أجاب الثاني بنغمة كسولة، لا مبالية:

ـ أجل. سيمنحنا الخلود.

ـ هل سنعيش مثله الى الأبد؟

أجاب الثاني:

ـ لا نطمع في أكثر من أن يشفع لنا. إنه شفيع. كل الحكماء يعرفون ذلك.

ـ كيف سيشفع لنا؟

أقفل الثاني الحوار وهو يتثاءب:

ـ جواب ذلك عند العرّافين وحدهم. دعنا ننام.

في الصّباح اكتشفا اختفاء الجدّ.

تبادلا نظرة خفية، ثم قال الراعي ذو الصوت المرح:

ـ تركته في المخلاة أملاً في أن ينزف ولو بضع قطرات. لا يليق أن نشويه وهو على قيد الحياة.

قال ذو الصوت المبحوح:

ـ ولكنك أهملت إحكام المخلاة. أنت تعرف أنه لن يموت خلال أيام حتى لو قطعته الى الف قطعة.

ـ كنت أراهن على خروج الروح من النزيف.

ـ لن يموت بسهولة حتى لو نزف. ألم نتفق على أنه دفع بدن الإنسان. ورضي بجلد ضب مقابل الخلود؟ هل يرضيك أن تحشر في بدن الضب مقابل الخلود؟

ـ أنا لا أريد الخلود. بل لا أتمنى الخلود أبدا.

ضحك بلهجته المرحة فاعترض ذو الصوت الخشن:

ـ لماذا أردت أن تأكل لحمه إذن؟ المخلوق لا يأكل لحم جدّه بدون سبب عظيم.

ـ ظننت أن انتفع ببركته. بركته تعطي القوة، والقوة هي الحياة وليس الخلود. سكت الآخر. تحرّكا نحو الأفق المشطور بشعاع الشمس البكر.

(٣)

سمع خطواتهما من مخبئه. ابتسم وهو يستسلم لغيبوبة القبر الجديد. أسبل جفنيه وتذكر محاورتهما. أهل الصحراء ما زالوا على بلاهتهم الأزلية. يركضون في الخلوات كما ركضوا منذ زمن غير مسمى. لا ينشدون سوى الامتلاء. فإذا امتلأوا تقيد العقل وجروا وراء الإناث السّعالي. والأنثى السعلاة هي التي تتولى الأمر وتستدرجهم الى الموت. والحال أنهم لا يفيقون من

الوهم، الغيبوبة، إلا على أعتاب الموت. الحياة تمر في الجوار دون أن ينتبهوا لها. ينزلون الأودية المزحومة بالرتم المزهر في الربيع وينسون ان يتمتعوا بالشذى، بأريج الفردوس. يمرون على الجداول التي تعتلي المروج فيغفلون عن قُلاع الكنوز التي تطلع لهم خصيصاً من تحت الأرض: يغفلون عن الترفاس، ثمرة الجنة، وهدية النعيم. يعبرون الخلاء العظيم فلا يتمتعون بالسكون ولا يخلون الى أنفسهم. يمضون مسافة الرحلة كلها مبلبلون، مشوشون، مهمومون، متوهمون، مؤرقون، أشقياء. وعندما يفيقون، ويصممون أن يتوقفوا عن مطاردة السراب والسعلاة، يكتشفون أن الرحلة انتهت وأوان الزوال قد حان.

ولو تمهلوا قليلاً، والتفتوا حولهم، وشاهدوا الجبال الزّرق، والوديان المزحومة بالرّتم الزاهر، وتذوقوا الترفاس، لذاقوا طعم السكينة وولوا عن مطاردة السراب والسعالي. لعرفوا أن الجري وراء الوهم والسعلاة هو صراط يقود الى هاوية العدم. فما أصعب ان يهدأ الانسان. ما أقسى أن يلتفت الانسان الى نفسه. ما أبعده عن نفسه.

(٤)

إلتأم جرح الرَقبة فعاش تجربة أخرى على أيدي ثلاثة صبيان.

كان ينتصب على حجر فوق الجُحر، يتعبّد، ويتأمل، ويتشمس. يتمتّع بالسكون وامتداد الصحراء ويخاطب الملكوت. ويعترف أنه يعرض نفسه للخطر دائماً عندما يمارس هذه الشعائر. وهو ما حدث ذلك اليوم. إذ وجد نفسه يقاوم ويتملّص ويحاول أن يفلت من قبضة الصبيان الأشقياء الذين هاجموه غدراً من الخلف في ذروة الاستغراق. ربطوا في عنقه حبلاً وقرروا أن يتسلوا به. تحاوروا أيضاً وهم يجرجرونه في العراء المفروش بسجاد من الحجارة السوداء. قال أصغرهم سنّاً:

- جدّي يقول ان الضّب وليَ ولحمه حرام.

علّق الأوسط:

- وأبي يؤكّد أنه أقدم ناسك في الصحراء، اعتزل، بعد الجزاء، في الجُحور

كما يعتزل الزّهاد في الكهوف أو الدراويش في الزوايا.

قال الأكبر سنّاً والأشرس أخلاقاً:

ـ أما أنا فأقول لكم أنه أكبر زنديق. كدّر الغدير ودنّس الوادي بجسده القذر. وكان جديراً بأن ينال الجزاء ويتحوّل الى ضبّ. انظرا اليه! إنه قبيح مثل ضفدعة، ومغرور كطاووس. ما زال يتوهم أنه يتولى زعامة القبيلة. يعيش بلا ماء ويصوم عن الكلأ سنوات كي يتخلّص من الدم كآخر رباط يصله بمعشر الإنس: إنه كريه ويكره النّاس. بينه وبينهم عداوة تفوق تلك التي بينه وبين الماء. إنه يختبىء في الظلمات ويحتمل العزلة لأنه يحضّر خطّة انتقامية مجهولة ضد كل أهل الصحراء. صدّقوني أنه يخطط للتآمر وإلا من يظن أن بإمكان مخلوق أن يقدّم حياته قرباناً بلا مقابل؟ من يعتزل ويعطي ظهره للحياة بلا سبب؟ احترسوا: إنه يتحيّن الوقت للانقضاض والانتقام.

ثم هجم عليه وركله بنعله ركلة وحشية. اشتعل في صدره غضب مجوسي قديم فنفخ جسمه وكشر عن اسنانه. أصيب الصبيان بالفزع والقوا بالحبل وهربوا.

تركوه في الوادي فعاد الى الجُحر. بدأ يلوك طرف الحبل ويفكّر في إتهام الولد الحقود. نعم. عليه أن يعترف بأنه اقترب من الحقيقة مهما كانت قساوة التهمة. كاد الملعون ينطق بسرّه الدهري. كاد يفكّ رموز المعادلة السحرية. كاد يقول ان مفتاح اللغز في الاعتزال. المعتزل خالد لأنه ميّت. وميّت لأنه صائم، وصائم لأنه ممتنع، ممتنع لأنه قوي، وقوي لأنه وحيد، ووحيد لأنه زاهد. زاهد لأنه فان. والفاني هو المخلوق الخالد. في هذه النقطة تُقفل الدائرة السحرية لتبدأ من البداية. وأهل الصحراء، البلهاء، الذين يجهلون المفتاح يدورون في فراغ المتاهة ويحلمون بالخلود بدون قرابين. ولا يعلمون أن الخلاص أقرب لهم من حبل الوريد. لا يعلمون أن الخلاص هو الزهد في الخلاص، كما أن الحياة هي في رفض الحياة. وهو مخلوق خالد لأنه يتلذّذ بالفناء ويجد متعة بالصيام والغياب في غيهب القبر. ومن أراد الحياة، من أراد الخلود، يا بلهاء، فليفعل مثلي!

(٥)

التجربة الثالثة حدثت مع تجار القوافل.

استغفلوه وهو يتسكع في سهول تنفست بالربيع بعد شتاء قاسٍ، طويل. ذبحوه على الفور وعلّقوه في السرج من ذيله كي ينزف وينزعوا منه الحياة مع قطرات الدم. أنصت لحوارهم. قال أحدهم:

ـ لا أعرف كيف تطيقون لحم هذا المنحوس. وجهه أقبح من عبد وذنَبه أبشع من ذنب تمساح، وفوق هذا كله أنجس من مجوسي. مسخه المولى لقاء غروره وتطاوله على الماء. يخيّل لي أن من أكل لحم الضبَ يستطيع أن يأكل لحم الشيطان الرجيم.

استجاب التجار بقهقهة طويلة. فقال آخر:

ـ اختلف الناس في أمره. الفقهاء يرجمونه بالنجاسة، ودراويش الزاوية القادرية يضعونه في درجة الولاية ويقولون انه مرابط!

فعاد الأول يتهكم:

ـ بلهاء الطريقة القادرية لا يبخلون بهذا اللقب الجليل حتى على الخنفسة البلقاء. إنهم يقدسونها الى حد العبادة ويدعون أنها تنتمي الى سلالة الأنبياء!

ضحّوا بالضحك مرة أخرى، فقال في نفسه أن التجار هم مثال المخلوق الممسوس الذي لم يعش يوماً واحداً حياة حقيقية. ضحّوا بالنسيم البحري الندي في سبيل الكسب، وطاردوا سراباً لعوباً حتى الادغال مقابل حفنة من تراب لمّاع يسمونه التبر، فوهبوا الحياة لسلطان الظلمات مقابل ذرات الهباء. أشعلوا النار وألقوه في الأتون. انتفخ مثل قربة وقفز خارج الجحيم. ولم يدرك الحمقى أن النار لا تأكل إلا من يأكل. والسكين لا يقتل إلا البدن المسكون بالدم. والموت يهجر البدن الميّت لأنه لا يجد ما يتغذى عليه، والعدم يفر من جسد تيبست فيه الأوردة والأوعية والعروق. والحياة تتعلّق بمخلوق يعتبر الآخرون أن لا حياة فيه. بهذه الخاتمة تنقفل الدائرة السرية.

(٦)

دخل الجُحر. أسبل جفنيه. توغل في عمق الباطن، وانتظر أن يلتئم أثر النحر في الرقبة. بدأت صلاة الرّجاء والصمت.

الدار البيضاء
١٩٩١/٢/٢٢

عودة الضّب
إلى منفاه السّفليّ

(١)

بالحُجر وحده استطاع أن ينزل هزيمة بالزمن. بالاستسلام لحياة الظلمات فقط تمكّن من تحقيق خلوده. بالصيام أمات التوتر الأحمق وسحب الانفعالات البلهاء. الصيام الأزلي أزال الاحساس بالأيام وأفقد الأشياء المزيفة متعتها الكذوب. أما الكآبة المقدسة فقد تولت أمر اللذة كما أجهز على الشهوات بالتخلي. بدأ يعبد التخلي ويصنع منه عقيدة تجعل منه رفيقاً للمهاجرين الصحراويين الذين لا هدف لهم إلا الارتحال تحرراً من وزر المكان، مؤثرين الأسفار خلاصاً من قيد الزمان.

ساوره نحو هذا الفريق تعاطف.

أنصت كثيراً وهو يسمعهم ينيخون جمالهم في الوادي المجاور للقبر، ويبدأون في محادثة المهاري أو يروضون ألحاناً اختلقوها تلحيناً لأشعار يعرف أنهم ألفوها بأنفسهم أيضاً. أشعار تتغنى بالنسيم البحري وسكون الليالي، وامتداد الآفاق، ومكائد السراب، وعبيق الرتم المزهر، وشذى الترفاس، والقبس البكر وهو يشرع في فصل الليل والنهار وتعرية جسد السماء الملتحم بجسد الصحراء لحظة يتنفّس الفجر. ما أجمل هذه الفئة من المسافرين، لأنهم انزلوا الهزيمة بالزمن مثله بعقد العزم على التخلي فأحس بهم، دائماً، أقرب المخلوقات اليه.

ولكن أحبهم جميعاً إليه مهاجر أبدي احترف النزول الى الوادي في موسم الربيع من كل عام. تقدّم منه في احدى المرّات، عندما اعتلى حجره ليتشمّس،

وقدّم له نفسه قائلاً:

ـ لا تخف أيها الحكيم. أنا لم أذق اللحم ولا أنوي القيام بهذا العمل المقرف. ليس لأنك حكيم وليس لأنك السلف الممسوخ، ولكن لأني أقرب الخلق اليك. أنت قريني ورفيق طريقي برغم اختلاف الاتجاه. أنت تسافر في السكينة والسكون وافعل أنا في المسافة. أنت تحيا في العمق وافعل أنا في الأفق. أنت تقوم برحلة في الباطن وأفعل أنا في المدى. أنت تفرّ من المكان في المكان وأفرّ أنا من المكان في الزمان.

ثم ضحك، وخرج الى ظهور المروج، حيث تجمعت جداول الماء في الشتاء، طلباً للترفاس المقدس. وعندما اطمأنّ اليه وتأكد من حماسه للمؤانسة أهدى له في زيارة أخرى قطعة سوداء من هذه الثمار الخرافيّة. كشف عن أنفه وشمشمها طويلاً. لاحظ كيف دارت مقلتاه في محجريهما وطغى عليهما البياض حتى ظن أن المهاجر الأبدي سيسقط مغشيّاً عليه من فرط الوجد. ثم وضعها الى جواره وقال دامع العينين:

ـ لا أجد ما أعبّر به عن محبتي إلا هذه القطعة المقطوعة من قلبي.

أسدل لثامه الشاحب على وجنتيه البارزتين ونزل الى الوادي.

ولم يعرف أن الصحراء تنوي أن تسرقه منه، كما لم يعرف أن تلك العطية الفردوسية كانت رمز الوداع.

(٢)

في الموسم التالي حدثته الطيور عن مصيره الفاجع.

تراجعت السحب القاتمة وتوقف الريح الشمالي القارس. تنفست الصحراء بالدفء وتململت الأعشاب في رحم الأرض. تفتق البرعم في شجر الرتّم وشقّ غُراد الترفاس لحمة الطين. آلت الحمادة الى الفرح والسكينة وغنّت بصوت الصمت في السكون.

وصل أول فريق من الطيور.

جاء اللقلق والغرنوق والعقعق والكندش الثرثار وطائر النحس الذهبي. تململ هو أيضاً وخرج من مثواه في البيات الشتوي. وقف فوق حجر الجُحر ورفع رأسه لخيوط الشمس مكبّراً للصلاة.

تلقّى الجسد شعاعات الصّبح وبدأ يتزوّد من الدفء للدهور القادمة. في البداية لم ينتبه لثرثرة ضيوفه من أهل الفضاء. إذ استنكر دائماً طريقة هذه الجماعة في الخطاب. يتكلمون في وقت واحد، ولا يصغي أحدهم للآخر، ويرطنون بمختلف اللغات واللهجات، فتتحول مكالماتهم الى هرجة أقرب الى اللغو الفارغ بدل التفاهم والاخبار. وما يزعجه هو الطريقة، وليس اللغة نفسها. ويتباهى أنه من المخلوقات القليلة في الحمادة التي لا تعجز عن فهم لغة أي مخلوق حتى لو كان بلا لغة. ويبدو أن هذه ميزة خصّ سلطان الضياء بها البكم الذين نزع منهم اللسان لسبب أو لآخر. وبعد نزول العقاب وحصره في هذا البدن العصيب، وجد نفسه يفهم كل اللغات ويفك رموز كل الأصوات.

وربما رجع سر متعته بالسكون الى قدرته على الاستماع فيه الى الغناء المجهول الذي خَفيَ عن بقية الكائنات.

توقفت الجماعة عن الثرثرة الجماعية وقال الكندش الثرثار يخاطب الغرنوق:

- هل سمعت الخبر؟

هز الغرنوق منقاره بالنفي. فعاد الثرثار:

- هل تذكر المهاجر الأبدي؟

هزّ الغرنوق منقاره بالايجاب، ثم قاطع الثرثار بمناجاة:

- كان يطعمنا بالحبوب التي يتلقاها من النجوع من باب الحسنات. ينثرها في الصحراء بمجرد أن يبتعد عن التجمعات، وينذرها للطير. ثم يواصل مشواراً لا ينتهي. فأي طير لم يأكل من خيراته؟ أي طير يستطيع أن ينسى أقدم صديق؟

هنا تدخّل العقعق:

ـ من حقنا أن نبكيه. صديقنا الثرثار يريد أن ينعيه.

هتف الغرنوق باستنكار:

ـ لا!

فأوضح الثرثار:

ـ خذَلَهُ جمله الهزيل ونفق في بحر الرمال العظيم. ووُجِد جثمان المهاجر تحت نخلة معزولة وهو عارٍ من اللباس.

ناحت الغرانيق وبكت عشيرة العقعق. سأل الغرنوق الجليل وهو يخفي دموعه:

ـ هل سترت عورته يا ثرثار كما يليق بالطير النبيل؟

أجاب الثرثار في خجل:

ـ حاولت يا حكيم ولكن القبلي اللعين عرّاه.

انتهره الغرنوق بصرامة:

ـ لا تلعن القبلي فهو أحكم منّا جميعاً. القبلي أيضاً رسول ويعرف ما يفعل.

لحظتها نزل الوقواق من السماء بالبشارة:

ـ جئت من الادغال. مررت على جثمان صديقنا القديم في بحر الرمال العظيم. نصفه مكشوف ونصفه مستور.

هتفت قبيلة الطيور بسؤال جماعي:

ـ كيف؟

قال الوقواق:

ـ وجدت القبلي يصنع قبراً جليلاً. قال لي أنه عرّاه من الثياب ليعرضه للشمس فكفى الجسد شر الفساد، وعندما حان الوقت عاد له بكفن آخر نسجه

من ضوء ومن حبّات الرمال.

تباكت العشائر واقترح اللقلق:

ـ علينا أن نقيم مأتماً.

رددوا خلفه:

ـ علينا أن نقيم مأتماً.

تعالى الصياح. تقاطعت الأصوات بالأناشيد الوثنية. أعلنت الصحراء كلها الحداد. أراد الضبّ أن يشارك في المأتم ولكن اللغة خانته. أراد أن يخبر قبيلة الطير أن المهاجر صديقه أيضاً، ولكنه أخفق. فأحسّ بالعجز والشقاء لأول مرة. شعر بحاجته الى هذا الصوت المسحور الذي فقده يوماً ولم يظن أبداً أنه سيجيء يوم يمكن أن يحتاج فيه اليه.

سقطت من عينيه دمعتان كبيرتان فنزل الجُحر وانسحب الى باطن الأرض.

الدار البيضاء
١٩٩١/٢/٢٣

..والضبّ إذا توسّد الحجر

«آسكفيغ إيغفين إيْسلي
وهيديكس ولا إيملي» (*)
مثل للطوارق

(*) إذا توسّدت الحجر، فلا توجد قوّة تخرجني من الجُحر (تماهق).

كثيراً ما فكّر، وهو جاثم في ظلامه السُفلي، في سرّ صلابة الرّأس، وتساءل، متعجباً، عن سبب القساوة. هل هو التحوّل؟ هل لعب وضع الرأس الجديد الشبيه بالفلطحة في جنس الضفادع دوراً في الصلابة؟ أم السبب في طول المكوث في المغارة؟ أم التحجر مستمد من الحجر والسكون؟. من أين جاء بالكساحة في الرأس؟ وكيف اكتسب الصلابة في الرقبة؟ وربما ظلت كل هذه التساؤلات بلا جواب لو لم يتعرض للتخريب.

فاجأه عدد من الصبيان الأشقياء وهو يرتع في الحشائش البرية في أحد المواسم. عبثوا به طويلاً. ربطوه بحبل من مسد وجرجروه على الحجارة الحزيز وعلقوه مشنوقاً في سدرة، ذنبه الى أعلى ورأسه مدلّى إلى أسفل. ضربوه وعذّبوه ثم هجعوا لقضاء القيلولة. غافلهم وانطلق في العراء. ولكنهم ادركوه قبل أن يبلغ جحراً آمناً فاختبأ تحت تجويف صخري وعر. أمسكوا بذيله وانهمكوا في شدّه وانتزاعه. ولكن هيهات. صاح فيهم بالتعويذة المجوسية الجسورة: «آسكفيغ ايغفين إيسلي، وهيديكس ولا إيملي»، ولكنهم لم يفهموا لغة البُكم. الأولاد الاشقياء لا يفهمون إلا لغة الأصوات وهرجة الرطانات. نفخ في بدنه، في أعضائه، في عروقه، وأوردته، وفي كل خلية من جسمه، حتى ملأ التجويف، والتحم بالصخر في كلّ واحد، وكوّن معه بدناً واحداً. أما الرأس فقد أصبح قطعة من الصوّان، في سقف التجويف الصخري. ولم يعد قادراً هو نفسه أن يميّز رأسه من قطعة الحجر.

حاول الاشقياء طويلاً. حاولوا بكل الحيل. شدّوه بالأيدي، جرّوه بالحبل

من الذّنب المكشوف. تعاونوا في الإمساك بالذّنب والرجلين الخلفيتين ثم يئسوا. وما أشرس الإنسان عندما ييأس. يظل الإنسان إنساناً حتى يشرف على اليأس. فإذا حلّ فيه هذا الغول استحال الى وحش آخر. تحوّل حالاً الى مخلوق آخر لا صلة له بحالة الإنسان. واليأس هو الذي دفعهم أن ينزعوا ذنبه في ذلك اليوم. استفزّهم أن يفشلوا في انتزاع ضبّ وضيع من حفرة حقيرة. تكلّم فيهم الكبرياء، الذي أودى به قديماً وحوله الى مخلوق خالد في ذلّه وبدنه الزاحف، فقرروا أن ينتقموا. والانسان أشرس حيوان إذا نوى أن ينتقم. تعاونوا على نزع الذّنب فتمزقت الألياف وتمددت الأنسجة ونزف قطرة دم. ولكن الرأس الكافر ظل لصيقاً بسطح الحجر العلوي. شدّوا من جديد فانفصل الذّنب عن الجسد، ولكن العناد تضاعف ورأس الضفادع أصبح جزءاً من الصخر. اشتعل الاشقياء بالغيظ ورأوا في صموده إهانة. قرروا أن يمحوا العار بفظاعة أخرى. أمسك اثنان منهم الرجلين الخلفيتين وشدّوهما بوحشية الحيوانات اليائسة. تمزقت الألياف مرة أخرى. تبددت الأنسجة، انفصلت العروق والأوعية وفزّ من اللحم الممزق سائل أصفر شحيح.

فعلق أخبثهم:

- سمعت جدّي يقول ان الضّب لا يموت حتى ينزف دماً غزيراً، فإذا لم ينزف لن يموت حتى لو قطعته الى ألف قطعة.

قال الثاني وهو أشرسهم:

- هذا ما نحن بصدده. سنمزّقه الى قطع بعدد أفراد القبيلة، وسنوزعه عليهم ليتخذوه تعاويذ وأدوية.

قال الثالث وهو أكثرهم احتفاظاً بالطباع الإنسانية:

- ليس كل اعضاء القبيلة يتخذون لحمه أدوية وتعاويذ. ثمة من يسيء استخدام لحمه. يقال ان أي عضو فيه هو أنجح وسيلة للسحر.

قال الأول الخبيث:

- كبار السّحرة لا يستعملون غيره، خاصة في شؤون الحب واستدراج النساء الى العشق.

تضاحكوا فقال الأشرس:

ـ سحرة «كانو» لا يستخدمون سواه. يقولون ان لا وسيلة في السحر تتفوّق على عظام الاجداد الأوائل.

تساءل ذو الطّبع الإنساني ببلاهة:

ـ هل نقطع بدن جدّنا حقّاً؟

فقال الأشرس متجاهلاً سؤاله:

ـ سنقطعه ونجففه ونبيعه للقوافل المتجهة الى الجنوب مقابل التّمر؟

فعاد ذو الطّبع الإنساني يتساءل:

ـ هل يليق أن نقايض لحم الجدّ مقابل حبّات التمر؟

تضاحك الآخران وهجما على النصف المتبقي، اللصيق بالحجر، من البدن. قطعوه أشلاء، ولكن الرأس الكاسح ظل متشبثاً بالسقف العلوي، الأملس، من الحجر الصّواني. فاضطروا أن يأخذوا الأعضاء الأخرى ويتركوا الرأس لصيقاً بالحجر.

في الليل سمع هرجة. أقبل حكيم القبيلة مع جمع من رجال ونساء وصبيان. كانوا ينتحبون ويولولون ويطلبون الغفران. والشيخ الحكيم يحرّضهم على الإنتحاب كلما هدأوا وحاولوا الاكتفاء بالحزن. حثّهم:

ـ ابكوا. ابكوا. علّكم تشترون بدموعكم الإثم الذي اقترفه ابناؤكم في حق أقدم جد في الصحراء.

فيرتفع النحيب من جديد.

ثم تقدّم الحكيم وأخرج الأعضاء من المخلاة. وضعها في الحفرة وأهال عليها التراب. أمر القبيلة أن تطفىء المشاعل وتتوقف عن البكاء المسموع.

بكوا بقلوبهم وانسحبوا بهدوء.

ظنّ الأشقياء أنهم ازالوه عندما خرّبوا الجسد، ولم يعرفوا أن من اتخذ من

القبر مقاماً لا يموت ولا يعبأ بانحلال الوعاء. حكيم القبيلة وحده يعرف السرَّ. وحكمته لا تتجلى في معرفة السرّ، وإنما في اخفائه للسر. ولم يكن أمامه، عندما وُلد من جديد في ظلمات مثواه السفلي، إلا أن يحيي فيه سلطة الكتمان أكثر من سلطته في اجبار أبناء القبيلة على النواح وطلب الغفران.

تكرّر التخريب كثيراً قبل أن يعرف بالتجربة، ويتلقى الوحي من مستودع الذاكرة الفلكية. هتفت به الذكرى: هل نسيت الكبرياء يا مكابر؟ هل سلب منك الزمان المزايا فغفلت عن العناد؟ كيف غاب عنك ما كان سبباً في منفاك؟ ألم تلاحظ، يا شقي، طريقتك المتكبّرة حتى وأنت تصلّي وتتعبّد؟ ألا ترى أن مشية الخيلاء هي خاصية موروثة من زمن غير مسمى؟ ألا تستطيع أن تربط بين الانتفاخ، وأنت تشتعل بالغضب وتتأهب للدفاع عن النفس، وهيئتك المنفوشة الأولى؟

تابع الهاتف الخفي بذهول حتى سمعه يختم الإلهام المقدّس:

ـ في البدء كان الرّسم. الخط. الإشارة. العلامة. الخلية، تستطيع أن تسميه ما شئت. فلا تظن أن التحوّل أو الحجر أو المحو أو أي زوال آخر يستطيع أن يلغي السيرة الأولى. وآن لك أن تعرف أن كساحة الرأس طبيعة من الطبائع المستمدة من هذه المادة. آن الأوان أن تتعلم كيف تعرف نفسك.

لم يعرف نفسه، ولكنه عرف أن الزمان حتى بوحدة قياسه الفلكية لا تكفي المخلوق كي يعرف نفسه.

الدار البيضاء
١٩٩١/٢/٢٤

تحوّلات الضّب
بوحدة القياس الفلكيّ

«إذا أردتُ أن أحيا عليّ إذن أن أنسى أن جسمي ينتمي إلى التاريخ، وأغرق في الوهم بأنني معاصر للأجسام الحاضرة الصغيرة السّن لا جسمي الماضي. والخلاصة أن عليّ دوريا أن أبعث من جديد وأكون أصغر سنّاً مما أنا عليه».

رولان بارت

(١)

في البدء كان سيّد الصحراء. يسير في السهول المجاورة للوادي مكابراً، متباهياً بفتنته وشبابه، فرآه سلطان الظلمات في إحدى الجولات. أكلت الغيرة قلبه وتحرّك في نفسه الحسد. قال في نفسه: كيف يجرؤ مخلوق وضيع مصنوع من ماء وطين على منافستي في البهاء؟ جلس فوق صخرة تطل على وادي الماء المقدّس وفكر في حيلة يوقع بها المخلوق الطيني المكابر. استدعى السّعلاة وأوكل لها المهمة. خرجت الجنيّة القديمة الى السهل في بدن حورية لم تر الصحراء نظيراً لحسنها. غنّت بصوت يليق بحوراء الفردوس، عزفت نشيداً على وتر الأشجان والأحزان. سكر سيّد الصحراء ووقع في الوجد. جذب في العراء، تحت ضوء القمر، طويلاً. نفّس عن صدره الصحراوي المشحون دائماً بالحنين الى واو الضائعة وحزن البحث الجليل. ثم خرجت الى الوادي فسار وراءها. انقاد بحُسْن الصورة وبهاء الروح الذي رآه في المعزوفة والغناء. كانت تتنقّل بعفّة وخفّة وتتوقف لتلتفت بين حين وآخر. تلتفت وتبتسم بسحر لا تخبره إلا حسان الفردوس. بسمات الاستدعاء والحياء والإغواء بلغت الوادي. في الأسفل جرى الماء المقدس جليَلاً، صامتاً، حاملاً سرّ الحياة والصحراء. ينعكس عليه ضوء البدر فيومض بالإشارة ويتحفّز للبوح. ولكنه يعود للانكفاء مهموماً، متكتّماً على سرّه. عبرت الحورية المجرى. حصلت أعجوبة. رآها بنفسه تمشي فوق الماء المقدّس، العكر، المخلوط بالطين والبعر، وتعبره الى الشاطىء الآخر دون أن تغرق أو تبتل حتى أطراف ثوبها الفضفاض. رفع رأسه نحو البدر متسائلاً فحذّره الكوكب بإيماءة

كئيبة. ولكن هل يفهم اشارة السماء من رهَن فؤاده في يد سعلاة تتنقّل في هيئة حسناء من الفردوس؟

(٢)

تذكّر التحريم. إكتئاب الكوكب ألهمه بالوصية المزبورة على جدران الجبل، الوصية الموروثة عن الأسلاف التي حرصت كل أمّ في الصحراء أن تلقّنها للوليد قبل أن يدبّ على قدمين ويقترف الإثم في حق النَهر. قالت العجوز في ضياء القمر: «اعلم يا ولدي أن الماء مقدّس، والوادي الذي تراه هو آخر نهر جارٍ على وجه الصحراء الكبرى كلها. ويل لمن تجرّأ واغتسل في مائه. مزبور في حجارة الأولين أن من يدنّس الماء المقدّس سيصبح مسخاً جزاء له. فهل تريد يا ولدي أن تتحول إلى حيّة أو خنفس أو ضبّ؟ إياك. إياك. ثم إياك». هذه لغة لم تقتصر على الإنس في الصحراء، ولكن عرفها أولاد كل المخلوقات البرية. الجن والحيوان والنبات. سلطان الضياء والسماوات حرم الصحراويين الأنهار لقاء آثامهم. فكان، في الزمان القديم، يجفف ينابيع الوادي كلما ارتكب الخلق إحدى الكبائر. وعندما تبقى هذا الوادي وضع عهدا بينه وبين المخلوقات البرية يتوقف بموجبه أهل الصحراء عن ارتكاب الحرام، ويترك لهم السلطان السماوي الماء يجري. ولكنه وضع شرطاً يحرم الاغتسال في النهر. فإذا دنسوه رفعه إليه وحرمهم منه. فكان عليهم أن يحفظوا الوصية جيداً ويتقيدوا بنص العهد.

تذكّر المكابر هذا العهد بإيحاء من القمر ولكن ذلك كان للحظة خاطفة. إذ غمزت الحوراء بعينها من الشاطىء الآخر فنسى الوعد وختم على عقله بالنسيان. قال لنفسه انه يستطيع أيضاً أن يتخطى المجرى بقفزة كما فعلت الحسناء، والدليل انها تقف امامه في الناحية الأخرى والماء ما زال يعدو في مجراه ولم يرتفع الى السماء. شمّر على ساعديه، رفع سرواله الى ركبته، وقفز الى الشاطىء الآخر بحيوية الفرسان عندما يقفزون على ظهور المهاري. خيّل له أنه طار طويلاً، وعندما هوى وقع في قلب الماء. أشاح القمر بوجهه وهرب من الصحراء. قهقه سلطان الظلمات في مملكة الخفاء وتلاشت الحسناء متحولة الى طائر اعتصم بالجبل. تزلزلت الصحراء بغضب سلطان الضياء. تلاشى النهر وتصاعدت أبخرة الماء في الغيب. رقصت الجنيات في جبل الحساونة وناحت الحوريات في الفردوس.

بدأ التحوّل.

وجد نفسه يزحف على يديه وركبتيه. استطال وجهه ثم استدار حتى استقرّ على هيئة جديدة كوجه الضفدعة. نبت في دبره ذنب مسنّن، خشن. تقلّصت الركبتان واليدان ونبتت لها في أطرافها مخالب شرسة. حاول أن ينهض ويقف على قدميه فلم يقدر. زحف فسمع الصوت المهيب.

ـ خنت العهد وخسفت بآخر ينبوع ماء. كتبت عليك أن تعيش خالداً في بدن ضبّ. وسأضع بينك وبين الماء عداوة، إن ذقته هلكت. وسوف تهرب من وجه المخلوقات وتعيش في الجحور معتزلاً، خجلاً.

لبس سلطان الظلمات ثيابه وذهب في جلد أفعى لزيارة الضبّ. وجده بائساً، حزيناً، في بدنه الجديد، يخرّ خاشعا يتوسّل الشمس أن تتدخل للوساطة. قال سيّد الظلام بفم الحيّة:

ـ نلت الجزاء أيها المكابر. تتباهى بالفتنة وتدوس على الخلق. سحقت بيضي بعقبك القبيح. وها أنت تزحف، حقيرا، على الأرض مثلي. أخيرا جاءني الزمان بالعدالة. ما أسعدني إذ أراك شقيّا، محروما من الماء.

ولكن الضبّ ظلّ واقفاً فوق حجر في فم الجحر، مواصلا صلاة غامضة نحو الشمس، في كبرياء.

قال سلطان الظلمات المندسّ في جلد الحيّة:

ـ ترفع أنفك ولا تتنازل عن المكابرة حتى وأنت ضبّ حقير؟

أصابه الاستفزاز، أجاب بغضب:

ـ تغيّر وعاء الطين ولكن هيهات أن يتغيّر الأصل. في هذا القفص تختفي انفاس جليلة لسلطان الضياء.

ـ تكذب! أنت عبد حقير في جلد ضبّ أسود.

ـ لن تنال من قبضة الضياء مهما سخّرت من السّعالي.

ـ ها. ها. ها. ألم أجبرك على الزحف على البطن؟

ـ ولكن عصفور النور أبعد لك من النجوم.

ـ لا ترفع رأسك أيّها القبيح. رفع الرأس لا يليق بالعبيد.

ـ أنا عبد مغضوب عليه وأنت ملعون كريه الى الأبد.

ـ اخرس يا ضبّ!

ـ امش يا رجيم!

نشب العراك بين الضبّ والحيّة. فجلدها بذنبه المسنّن، الخشن، حتى أدْمى جسدها البشع.

لأول مرة تهزم الحيّة في عراك.

(٣)

عاش في الظلمات آلاف الأعوام. يعتزل في الجُحر ستة شهور في الحول، ثم يخرج مع نهاية الربيع ليقف، في خشوع، على الحجر المنصوب في فم الجُحْر، ويبدأ في الشعائر الأبدية. يرفع رأسه نحو الشمس كل صباح ويستجدي الوساطة مع السماء، حتى ينتصف النهار. يتفقّد المكان، يستطلع الصحراء خوفاً من أن يراه الخلق في ثوبه الأسود، القبيح. فإذا اطمأن نزل الوادي القديم الذي جف بالغضبة السلطانية العليا، وظلّ عارياً، ظمآن، منذ عشرات الآلاف من السنين. تنبت في حواشيه أعشاب شحيحة في مواسم متباعدة تتساقط فيها الامطار من بعض الغيوم العابرة دوماً الى الشرق. يتغذى بالاعشاب الشاحبة، البائسة، ويعود الى مغارته الظلماء ليمكث في منفاه حولاً آخر بعد أن يغيّر جلده في كل بيات جديد.

(٤)

عرف سرّ الخلود بالصدفة.

كان يرتع في الوادي عندما قبض عليه عدد من الرعاة. ذبحوه بالسكين

فغشيته غيبوبة ظنّها إغفاءة أزليّة في ظلمة الجُحر. ظلّ راقداً في المخلاة وهو يستمع لحوار الرعاة في برزخ بين الضياء والظلمة، اليقظة والغيبوبة. سأل الأول:

ـ هل خرج منه دم غزير؟

أجاب الثاني:

ـ قليل جداً. قطرات معدودة.

عاد الأول:

ـ إذا لم ينزف كثيراً فلن يموت أبداً. لا بد أن نتركه طويلاً حتى يموت.

لا يدري كم مَكَث في برزخه الخفي. ولكنه لا ينسى لحظة الحساب التي ذاق فيها طعم النار.

ألقوا به في اللّهب فبدأ يتقلّب ويتململ ظنّاً منه أنه شعاع شمس. فتح عينيه ليخرج للصلاة ويتمتع بدفء الربيع فوجد نفسه في النار الموقدة. قفز من الموقد وركض في العراء. وظل يركض حتى قفز في أول جُحر. هجع في ظلماته وسمع الراعي الأول يقول:

ـ ألم أقل لك؟ كان علينا أن نتركه أياماً أخرى حتى يبرد دمه. ما أصعب أن يموت الضّب!

(٥)

أعياه الدّهر وتعب من الخلود. كَرِهَ الحياة وتمّنى الموت. خرج للعبادة للمرة المليون، وصمّم أن يبوح للشمس بسرّه اثناء الصلاة. قال لها:

ـ لا أطمع في الغفران ولكني تعبت وأريد الراحة الأبدية.

دهشت الشمس:

ـ أول مرة أسمع مخلوقاً أرضياً يزهد في الحياة. ها أنت ترتفع الى درجة وليّ.

فقال بيأس وتسليم:

ـ لا أرجو سوى غفران السلطان فمتى يأذن لي بالزوال؟

هشّت الشمس سحابة طائشة أمام وجهها وقالت بعجب:

ـ ألم تدري أن الخلود في جلد ضبّ هو قصاص؟

سقطت من عينيه دمعتان كبيرتان.

(٦)

جاءته الشمس بعد مائة الف عام أخرى بالبشارة. قالت:

ـ قبل سلطان الضياء صلاتك وأقرّ لك بالخلاص.

رقص الضبّ في العراء فكشفت الشمس عن السرّ:

ـ افتح فمك للسماء!

فتح فكيّه نحو السماء، وأغمض عينيه. سقطت قطرة مطر من الماء المقدس في فمه فغاب عن نفسه. حلّ المحو وخُتم عليه بالنسيان. وجد نفسه يسعى سعيداً في جلد ضبّ. وسوف ينقضي دهر فلكي آخر حتى يشكو لمولاه التّعب فينفيه بخلاص آخر.

(٧)

.. وتمرّ دورة جديدة في الزمان الفلكي فيرحمه أرحم الرّاحمين، يحرّره من حبس الزّمان ويأذن له بالخروج من الجسد. منذ ذلك التاريخ بدأ التبدّل الدّوري. يخرج للشمس في ربيع كل عام فيسلخ جلده القديم، ليولد في الجديد.

(٨)

ولكنه ظلّ يمارس طقساً تلقائياً كان له سبباً في هلاك يوماً ما، فيخرج الى

المرعى مكابراً، مرفوع الرأس، كأنه يريد أن يخرق الأرض أو يبلغ الجبل طولاً. فالجسد وحده محكوم بالنسيان. أما الجوهر، كتلة الضوء، فهيهات أن تنسى.

الدار البيضاء
١٩٩١/٢/١٩

الضبّ في الخروج الأول

بُعث من البيات الشتوي. تسلّل ببطء من الفراغ العدمي، من متاهة الغيب والمجهول، وعاد الى سجنه، الى نفسه. وجد نفسه محصوزاً في الجسد، مقموعاً في بدن يماثل القوقعة في صلابته وقساوته وعناده. وخارج هذا السجن، يقوم سجن آخر. سجن القبر. معتقل الحجر. مغارة الظلمات. الكهف السفلي. وخارج هذا السياج يلتف سجن ثالث، من خلاء يمتد، ويتمدد، ويتباعد، في المكان، الى كل الجهات، وبلا حدود، يتواصل، في الزمان، إلى الأبد. وسرّ البيات انه يعطيه مناعة ضد كل هذه السجون. مناعة ضد الزمان، فلا يشعر بتقضي الوقت، ولا تعاقب الليل والنهار، ولا تبدّلات الفصول، ولا تتابع الاعوام. مناعة أخرى تتكفل بها الأقبية مكرسة للمساواة بين النقيضين اللذين يرى فيهما كل حيّ مقياساً للحياة: الضوء والظلام. ومناعة ثالثة أتاحها له الصيام، وهي إماتة الرغبات الحيوية والقضاء على الاحساس في الأعضاء. فوجد نفسه يحقق حالاً يعتبره أهل الظاهر، سكان الصحراء، معجزة، ويطلقون عليه اسماً مقدساً: «الموت».

والآن عندما عاد له إحساسه بوجوده في سجنه، في بدنه، تململ ليبعث حياة في الأعضاء، وليتأكد أيضاً أنه لم يبعث خارج سجنه السفلي الثاني. كل السجّون في موقعها. السجون السفلية، ولكن ماذا بشأن السجن الأكبر، الأعظم، الممدد في الخارج. لا بد أن يخرج من السجن السفلي إذا أراد أن يتفقّد الحبس الممدود في المسافة العليا.

خرج الى الخارج، الى الضوء والصحراء، بعد غيبة دهرية لا تقاس بوحدة الزمان، لأنها تمّت خارج ذاكرة الكون، خارج شروط الوجود.

اعتلى حجر الجحر ويمّم شطر القبلة. برز قرن الشمس وكبّر للصلاة.

في لحظة السكينة قبضوا عليه. حبسوه في مخلاة وتحاوروا. قال صوت مبحوح:

- علينا أن نطعمه زهور الرّتم ونعلفه حتى يبرأ.

سأل آخر ذو صوت رخيم:

- وهل به مرض؟

فأوضح الأول، المبحوح:

- إذا ذبحناه بهذه الحال فلن نجد فيه قطرة دم واحدة.

- لماذا؟

- ألا ترى أثر الصيام؟ مضى عليه دهر وهو معتكف.

قال ثالث بنبرة رفيعة:

- ما يحيّرني كيف يتحمّل البقاء في قبره دهراً ويبقى على قيد الحياة.

قال الثاني ذو النبرة الرخيمة:

- لأنه خالد. يجمع حكماء القبيلة على ذلك.

فاجتهد الأول، البحيح:

- بعضهم يؤكّد أنه يتقلّب دهرا، ويتأرجح في البرزخ، بين الحياة والموت، دهرا آخر، ويغيب دهراً، ثم يبعث في نفس الجسم مرة أخرى. ولولا هذه التبدلات لما كان دمه دواء للمصابين بوهن الشيخوخة مثل زعيم القبيلة.

اعترض الرّخيم:

- ليست التبدّلات هي سرّ الدم، ولكن صلة القربى. الضّب هو الجدّ الأول الذي تعرّض للقصاص بسبب تطاوله على الماء. ولذلك يعطي دمه الحياة لكل من أعجزه الزمان مثل زعيمنا.

قال الرفيع:

ـ لا تهمَ الأسباب، المهمَ أن تنال المكافأة.

ابتهج الرَخيم:

ـ هل تظن أنه سيجزل لنا العطاء؟

فقال البحيح بحماس:

ـ حتماً سيجزل العطاء. هل تدرون لماذا؟

لم يتكلم أحد فواصل:

ـ لأنه يعرف أن العثور على الضَب هذه الأيام معجزة. معجزة مرتين: الأولى لأنه انقرض من الصحراء. والثانية لأنه لا يظهر في هذا الوقت المبكر من العام.

هيمن صمت. ولم يعد يُسمع إلا صوت ارتطام أقدامهم بحجارة الطريق.

قال الرخيم فجأة:

ـ أنا لا أوافق، وأرى أن سبب العطاء لن يكون في هذا كله. ثمة سبب أقوى يجبره على السَخاء.

سكت لحظة، ثم أكمل بسؤال:

ـ هل في الحياة شيء أنفس من الحياة؟

أجاب الآخران بصوت واحد تقريباً:

ـ لا. لم نسمع بشيء كهذا من قبل.

أوضح الرَخيم:

ـ لن يبخل الزعيم بشيء طالما سيعيره جدَنا الخالد نصيباً من دمه. حياة من حياته الخالدة.

قال البحيح:

ـ هذا سبب مقنع.

أيّده الرفيع:

ـ هذا سبب مقنع.

سكتوا مسافة. علّق البحيح فجأة:

ـ ولكن من أين سنأتي له بزهور الرّتم في هذا الوقت المبكّر من العام.

اقترح الرفيع:

ـ الزهور ليست شرطا. يستطيع أن يأكل العشب.

فاعترض البحيح:

ـ العشب لن يعيد إليه الدم في وقت قريب، خاصة وأن البرد لا يسمح له بأن يترعرع وينمو كما يجب.

سأل الرّخيم:

ـ هل يعني هذا أن علينا أن ننتظر فصل الربيع؟

فقال البحيح بحزن:

ـ لم يبق أمامنا إلا هذا الحل.

دحرجوا الحجارة في مسيرتهم، حتى قال ذو النبرة الرفيعة:

ـ لا أستطيع أن انتظر طويلاً. أريد المكافأة.

همهم البحيح:

ـ كلنا نريد المكافأة، ولكن الزعيم لن يعطي شيئاً لأنه لن ينال عمراً جديداً بضب بدون دم.

قال الرّخيم:

ـ هذه ورطة. ما الحل؟

أجاب البحيح:

ـ الصّبر. في الصحراء لن تشرب الماء بدون صبر. بدون مطاردة طويلة للسراب.

قال الرفيع:

ـ لماذا لا نجرّب إن كان فيه دم؟

سأل الآخران في فضول ثنائي:

ـ كيف؟

أوضح الرفيع:

ـ ننْحره ونرى إن كان سينزل منه دم.

احتجّ البحيح:

ـ ولكن الزعيم لن يقبل. يقال ان الدم يجب أن يشرب ساخناً.

حذّر الرَخيم:

ـ بهذا سنخسر المكافأة.

اشتكى الرفيع:

ـ هذه ورطة.

فاقترح البحيح:

ـ أرى أن نبيت ليلتنا هنا ونرجىء التفكير في الأمر غداً. لقد لاحظت أن كل عقدة تحيّرك في الليل لا بد أن تجد لها حلاً في الصباح..

سعل بحدّة، ثم أضاف:

ـ في الفجر.

توقفوا. بدأوا يعدون للمبيت.

انتظر في المخلاة حتى منتصف الليل. توقفوا عن الثرثرة فتأكد أنهم ناموا. خرج من الحبس مستعيناً بأسنانه. عاد الى القبر واعتصم بأول حجر.

الدار البيضاء
١٩٩١/٣/٤

الضبّ في الخروج الثاني

جاء ميعاد الخروج الثاني. ومع حلول هذا الميعاد يحتفل ويفرح. في الخروج الأول، من الجُحر، تهيمن الكآبة المبهمة. ولا يستطيع أن يضع تحديداً واضحاً لا للإبهام ولا حتى للكآبة نفسها. وكثيراً ما أرجع العلّة الى الاعتزال والغياب الطويل عن الدنيا الصحراوية العلوية. إذ سمع من الأسلاف في الزمان القديم حكمة تفيد بأن هذه الصفة: الكآبة، قرين ملازم لعشاق العزلة. ولكنه سمعهم أيضاً يروجون للحزن ويقولون انه خير من الفرح. الحزن تاج الحكماء في حين أن الفرح دمية البلهاء وأهل الغفلة. هكذا سمعهم يقولون. ويعترف الآن أنه أحسّ بدهشة لا تليق بسلالة الضّب. ربما لأنه كان في بداية الطريق. والأقرب ان الدم اليافع دفعه ألاّ يثق كثيرا بخرافات الشيوخ. ولكن تقلبات الزمان أجبرته أن يعترف، الآن، أنهم على حق. انهم دائما على حق. والزمان هو حليفهم الخالد، ولا يتوقف عن مناصرتهم امام خصومهم بتقديم البراهين والدعم لوصايا تبدو في أفواههم، في البداية، مجرد أساطير. وبرغم الحنين للشمس والشوق للفضاء الصحراوي إلا أن الخروج من الجحر يبقى بالنسبة له معاناة. ولكن.. لماذا يتجاهل سبب الكآبة الحقيقي؟ لماذا لا يعترف لنفسه مرة واحدة وإلى الأبد أن السبب هو الخوف من ملاقاة ذوي القربى، بالخطر، بالمواجهة؟ لماذا لا يواجه الحقيقة القبيحة ويعترف أن أذى ذوي القربى أقسى من المعتقل السفلي الأبدي؟ إنهم يقفون دوماً من فوهة القبر، يفركون الأيدي، أو يسنّنون السكاكين، وينتظرون لحظة خروجه. يتحينون فرصة القبض عليه ليمدّوا في أعمارهم بدمه، أو يمنحوا الحياة والخلود لزعمائهم وعرّافيهم على حساب حياته أو عذابه. وما يحيّره أكثر من أي شيء آخر في الصحراء هو جشع هؤلاء الأحفاد الأشقياء. إذا أكلوا لا يشبعون. وإذا

جامعوا ازدادوا شهوة ورغبة، وإذا اغتنوا طلبوا المزيد. وإذا عاشوا طويلاً تطاولوا على الإله وطلبوا الخلود. والطمع في الخلود هو الذي يدفعهم لأن يرفعوا أيديهم عليه ليجّروا المدية على رقبته برغم علمهم بصلة القربى. بل انهم لم يكونوا ليبحثوا عنه بهذه اللهفة لو لم يعرفوا انتماءهم لنسله وانحدارهم من ذريته. فيرون أن دم الجدّ وحده القادر على تمديد الحياة والفوز بالأبدية. ولو لم يكافحهم بالاعتزال تارة، والصيام تارة أخرى لقتل الدم في الشرايين، لقضوا عليه وقطعوه في الصحراء كما فعلوا مع مخلوقات كثيرة أخرى لعلّ الودان يأتي على رأسها.

إماتة الجسد إذن هي السلاح الذي أنقذه من الإبادة. من قساوة الأحفاد. من شهوة هذا المخلوق الذي لا يشبع ولا يقنع ولا يرضى. لا يشبع من مأكل، ولا يقنع بما نال ولا يرضى بغير مقاسمة السلطان الأعلى خلوده ومصيره. وما داموا يتطاولون حتى على سلطان الضياء فكيف يطمع هو في أن يتسامحوا معه وهو القابع في الظلمات، المحبوس في بدن ولا يملك قوة للدفاع عن النفس سوى الصيام والاعتصام؟

نعم. الصيام والاعتصام. الصيام يميت الجسد ويبيد الدّم، والاعتصام يبعده عن متناول اليد. يد القساوة والطمع والأذى. يذكر الآن كيف كان يقاوم الزمان ويتسلّى بإحصاء أسماء دنياه: الدّهليز. السرداب. السرب. القبو. البر. البئر. المثوى. الجحر. الباطن. الجوف. الوجه الآخر. النصف السّفلي. الكهف. المغارة. المستودع. المعتقل. الحبس. هاوية الظلمات.

واليوم، وهو يستعد للخروج من السجن الثاني، من الجلد، ما أجدره أن يتلهى بأسماء دنيا البدن: الكيس. الشرنقة. الرباط. القشرة. الغمد. القمقم. القماط. المحيط. السرّ. الصندوق. القوقعة. الطلسم. الدّرع. الصّدفة. القضبان. البرزخ. الحجاب. الزنزانة. الشرك. المنفى. الصرّة. العقال. الإناء. البؤرة. الوعاء. الغلاف..

وكلما تعدّد في الأسماء ضاق في الخناق. كلما توسّع في المدى انحسر في المدّ. كلما تمدّد في المسافة وتعدّد في الوجوه قلّ في الحجم وتهلهل وترهّل واصبح عرضة للوهن وأكثر قرباً من الفناء. وبرغم ما يسبّبه تحلل الغطاء من ألم إلا أن الولادة في القماط الجديد تبقى أعسر وأشدّ إيلاماً. وتبدأ رحلة المعاناة منذ نشوء القشرة الجديدة. منذ تكوّن الطبقة الجديدة، الشرشف اللصيق بالغشاء

القديم. يتوقف الزمان بحلقاته الثلاث: الماضي، الحاضر، المستقبل. ليأخذ التحوّل العسير دوره. ليبدأ دورته القاسية نحو البعث. نحو التبدّل. ينزل على الذاكرة غشاء آخر إسمه: النسيان. تحل الغيبوبة. يستسلم للحلم الأليم. ينسحب في الغيب. يتقلّب في البرزخ مراراً. يجتازه الى الجانب الآخر، ويعود ليعبر الى الجهة الأخرى من جديد. تستمر التقلبات طويلاً قبل أن يتحرر ويجد نفسه في ثوبه الجديد. فتيّاً، يافعاً، سعيداً، منفوشاً بالفرح والخلاص والبلادة. البلادة خاصية مصاحبة لكل ثوب جديد. ويمضي وقت طول حتى يتمرّن ويتجنّب الحماقة. وهو أمر لا يأتي إلا مع تراجع النسيان وعودة الذاكرة. وعندما تعود الذاكرة تتواصل الحلقات ويستمر السفر. ولكن أقسى ما تعود به الذاكرة، من الماضي البعيد، هو ذكريات الأذى التي سببها ذوو القربى. وهو ليس الأذى الواقع على الغلاف، في البدن، لأن ذلك ألم قابل للزوال، ولكن الأذى الذي لا ينسى، ولا يحتمل، هو الأذى الناجم عن الأذى. الألم الناتج عن الانكار والقساوة والكراهية. ولولا هذه الجمرة لما استطاع مخلوق أن يتحمّل الاغتراب والاعتزال والمنفى والظلمات خالداً فيها أبداً. فلا أحد يتغرّب بدون سبب. ولا أحد يغيب في غيهب الغيب دون حجّة أقسى من الغيب ومن الغيهب. وأسوأ ما في العودة الجديدة أنها تمزّق النسيان وتعيد الماضي وتضيفه الى سيرة الحاضر، فتتراكم الذكريات وتتضاعف الآلام كلما تقدّم الزّمان وخطا الى الامام في سعيه للمجهول المسمى المستقبل. ومنذ بداية المنفى وهو يحاول أن ينتحل لذوي القربى الاعذار ويجد لنهمهم وعنفهم ووحشيتهم المبرر. استعاد كل الإرث الذي استطاع أن يستحضره من حكم الاسلاف علّه يفوز بالخلاص. ولكن الجواب كان دائماً وحشياً أيضاً: «هكذا كان، وهكذا يكون، وهكذا سيكون منذ الأزل والى الأبد». ولم يستطع أن يصدّق أن هذه الصحراء الطيبة، المتسامحة، السخية، يمكن أن تزرع في ذوي القربى طبيعة مخالفة لطبيعتها. طبيعة الزيف والإنكار والجشع والشرّ. فمن أين أتى الانسان بهذه الروح؟ هل يقدر سلطان الظلمات الذي غرر به هو نفسه يوماً وجعله يرفع رأسه مكابراً، أن يتولى، بمفرده، هذا الأمر الجسيم؟ من أين له القوة في أن يقلب الموازين ويبدل قوانين الكون بإشارة واحدة، بضربة واحدة؟ أم أن السرّ مركّب الى درجة لا يستطيع معه الخلود نفسه أن يجد له تفسيراً؟

وها هو الآن يتهيأ للخروج، بعد الخلاص من الكابوس القديم، ليواجه كابوساً جديداً في العراء، من ذوي القربى. هل اكتمل الخلاص بالبعث حقاً؟ أم أن هذا

الحلم لا يتحقق إلا بالالتحاق بالنسيم، والتحول، بالفناء، الى هباء يشيّعه الهواء؟

يستطيع أن يتخيلهم الآن، وهم ينتظرون، كما انتظروا منذ الأزل، في المراعي، يسنّون سكاكينهم على الحجارة الخشنة، ويتأهبون لأن يشربوا من دمه طمعاً في الخلود.

الدار البيضاء
١٩٩١/٣/٦

الخروج الثاني من الجنّة

في البدء لم يكن سوى شذى. صدى. شذى لزهرة الرتم الهائمة في الخلاء. وصدى للرعود الموسمية التي تتصادف مع مقدم الغيوم العابرة دائماً. ولكن الصحراويين الحكماء يجمعون على وجود شرط ثالث للتكوين: الإشارة. الايماءة المجوسية المزبورة في الفضاء. التوقيع المبهم الموضوع في برزخ بين السماء والأرض. توقيع المجهول في مساحة مجهولة. وكي يستعيد الهباء نفسه من ضياعه في العدم لا بد أيضاً للزمان من أن يقول كلمته في المكان. الزمان يقولها بمطر الربيع، والمكان يجيزها في رقعة الحمادة الحمراء وحدها.

هذه شروط تحولت، بالتكرار والتواصل، الى قانون جعل من الترفاس(*) مادة مرهونة بتربة الحمادة في المكان، ومربوطة بمطرتين، أولاهما في الخريف، وثانيهما في الشتاء ليقول الزمان كلمته في الربيع.

لن تبصق الساحرة في رحم التربة الطينية الحمراء ما لم تكتمل طقوس الشريعة الخفية. تتوحد عناصر الثالوث (الشذى، الصدى، العلامة) ليولد شيء من العدم. ليتكون كائن من عدم. تتململ النطفة وتتمدد في خلية، والخلية ترتقي السلم الى الجزيئة. والجزيئة تتحول الى ذرة، والذرة تتشكل في كينونة، والكينونة تنجب كائناً إسمه: الحياة.

تبدأ دورة الفرح والمخاض. تزغرد الجنيات في الجبل الأزرق. ترقص الحوريات

(*) الترفاس: نوع من الكمأ.

في « واو » الغيب، يغني الرعاة مواويلهم الحزينة عن الحنين ويوجهون اسئلة الى القصيص عن ميقات ميلاد ثمرة الفردوس. ومع تسلّط الدفء وابتداء الشقاوة في أشعة الشمس يشرع كل عنصر في الثالوث يرطن بلغته السرية: لغة مستعارة من البروج، وأخرى أُخذت عن الافلاك، وثالثة إيمائية مجبولة على السكوت والرموز. تتبدّى الملحمة في رحم التربة الحمراء وتفضّ بكارة الأرض.

تتزحزح القشرة ويرتفع القلاع. ولكن الرأس الخجول يبقى محتجباً. تجتذب الرائحة الخرافيّة أول ما تجتذب الزاحفة على البطن، الملقبة بـ« أذكى المخلوقات »، المنفيّة من « أرض واو » مع عدوّها ابن آدم: الحيّة! تنتصب فوق رأس الإشارة، وقد يروق لها أن تنزل إليها في المثوى. الحيّة أول من يقضم من ثمرة الجنة. تميمة الساحرة المجوسية، ربيبة الرعود والبروق والسكون الصحراوي الجليل. تستعيد برائحتها الخرافية الوطن الأول، المفقود، ثم تترك لُعابها على الجزء المتبقّي من الثمرة ليبقى شركا تصطاد به عدوّها الخالد.

- إياكم والترفاس المسموم!

تحذّر العجائز الحكيمات فيما تظل المواصفات مجهولة، متروكة للإجتهاد والحظ. وليس مدهشا أن يقع في الشرك الفريق الشّره، الذي لا يعاف الفضلات، من شبان الحمادة. أقبل « اخنوخن بن ادم » مع الضحى. يهزّ عصاه في الهواء ويترنم بأغنية عن « واو الضائعة ». يحلم بالترفاس ويخاف الحيات. بقدر ما يحب الترفاس بقدر ما يخشى الحية. ولم يخطر بباله أن يوجد بين هذين الكائنين أي رباط، برغم أنه رآهما في أحلامه الكابوسية مقترنين مرات كثيرة. إذا اكتشف علامة تشير الى وجود الكنز، الثمرة السرية، وجد بالجوار آثار أفعى. وإذا أمسك بالترفاسة بين يديه وشاء أن يقربها من أنفه للتلذذ بالشّذى المجهول طلعت له الملعونة من مكمن ما وأفزعته. ورأى مرة وهو بين اليقظة والمنام أنه ابتلعهما معا. ولا يزال يحس بالغثيان والاشمئزاز كلما تذكّر هذه الرؤيا الشيطانية العجيبة. رواها لجمع من الرعاة وسألهم عن الرباط بين الحية والترفاس فسخروا منه إلا عجوزا واحداً، يتنقل دائما وحيدا ويعشق العزلة والصمت والغناء. أخذه على انفراد وقال له أن الحية مسؤولة عن إغواء السلف الأول وطرده من « واو »، وما الترفاسة إلا الثمرة المسمومة التي استدرجه بها. أدهشه أن يجتمع فيها السّم بالإعجاز. اعجاز التكوين والمذاق والشّذى. فقال له الراعي الحكيم: « كل الاشياء

الشهية، كل الأشياء الاستثنائية هي شرك للمهاجر».

ولكن تعلّقه بتميمة الساحرات الوثنية فاق كل تصور، وغلب كل تحذير. وهو يعرف أن ولعه بالحمادة، فردوس الصحراء، هو نتيجة لتعلقه بالترفاس، بالثمرة النادرة التي تتكلم لغة البروج وهمس الافلاك وإيماء السكون الصحراوي. فهل طلب الترفاس، بهذا الحماس، شهوة؟ العجائز يجزمن أن أي شيء يمر عبر البلعوم الى المعدة هو شهوة ذميمة. وتذهب المتطرفات الى إقناع الصبايا الموهوبات بأنه عار، فيندفعن لنظم قصائد الهجاء في حق اصحاب الشهية والشهوة. ويقال ان دراويش الطريقة القادرية الجوالين هم الذين يحرضون العجائز للترويج لما يسمّونه في معجمهم «ذمّ الهوى». وبرغم تكتّمه على علاقته بالترفاس إلا أن رائحة العشق لا بد أن تفوح في الصحراء، كما في أي بقعة أخرى، حتى لو كانت مع كائن وديع كثمرة الجنة. إذ بلغته في الآونة الأخيرة همسات تدور في القبيلة متحدثة عن سيرة قصيدة جديدة تتناوله بالهجاء نظمتها الشاعرة بتحريض من فتاة فشلت في أن تلفت انتباهه اليها. وأخبره بعض الرعاة اللؤماء أن الفتاة تشك في أن يكون الترفاس سبباً في هذا الزّهد. ولكن الشائعة لم تجبره على التنازل. فخرج الى وطن الترفاس حال ما بشّرت الصحراء بالربيع والدفء. ولم يكن عرّافا موهوبا حتى يقدر أن يستنطق اشارات الطبيعة لتخبره بالشّرك الذي نصبته له الحيّة.

عندما عثر على القُلاع تضاعفت دقات القلب وهرع الى المكان وهو يرتجف. تربّع على الأرض الحمراء وبدأ يحفر بقداسة لاستخراج الكنز. لاحظ الطرف المقضوم فظن أن فأرا أو طيرا قد أكل نصيبه كالعادة. تعوّد أن يسبقه الى الثمار أحد فريقين: سكان الأرض السفلى أو نقيضهم من سكان الفضاء. ولكنه نسي أن الحية أيضاً نزلت الى باطن الأرض وانضمت الى أهل الظلمات منذ ان طردت الشيطانة من واو وبدأت حياة المنفى.

ظل يضعها في أنفه ويشمّها طوال النهار. يبقيها بين فتحتي الأنف ويستنشق الأريج بشراهة مردداً في كل مرة:

ـ آه. اللّه! اللّه!

في المساء أوقد النار وقرر أن يحتفل بأول ثمرة تسقط من الجنّة في ذلك

العام. أزاح الجمر الشرس جانباً ودسّ القطعة المقضومة في الرمل المتخلّف عن النار. أنصت لها وهي تتشكّى وترطن بلغتها السرية حتى نضجت. من سوء حظه أيضاً أنه ليس عرّافاً يفهم لغة الأفلاك والبروج ولا ساحرة تخبر الغيب، ولو كان كذلك لفهم الهمس الخفي. ولو فهم الهمس الخفي لما قضم من الثمرة المقضومة. تذوقها فعاوده الوجد. ظلّ يتمايل ويرتّل:

ـ اللّه! اللّه!

وكلما اقتطع جزءاً وأكل كلما توغّل في النشوة وغاب بالخدر اللذيذ. عبر خلوات وفلوات، قطع الفراغ والسماوات، وظل يسبح في المجهول حتى أنه لم يشعر بألم عندما عبر البرزخ الى الجانب الآخر. كانت نشوة الثمرة السحرية تعيده بالتدريج الى واحته الأولى، وطنه الأصلي، الفردوس الضائع، ولكن شرك الحية ساعده في الخروج من الحمادة نفسها الى الأبد. فانطلت عليه الحيلة ووجد نفسه خارجاً للمرة الثانية.

الدار البيضاء
١٩٩١/٣/٣

مسلك السّراب

القيلولة.

امتدت. تمددت. تمادت في الامتداد. تواصلت في الأفق. لم يعد ثمة أفق، فتواصلت في الفراغ المفضأ الممسوح بزرقة خفيفة، فاجعة. فتدفق فوقها سائل بحري، شيطاني، فاكتسبت الدائرة لون السماء الكامل. وحّدها الامتداد، فناء التواصل المفاجىء، بالشطر الآخر، بالقرين الفحل، الذي يسحقها منذ الأزل بجسده الوثني الأزرق، لتعانقه، محمومة، وتلتحم بالنصف الأعلى. وجدت نفسها تكتسب لون المعشوق، وطيشه، وقساوته، التي لا تبلغ الذروة إلا مع حلول القيلولة. مد اللعين الآخر، القواد، المدعو سراباً، لسانه، لسان السخرية والقدر والألعاب، كاشفاً عن نوايا خفية للاستدراج والاستدعاء والاغواء. إغواء التائهين البلهاء إلى صراط الفناء. في ذلك اليوم أصبحت حتى الواحات التي اخترعها السراب وبناها في الأفق مصيدةً للعابرين. أتقن الثعلب القديم إنجازها زيادةً في الاحتياط وإمعاناً في إتقان الفخ. فخ اللامكان، المجهول، حيث لا ظل، ولا واحة، ولا نجاة.

تموج بالبريق وتغنج. صعد المروج المكشوفة ونزل الوديان الفارغة ليملأها بالزئبق ويسقيها بسيوله الفضية اللئيمة، فإذا تقاعس العطشان، أو تجاسر التائه على الإبطاء في الاقتفاء، توقف عند الرابية وانتظر. يغمز بعين ويغري بالتسكع جيئةً وذهاباً كمتمنعة راغبة، مجدداً دعوته، حاثاً ضحيته على الاستجابة للنداء الأنثوي.

تتمادى الشمس المكابرة، وتتجبر أيضا. تضاعف من جهودها في حرق الأحياء والأموات: يشتعل النبات الميت، يستغيث الشجر اليابس، وتصرخ الحجارة، وتتوسل الرحمة المستحيلة، فلا يزيد التوسل الكوكب المتوحش إلا استفزازا، فتتضاعف شحنة العذاب انتقاما وإرهابا.

القيلولة.

اعتصما بسدرة وحيدة في العدم. استند طويل القامة، نحيل البنية، الى جذعها شمالا، واستند القصير، الممتلىء، الى الساق جنوبا. مدا أرجلهما غير آبهين بمسامير الشوك، تعلقا بالأفق القاسي، المغمور بفيض المخادع الخالد، ثم طفقا يلهثان.

أخيرا تكلم البدين:

ـ قلت لك منذ البداية أن الخروج عن طريق «دنبابة» مجازفة. من خرج من الطريق المرسوم اقترف حماقة وسلم أمره للمخادع الشيطان. هذه شريعة الصحراء منذ الأزل.

قال النحيل بسذاجة طفولية:

ـ لا يؤدي الى «عوينة ونين» طريق «دنبابة» وحده. أردت أن نصل اليها من الأرض الشمالية المجهولة. ألا تحن للصحارى المجهولة؟

عاد البدين:

ـ من اختار الحياة في الصحراء عليه أن يلتزم بشريعتها. هذا ما يقوله الشيوخ أيضا.

فعاند النحيل بنفس الطفولة:

ـ لم أختر الحياة في الصحراء.

ـ لم تخترك هي أيضا.

ـ إذا لم اخترها ولم تخترني فكيف الخروج من الورطة؟ ماذا يقول الشيوخ في هذه الخصومة؟

أطلق هسيساً مكبوتاً. ضحكةً صبيانية خبيثةً، فقال البدين :

ـ لا حل للخصومات إلا بالتنازل من الطرفين. ألم نتعلم هذا من الخصومات القبلية؟ ولكن الخروج من الطريق الذي رسمته القوافل يبقى خيانةً للعهد القديم.

سرح النحيل مع حيل المخادع الخالد في الأفق. تكلم فحلت التعاسة محل الطفولة في نبرته :

ـ ولكن ماذا أفعل بالمجهول الذي ينادي؟ بالسر الذي لا يريد أن يتوقف عن استدعائي واستهوائي؟ ماذا تساوي الصحراء إذا لم نستجب لدعوتها ونذهب، مع السراب، للوقوف على المسافات الخفية؟ والمعشوقة لن تستجيب، الصحراء ترفض أن تتعرى بدون نذور. المجهول لا يزيح القناع بدون خروج من الطريق الذي رسمته القوافل.

عم السكون. أقبل الذباب. ذبابتان. مرسلتان من المجهول. من أين يأتي الذباب في الصحراء؟ ينزل ضيفاً على المسافر بمجرد أن يحط في المكان كأنه يتولد من الفناء.

قال البدين :

ـ أتفق معك في شيء واحد : الطريق المرسوم دائماً مستباح ولا خير فيه. يهرب من أمامه العشب ويختفي الترفاس. الترفاس يهرب من كل المساحات التي تعبرها القوافل. فهل الانسان مخيف الى هذا الحد؟

سكت مهلة ثم استدرك :

ـ أفهم عندما يتعلق الأمر بالغزلان والودان، ولكن أن يفر من وجهه حتى العشب والترفاس فهذا محير بعض الشيء. أم أنك ترى رأياً آخر؟

لم يجب النحيل فاكمل البدين :

ـ ومع ذلك فإن ثمن الخروج أقسى. وها نحن نبدأ في دفع الثمن.

عقب النحيل ساخراً :

ـ وهل توقفنا عن دفع الثمن منذ زحفنا ونطقنا وعرفنا؟ سنظل ندفع خرجنا أم

لم نخرج.

ـ ولكن الدفع بالتقسيط أهون. أيسر من أن تجبر على دفع كل شيء مرةً واحدةً.

تمتم النحيل:

ـ ربما كان ذلك أريح..

اعترض البدين:

ـ العطش قاهر. دفع الثمن بالعطش وحشي، حيواني، مثل الانتحار.

قال النحيل وهو ينهض واقفاً:

ـ تبقى البركة في الحركة. الأرض المجهولة لا تحب السكون.

اعترض البدين ببرود:

ـ ها أنت تخطئ مرة أخرى. وصية الشيوخ للتائه أن يلزم السكون. نجاته في البقاء بالمكان.

ـ هل تصلح وصايا الشيوخ لكل زمان ومكان؟

البدين تجاهل السؤال اللئيم وقدم إيضاحه الخاص:

ـ الحركة للتائه تسكع ميؤوس. يصرف الجهد ويستنزف الماء المخزون. هذا لا يجهله حتى الأطفال.

قال النحيل وهو يتهيأ لمواصلة السفر:

ـ هذا يصلح لمن نفد منه الماء وهو يسير في الطريق المرسوم، ولكنه حكم بالموت بالنسبة لمن جازف بالخروج. علينا أن نتولى أمرنا بأنفسنا لأن السابلة لا يعبرون الصحراء المجهولة إلا إذا كانوا ضالين مثلنا. ونحن لن نتحمل الأمر إذا لم نتحرك. هيا بنا!

اعترض البدين بتوسل:

ـ انتظر. هناك سر آخر لا بد من بحثه أولاً. هل نسيت أننا في قبضة المخادع الأبدي؟ سيلعب بنا. هذه فرصته. يروق له أن يستغل هذه المآزق أبشع استغلال. إنه غدار!

تهكم النحيل:

ـ وهل سيكون أغدر من أي شيء آخر؟ إذا لم يقم هو بتولي «هذا» الأمر فسينوجد من يستعير دوره لتنفيذ المشيئة.

ـ أنت تملك الجواب لكل سؤال. اعترف الآن أن هذا ما كان يتعبني فيك منذ الطفولة. هذا لا يليق.

ـ ألا ترى أن من المتأخر الآن أن أغير من نفسي؟

ـ لم لا؟ الشيوخ يجزمون أن تغيير الطبع هو الأمر الوحيد الذي لا يفوت أوانه.

ـ ومع ذلك يبقى أصعب من المرور تحت رقبة الجمل في غفلة منه!

تفقد النحيل الأفق. وجده يعوم في سيول المخادع. تجمد الهواء. اقترب كوكب النار أشباراً أخرى من الجسد الصحراوي العاري. طنطن الصمت بمواله الحزين. سأل بروح الطفولة:

ـ هل نذهب؟

أجاب البدين بروح طفولية أيضاً:

ـ في مثل هذه الأحوال كنا نحتكم الى القرعة في الطفولة.

وافقه النحيل وهو يجلس على رؤوس أصابعه:

ـ نعم. القرعة. التفت الى الوراء.

ولّى البدين وجهه صوب الجذع. تناول النحيل عوداً يابساً من السدر. كسره الى نصفين غير متساويين. بسطهما في كفه وصاح برفيقه أن يلتفت ويختار. تأملهما البدين لحظةً، تفحص زميله بنظرة شك قبل أن يضع يده على

العود الأطول. تبادلا نظرةً صامتةً، ثم أوضح النحيل بحزن:

ـ الآلهة وقفت في صفك. كسبت الجولة الأولى. أمامنا ثلاث جولات.

جاء دور النحيل كي يشيح بوجهه. وعندما أذن له الرفيق اختار نفس العود. ابتسم البدين وأعلن:

ـ واحدة بواحدة. الآلهة لا تتخلى عنك أيضاً.

استمرت القرعة.

انتهت بالتعادل.

راقبا حركة المخادع في الأفق. يتموج ويتغنج. يقترب ويهرب. يتلوى ويطلع لسانه. اقترح النحيل وهو ما يزال يقف فوق رأس البدين:

ـ لم يبق أمامنا إلا المصارعة.

هتف البدين باستنكار:

ـ لا!

قال النحيل ببرود:

ـ كنا نفعل ذلك في الطفولة أيضا عندما نتعادل في القرعة.

اعترض البدين:

ـ انتظر. كنا نفعل ذلك حقاً ولكن ليس في مثل هذا الموقف. هل تقدر كم علينا أن نستنزف من ماء؟

ـ لا أرى طريقاً آخر.

ـ لا!

سكت النحيل. أحكم لثامه حول وجهه. قال:

ـ سأذهب.

لم يجب البدين. أخفى عينيه وراء اللثام وارتفع صدره بتنهيدة عميقة. ردد النحيل:

- لم يبق لي إلا أن أذهب وحدي.

طنت ذبابة. نفس الذبابة التي منّ بها الفناء.

تحرك النحيل. مشى متباطئاً، يدحرج الحجارة بنعله القديم، مطأطئاً. توقف فجأةً. التفت وراءه. ظل الرفيق يسند رأسه الى ساق الشجرة ساكناً، يسدل قناعه على عينيه. تردد لحظات. ثم التفت ومشى وراء السراب بخطوات واسعة. ولا يدري كم مضى من الزمن، ولا أي مسافة قطع عندما سمع النداء:

- هيـ - يـ - يه. إرجع. قبلت المبارزة. هل ظننت أننا نستطيع أن نفترق بسهولة؟

تقابلا في منتصف الطريق. قال النحيل:

- نعم. نحن لم نفترق منذ الطفولة.

فاحتج البدين:

- ولكن لا تظن أني تنازلت عن البقاء. ما زلت أظن أن النجاة في السكون.

ابتسم النحيل ولم يعقب.

عادا الى السدرة معاً. فكر البدين بصوت مسموع:

.. ربما كان من الأفضل أن نرجىء المصارعة حتى العشية.

اعترض النحيل:

- وهل للظمآن عشية؟ هل يطيق العطشان انتظاراً؟

شمرا على ساعديهما. تشابكا. التحما. بدأ العراك. استمر طويلاً. نزف منهما عرق غزير. أغلى عرق نزف منهما طوال حياتهما المشتركة. قطرة منه أنفس من قطرة الدم. ولكن الصراع، المجازفة الثانية بعد مجازفة الخروج من

طريق القوافل، لم تسفر إلا عن تعادل. لم يستطع أي منهما أن يلقي الآخر أرضاً.

انطرحا تحت السدرة يلهثان، يحاولان أن يستدعيا اللعاب الهارب مع حبات العرق النفيس. اشتكى البدين:

ـ قلبي جف. بدأ يتيبس. قلت لك أن النزال في وضعنا انتحار.

قال النحيل بقساوة:

ـ القدر هو الذي أراد لنا أن نفترق. لا فائدة من اعتراض المصير.

البدين لم يجب. تابعا أنفاسهما المتتابعة. عاد النحيل:

ـ لماذا تستنكر الفراق؟ الفراق ينتظر كل الناس. وكوننا لم نفترق في الماضي فهذا لا يعني أننا لن نفترق أبداً.

استمرا ينزفان سائلاً أغلى من الدم. سائل النداوة والحياة.

نطق البدين ببشارة:

ـ يخيل لي أن ميزان النهار قد اختل، ونسمة بحرية ستهب من الشمال.

ولكن النحيل أجهز على البشارة بمرثية:

ـ لا يكون الصحراوي صحراوياً إذا لم يتعرض لخطر الموت عطشاً.

أراد البدين أن يواجه المرثية فغنى. روض لحناً شجنياً ولكن النبرة طغت عليها الكآبة فأخفق في إنقاذ الموقف.

نهض النحيل. قال بروح الطفولة:

ـ سأذهب.

لم يجبه البدين. لم يغير من وضع الاستلقاء. تابع الفراغ.

تحرك النحيل.

قطع مسافةً. توقف. التفت. صاح:

ـ هل قال الشيوخ أن السراب مخادع؟ أنا اقول أنه يلهو. يلعب. يستهوي، لأنه يعشق الدعابة. غنجه يخفي وعداً، ووراء قناعه اللماع يوجد دائماً أمل. لهوه بريء، صدقني!

لم يستجب البدين للنداء. استمر يراقب الفراغ، مستلقياً في ظل السدرة.

عاد يصيح:

ـ الدرويش يقول ان لون الماء من لون الإناء، فلماذا لا نفترض حسن النية ونسلم بأن لونه من لون الماء بدل رجمه بالتهم والألقاب؟

ضاع النداء الثاني في سكون الصحراء. تقدم نحو الشجرة خطوتان وقال بصوت مكسور:

ـ ألن ترافقني؟

صمت.

ـ هل نفترق حقاً؟

مع كل صيحة يزداد الصمت طغياناً وسلطاناً وجلالاً.

يئس. التفت الى الوراء وتحرك في الاتجاه المعاكس.

تابعه البدين حتى تسلمه المخادع. لعب به وقتاً، رفعه ثم حطه، مزقه وفصل رأسه عن كتفيه. جزأه إلى قطع شفافة، رهيفة، خيالية، قبل أن يبتلعه ويخفيه في حدود المجهول، في حدوده السرية. فأين رفيق السفر؟ أين صديق الطفولة؟ ماذا ستفعل يا مخادع، يا صانع المكيدة، بجسم لم يحمل إلا الطفولة، ولم يحلم إلا بالأسفار والأشعار؟ هل تجرؤ، يا متآمر، يا أناني، أن تنتزعه، وتتحايل، كي تأخذه الى الأبد؟ في الطرف الآخر؛ وراء الأفق، بدأ الآخر، المعاند الذي لم يتوقف يوماً، ولم تتوقف طفولته الأزلية عن تحريضه للمضي الى الامام، فشاء، في ذلك اليوم، أيضاً، أن ينفذ وصيتها القديمة، ويمضي الى الأمام. يطارد المخادع،

يفتش عن سر وراءه. يطلب القمر خلف الساهور. يبحث عن النار تحت ستار الدخان. الماء وراء سحابة البخار. وإلا من أين لهذه الغلالة السحرية أن تأتي إذا لم يتخبأ في مكان ما، خلفها، غدير كبير تخلف من سيل موسمي، أو تجمع إثر مطرة غزيرة من سحب عابرة؟ كيف تستطيع النار أن تتشبه بنقيضها الماء؟ كيف تسمح الصحراء أن تلعب القوى الخفية بشرعها وتقلب نظامها وتسن لها منطقاً دخيلاً، غريباً؟ كيف تجيز هذا المسلك اللئيم الذي يهدد بالخلل وقلب كل الموازين؟

أين حكمتك يا صحراءنا العجوز؟

ولكن من قال ان هذا السلوك شذوذ؟ من يجزم أنه عدوان وتخريب لطبيعة الصحراء؟ ألا يمكن أن يكون دعوة؟ ألا يقول المستهتر: تعال، اتبعني وسوف أقودك الى الغدير، أو البئر؟ ألا يكون مسخراً بدوره من العجوز لتنفيذ مشيئة أخرى، مناقضة؟ ألا يفصح مسلكه عن تحريض على الذهاب الى الأمام؟ ألا يبشر أنصار البقاء والاسترخاء بالقصاص والفاجعة؟ أي سر في تلاعب اللعوب؟ لماذا لا تريد أن تخبرني، يا صعلوك، أين خبأت الماء؟ أين خبأت الماء؟ أين؟

تتبعه حتى المساء.

ملاحقة اليوم الأول لم تسفر عن الفوز.

قطع مسافة ليلاً، وتابع المشوار في اليوم التالي. كان يترصده، يناغيه، يناجيه، مثل مدلّه مسلوب يلاحق المعشوقة اللعوب التي تتملص وتتخلص وتتحول، مبتعدة، مع كل نداء.

ثم بدأ ينهار ويفقد التوازن. ترنح وتبدت الأشياء في العتمة. حتى السراب احتجب وكف عن اللعب. ولكن القبلي تراجع وتغير مسار الريح.

ولو لم يهب البحري من الشمال لسقط. تحامل وواصل. صعد الرابية مستعيناً بيديه. هجع في غيبوبته. ما لبث أن غفا من الغيبوبة، وربما من الحلم، رأى نفسه ينهل من غدير فضي، بلون السراب، فلا يرتوي. بل كلما شرب أكثر كلما اشتد به الظمأ. ولكنه لم يتوقف عن الشرب. استيقظ مع بروز الشعاعات الأولى، ولكن النهار لم يبشر بالصهد. استطاع البحري أن ينعش الخلاء.

ولكن ذلك لم يمنع قلبه من التحجر، كما لم يبلل له ريقاً. ظل هامداً، مجهداً،

مهلهلاً. في النهاية فتح عينيه. فتحهما على الجانب الآخر، المجهول، من الرابية الجبلية. فعاد وأغمضهما. يقيناً أن الحلم يتواصل. الغيبوبة مستمرة. دعكهما بيديه. وانتزع جسده من الحجارة. كانت البحيرة تستلقي في الحضيض، أسفل الرابية، يلعب النسيم الشمالي الرحيم بصفحة مائها الذي تعتم وتكدر اثناء الجريان، فتراقص بمرح تحت الشعاعات البكر. فهم في لحظة سر البحري. أدرك أن النسيم كان الإشارة التي جاءت بخبر أمطار هطلت في الجبال الزرق فجرى الماء وجاءت السيول لتصنع له المفاجأة. الغدير. النجاة. نزل المنحدر. سقط. تدحرج. سلخته الحجارة واقتطعت لحماً من بدنه. ولكنه لم يحس. لم يع. لم يعقل. حتى دس رأسه في المستنقع البشوش. مستنقع الحياة.

حمد الآلهة وشكر السراب. وفى بالوعد، وأهداه الغدير.

ولكنه ما لبث أن فهم أن الفوز لم يكن كاملاً. نسي الزمزمية عند الشجرة فاستحال عليه التزود بالماء. ظل أسيراً بجوار المستنقع. يرابط حول الغدير ويدور كوحش محبوس، في حين تتمدد حوله صحراء الى كل الجهات، وتمتد بلا نهاية.

فهل هي مكيدة أخرى من مكائده الشريرة؟

في قيلولة اليوم التالي راقبه، عبر المدى، وهو يتغامز ويتلامز ويطلع له لساناً ساخراً.

الدار البيضاء
١٩٩١/٢/٢٨

الطريق إلى «واو»

(١)

أخيراً ظهر.

ظهر بعد أن يئس أهل الصحراء من ظهوره.

ويستطيع الحكماء والمعمّرون وحدهم، الذين ورثوا الانتظار عن أسلافهم، أن يقدّروا مدى الخسارة التي تكبدتها القبيلة بسبب غيابه وعزوفه عن الظهور كل هذا الزمان. فيروى أن الوليد الصحراوي يتلقى الوصية وهو يتقلّب في القماط، ويرث الوعد مع الهدهدات في حضن الأم، فيكبر مجبولاً على الانتظار والأمل. يتدفق الزمان كما تتدفق ألسنة السراب في الخلاء، ويجد الرّضيع نفسه يقف على الرابية، يجري في العراء، ويتفقّد الجديان. في المراعي يخلو الصّبي الى نفسه، يتوقف عن التلهي، يشاهد السماء النقية وهي تقترب من بدن الصحراء لحظة الغروب. تنزل الظلمات فيلتحم العشيقان في عناق محموم لا تفضحه الا عناقيد النجوم وهي تتغامز وتومىء بإشارات ذات معنى! يرتجف قلب الصبي ويستيقظ في جوفه نداء الأسلاف. يعتلي الرابية ويتفقد الأفق علّه يفوز برؤية القادم المنتظر. رسول الحنين الذي سيأخذ القبيلة الى الوطن السري في «واو». ولكن الضّب العجوز يعتلي أيضاً المرداة(*) كأنّه يصلي. والحكماء وحدهم يعرفون أن الضّب لا يخرج من جُحره الا ليسخر من سلالة الصحراوي الذي يجد في نفسه الجرأة ويطمع في الخلاص على يدي رسول الحنين المجهول.

(*) المرداة: الحجر الذي ينصبه الضّب علامة على جُحْره.

(٢)

ولكن الطموح في الخلاص، وانتظار الرسول الموعود لا ينتهي عند الطفولة، ولا يتوقف مع تراجع الطيش أو الصبينة، بل يشتد ويستعر مع تدفق الزمان الصحراوي. لأن للوصايا الموروثة عن الاسلاف خاصية خاصة تجعل الحلم يكبر، والشَوق يشتعل، حتى يصبح الانتظار عبادة، وتفقّد الرسول المجهول، وتسقّط اخباره، عادة. تقيم الصبايا على شرفه حفلات الاستحضار، وتدبج شاعرات القبيلة الموهوبات قصائد العشق والاستدعاء، ويرقص الفتيان في الامسيات لهفة للقائه. بل ويقع حتى الرجال المجللون بالوقار في الوجد كي يخففوا في قلوبهم شعلة الحنين الى حقيقة أكدت الأساطير أنها ستأتي، ولكنها لم تأت. استمرت طقوس الشوق والانتظار زمنا لا يعرف أحد في قبيلة الصحراء متى بدأ، ولم يتوقع أحد أن تتحقق المعجزة ويتحقق الانتصار.

(٣)

خلال هذا العمر الذي قطعه الزمان الصحراوي في تدفقه تغيّرت الصورة، وأضيفت أشياء كثيرة للاسطورة، حتى أن هيئة القادم المجهول، عندما جاء أخيراً، أصابت الكثيرين، إن لم يكن الجميع، بخيبة أمل. لم يصل الأمر الى المجاهرة بالخيبة، ولكن ليس صعبا على الخبراء بنفوس أهل الصحراء أن يقرأوا في عيونهم الدهشة الطفولية التي فاضت بها عيونهم عندما وجدوا أن رسول الخلاص، الذي انتظروه زمنا سحيقا بدأ مع الخلق نفسه، ليس طيبا في الملامح، ولا يتمتع بأية مواهب تميّزه عن باقي المخلوقات الصحراوية البائسة. بل انه في المظهر يشبه الرعاة، وفي الملامح القليلة التي تسمح العمامة بالكشف عنها، يبدو صارماً مثل الفقهاء. (هل قلت الفقهاء؟ الواقع أني تسامحت قليلاً، لأنني لم أشأ أن أتطرف فأقول ان تجهمه يماثل الوجوم الخالد المطبوع على وجوه مريدي الطريقة القادرية الذين آلوا على أنفسهم ألاّ يكفّوا عن التحديق في الآخرة). الرسول أيضا بدا وكأنه يحدّق في الآخرة، ولا يرى مخلوقا واحدا من كل الحشد الذي تجمع احتفالا بحلوله. ظلّ متجهما، حزينا، متعلقا بالأفق البعيد وهو يجلس، بجلال، على ظهر حمارته البيضاء.

كان الصبيان أول من هرع لاستقباله. مالت الشمس الوحشية الى المغيب، وتنفّست الصحراء فرحاً بالخلاص. أحاطت به فرق الصبية فرمى لهم بالحلوى، ولكنه لم يتنازل عن كبريائه، أو وجومه، أوتعلّقه بالأفق. كان يرتدي لباساً ناصعاً. مقنّع بعمامة بيضاء تكشف عن وجنتين مهيبتين، بارزتين، وأنف كبير، معقوف، ملوّح بالشمس والسّفر الطويل. فوق اللثام تكوّمت عباءة ناصعة أيضاً. ويبدو أن الشيء الوحيد الذي لم ينله السّفر هو اللباس. وقد لاحظ العقلاء أنهم لم يروا أثراً لذرّة غبار على ثيابه، وجاهروا بالأعجوبة وقالوا انها برهان آخر على أنه الرسول الإلهي المنتظر. ولو لم يكن سماوياً لما أفلت من عبث القبلي وغبار الصحراء.

بدأت مسيرة جديدة. شهدت المسيرة أول شجار. تنابز صبيّان وتشاجرا بسبب قطعة حلوى. قال الأول، وهو فتى رفيع البُنْيَة، طويل القامة، مشطور الرأس بشريط من الشّعر كعرف الدّيك:

ـ جدّي الضّب يقول ان وانتهيط(*) لن يقودنا الى الوليمة.

قال الثاني، وهو فتى أكثر بدانة، أقصر قامة، وشعره مصفف في الجهة اليمنى وحدها، وهي طريقة ابتدعها الرعاة وخصّوا بها الجدعان المصابة بالجرب:

ـ وجدّي الودّان يقول انه سيعيدنا الى «واو».

ضحك الأول وعلّق ساخراً:

ـ هذا شرك. الودّان يقع دائماً في الشرك. ولكن لا أحد ينفي أن الضبّ أحكم المخلوقات الصحراوية. هل تنفي أن الضّب حكيم؟

ـ لا أنفي أنه حكيم، ولكنك ستضطر لأن تعترف أيضاً أن الودّان وديع.

ـ ولكن وانتهيط لن يقودنا الى الوليمة في كل الأحوال.

ـ بل سيتحقق الوعد ونتخلّص من الظمأ والاسفار والجوع. سنسافر مرة واحدة الى «واو» وسنبقى هناك الى الأبد. سننعم بالوليمة.

(*) وانتهيط: صاحب الحمارة (تماهق)

قهقه الرَفيع مرة أخرى، ثم أكّد:

ـ لن يكون هناك وليمة. لن نبلغ «واو» أبداً. جدّنا الضَب يقول ان الطريق اليها مقطوع.

ـ إخرس!

عندما لاحظ الرفيع انفعال البدين ليّن من لهجته وقال بإشفاق:

ـ أنا لم أقل إلا ما قاله العجوز!

فاضت من مقلة البدين دمعة. مسحها وخاطب رفيقه:

ـ عجوزك الضَب يقول هذا لأنه يروّج لعقيدة الحقد واليأس. الودّان يقول ان كل من اختار العزلة فهو حاقد.

ـ أن تختار العزلة أهون من أن تقع في الشرك.

ـ الصحراء كلها شرك.

ـ ها أنت تعترف بأن الصحراء شرك. أراهن بقطعة حلوى أن جدك الودّان هو الذي قال ذلك. وإذا اتفقنا مع عجوزك أن الصحراء شرك فهذا يبرر العزلة ما دام الطريق الى «واو» مقطوع.

ـ إخرس!

ـ لا أمل في الوصول الى واو، ووانتهيط لن يقودنا الى الوليمة.

ـ إخرس!

بكى البدين بصوت عال، وهرع وراء الموكب.

(٤)

اقترب الموكب من المضارب فخرجت اليه النساء. رفعن ايديهن الى أفواههن وولولن بالزغاريد. كافأهن الضيف في الحال ورمى لهن بالحلي الذهبية. تلألأت قطع

المعدن اللعوب وتناثرت على الأرض الحمراء فقاتلت كل امرأة بالأظافر للاستيلاء على حصتها. في المؤخرة سارت امرأتان فاتنتان. الأولى نبيلة بيضاء والثانية خلاسية ماردة. اشتكت النبيلة من مسلك نساء القبيلة واغتابت اخريات بالاسم وهي تنتقد جشعهن ووحشيتهن في انتزاع نصيبهن من الذهب. ثم ختمت نميمتها:

- يتصرفن كنساء العبيد. تصرّفهن يشكك في كنز الوليمة.

علّقت الخلاسية:

- الكثيرون يشككون في أمر الوليمة. أنا نفسي أشك.

- هل أنت من سلالة الضّب؟

- لا أدري. ولكن جدتي تلمح الى أن جدي من أمي ينتمي الى عشيرة الضّب. ولكن شكّي لا علاقة له بالسّلالة. صدّقيني.

- لا يشكك في المسيرة إلا من انتمى لهذه العشيرة. أنت لا تعرفين ماذا يعني ألا نبلغ واو.

- جدّتي تؤكّد أن الطريق إليها مقطوع.

- ها أنت تقدّمين الدليل على الانتماء. ما أقسى الضّب! ألا يستطيع أن يكف عن ملاحقتنا ويدع لنا أملنا حتى لو كان وهماً؟

راقبت الخلاسية إمرأتان تتقاتلان بشراسة وتتنازعان سواراً ذهبيّاً كبيراً. قالت:

- سرّه في قساوته. خلوده في العزلة جرّده من اساليب التحايل وأنساه حاجة أهل الصحراء إلى العزاء. هذا ما يجعله يجهر بعدائه للرحلة فيقول ان وانتهيط أكذوبة، والوليمة شرك، والطريق الموعود إلى «واو» شرك.

قالت النبيلة بيأس:

- ولكن الصحراوي يحتاج الى بعض الكذب، الى قليل من الوهم. تخيّلي الصحراء بدون أمل في الوصول الى واو! تخيلي الصحراء بدون انتظار للوليمة

والخلاص! هل تطاق الصحراء بدون أحلام الصحراء؟

ـ الحق أن الصحراء لا تطاق بدون أحلام الصحراء.

ـ فوق بساط الوليمة سننال كل ما نشاء من مصنوعات الذَهب.

ـ الضَب يشكك في هذا أيضا.

نهرتها النبيلة بغضب:

ـ ألم نتفق بأن ننسى شكوك هذا الشيطان الذي يسكن الظلمات؟

ـ إنه يحذرنا من الخدعة، ومن الوقوع في الشرك.

ـ حقاَ ان العرق دسّاس. من قال لك أني أريد أن أنجو من الخدعة؟ من قال لك أني أنوي أن أتجنَب الشرك؟

بصقت النبيلة على الأرض غاضبة، ثم أسرعت الخطو والتحقت بالرَكب.

(٥)

انضمَ الرجال أيضا الى الموكب. فألقى لهم بالدمية التي تناسب مقام الرجال: السيوف!

سار في الوراء رجلان. بحثا عن تسلية في حوار. قال الأطول قامة:

ـ لن تكتمل رجولة الرَجل إلا بالسيَف. لن ينتزع النبيل البطولة بدون سيف.

قال الأقصر قامة بلغة غامضة:

ـ يوجد في الصحراء من وجد في نفسه الكفاءة لأن يسخر من السيف ومن البطولة نفسها.

واصل الأول موّاله عن البطولة والرجولة:

ـ لا رجولة بدون نبل، ولا نبل بدون بطولة، ولا بطولة بدون سيف. لا

يشكك في هذا الرباط إلا العبيد والجبناء.

فعاد الثاني يقول بنفس الغموض:

ـ المخلوق الذي وجد في نفسه الرجولة لأن يسخر من السيوف ومن حملة السيوف قال أن الرجولة الحقيقية هي ان يضبط الرّجل هواه ويسيطر على رغباته.

هب الأول:

ـ هراء. لن يكون الصحراوي رجلا إذا لم يعشق الحسان، ولن يعشق الحسان إذا لم يشارك في الغزوات. ولن يشارك في الغزوات إذا لم ينل سيفاً.

اعترض الاقصر قامة بنفس البرود:

ـ هذه عناصر لا تنفع في «واو». هذه عناصر لا معنى لها بالنسبة لمن نوى أن يركن الى «واو» ويجعل من مقامها نهاية المطاف.

ـ للنبل معنى في كل مكان. للفروسية والرجولة والبطولة معانٍ حتى في «واو».

ـ أخشى أن هناك لن ينفع غيرِ التسليم.

ـ التسليم؟

ثم توقف. التفت الى رفيقه القصير. تفحّصه تحت لثامه كأنه يكتشفه لأول مرة. هتف كأنه اكتشف قارة:

ـ ها.. لقد فهمت. أنت من أنصار الضّب. لا مكان لمريدي المسخ في مسيرة الله. إذهب من هنا.

جرّد سيفه وهجم عليه.

(٦)

جاء دور الشيوخ.

مشوا في آخر الطابور. بعضهم حرص أن يرتدي اللباس الأزرق احتفاء

بالمناسبة، واكتفى الفريق الآخر باللباس الأبيض ليس زهداً في الشعائر ولكن لأن المفاجأة لم تتح لهم الفرصة كي يبالغوا في الطقوس. وحتى الذين مشوا وراء الركب باللباس الجليل كانوا من فئة المعمرين الذين تحصّنوا بثياب الفرح تحسبا للميعاد وانتظارا لهذا اليوم المهيب الذي انتظروه، من خلال الأسلاف، منذ الأزل. في آخر الطابور سار أحد هؤلاء المعمرين الذين ناهزوا المائة أو تجاوزوها بقليل. لم يكن مقوّس الظهر، ولكن أنفاسه المتلاحقة، اللاهثة، هي التي فضحته وأومأت للجميع بأن لهفته في ملاحقة وانتهيط ما هي إلا يأس من الحياة ودنو من الهاوية.

اقترب من المعمر اللاهث شيخ آخر. رفيع القامة، قوي البُنْية، واثق الانفاس. خاطب المعمّر:

ـ لا أعرف ما الذي يحمّل شيخ مثلك ويجعل منه عضوا في موكب الرعاع.

أجاب المعمّر وقد ازدادت انفاسه تلاحقا:

ـ وهل يطمع الصحراوي بفوز يعادل الوصول الى «واو»؟

ـ هل أنت على يقين أيضا أن وانتهيط يسير في الطريق الى واو؟

ـ إلى أين يمكن أن يسير وانتهيط؟

ـ ثمة من يشكك في ذلك!

سكت المعمّر لحظة. شحن صدره بالهواء. قال:

ـ لا يشكك في هذا الأمر سوى الضّب واتباعه. الضّب يشكك في كل شيء لأنه مخلوق كريه وحاقد.

ـ البعض يقول انه زاهد.

قال المعمّر متعجبا:

ـ لا يرى فرقا بين الزّاهد والحاقد إلا البلهاء المخدوعين بفلسفة الضّب الداعية لقطع الأمل والاعتصام برؤوس الحجارة.

أخفى الشيخ الرفيع ابتسامة خبيثة بطرف اللثام قبل أن يواصل الحوار:

- ما يدهشني ليس لهاث الحكماء أمثالك وراء شبح مجهول الهوية والأصل، ولكن ماذا يمكن أن يجنيه شيخ وقور مثلك في واحة بعيدة، موعودة، مستحيلة، مثل واو؟.

احتجّ المعمَر:

- وماذا يمكن أن يجنيه أمثالي غير السكينة والحكمة؟

ضحك الرفيع. قال بلهجة مازحة:

- السكينة والحكمة؟ فيما يتعلّق بالسكينة أظن أنك لن تجدها في واو، ولا في أي مكان إذا لم تجدها في الصحراء الخالدة. أما الحكمة فاللهم أجرنا.

سأل المعمر:

- وما الاعتراض على الحكمة أيضا؟ هل اضطر أن أرد على تجديف الضّب حتى وأنا أسير في الحرم؟

ضحك الرفيع مرّة أخرى. قال:

- يقتل الصحراوي نفسه في شبابه جريا وراء العشق والنساء، ويقتل نفسه في شيخوخته جريا وراء الحكمة.

- لا يجد ذريعة للاعتراض على الحكمة إلاّ الضّب، فهل أنت من اتباعه. أم أنك من سلالته؟

ولكن الرفيع واصل كأنه لم ينتبه لمعارضة المعمّر الجليل:

- أنا لا أرى حكمة أعظم من تسليم زمام الأمر للصحراء. يوقظني النسيم البحري في الفجر البكر. أشاهد انفصال جسد السماء عن جسد معشوقته الصحراء. من الانفصال الخجول يولد الضوء البتول. فتغني العصافير موّال الميلاد والفرح. أغني معها حتى تكبر المفاجأة وتتحول، بأشعة الشمس، إلى نهار. انزل الوادي واستنشق أعذب عطر في زهرة الرّتم. أسكر. يمتلىء صدري بوجْد ينافس وجْد دراويش الزاوية القادرية. أجذب وأرقص وأهرع الى السهل فتكتشف لي الصحراء عن صدرها وتعطيني كنزها. كنزها الحقيقي وليس كنز التبر المزيف،

المشؤوم. تخرج لي من القُلاع ترفاسة مصنوعة من سحر ربيّ. في الليل أتوسّد يدي فيهدهدني القمر ويمسح على جبيني نسيم المساء الشمالي فتنتظم أنفاسي وأنسحب من بدني وألتحق بالله. أظلّ هناك حتى فجر اليوم التالي. فهل يستطيع شيخنا الجليل أن يجد في واو أحكم من هذه الشريعة؟ بل هل يشك شيخنا أن هذه هي «واو» الحقيقية وليس «واو» الوهم التي يسعى إليها البلهاء؟

توقّف المعمّر لاهثاً. جحظت عيناه. لمعت مقلتاه بالغضب:

ـ هل أنت من أتباع الضّب؟ هل أرسلك الكريه لتفسد رحلتنا؟

أشاح عنه بوجهه وتحرّك خلف الركب.

(٧)

مضى الموكب الجليل يشق الصحراء الأبدية. يقطع السهول اللانهائية ويصعد الروابي العارية والجبال المسلّحة بحجارة لها مخالب الوحوش. ينزل السفوح المفروشة بالحصى والتربة الرمادية، أو يسلك الوديان الجدباء القاسية، الممتدة الى الأبد. تساقطت القرابين والضحايا ولكن السعي المقدّس استمر.

ولكن الرحلة لم تتواصل في المكان وحده، ولكنها استمرت في قرينه الزمان. تدفقت الأيام كالسراب الصحراوي اللعوب، وتملّص الزمان المراوغ من قبضة البؤساء. وعندما يفلت زمام الزمان ويقرر أن يتولى قيادة المسيرة فإنه قادر أن يضع السعاة في خانة أخرى. في واو أخرى. هلكت قبيلة الصحراء، قبل أن تبلغ واو الميعاد، ولكن وانتهيط المهيب واصل مسيرته المدهشة، ومضى يشق الأفق.

فوق قمم الجبال الزرق، عند مرداة الحجر، راقبه الضّب بحزن. فاضت من عينه دمعة شفقة على مصير القبيلة.

ليماسول (قبرص)
١٩٩١/٣/٣٠

رواية أخرى لسيرة وانتهيط

عندما تخلّص من ألسنة السّراب، وتبدّى للقبيلة، استقبلته الحسان بالزغاريد، وهرع إليه الصبيان وهتفوا بحياته طويلاً. خرج الشيوخ من مخابئهم، ولكن اكتفوا بالفرجة لأن الحياء منعهم من الذهاب لمعانقته.

نحروا له الذبائح. غنّوا على شرفه ورقصوا.

لم تسعهم الصحراء الكبرى من الفرح، كما أعجزتهم الحيلة في أن يعبّروا له عن هذا الفرح. في هزيع الليل الأوسط غلب النوم الصبيان وهجع النجع. زحف إليه الشيوخ وأحاطوا به.

قال الزعيم:

ـ الآن حان الوقت كي تخبرنا بما انتظرناه طوال الحياة، كما انتظره آباؤنا وأجدادنا وأجداد أجدادنا من قبلنا.

تبادل نظرة مع شيوخ بقية العشائر فهزّوا له عماماتهم علامة الموافقة. اضاف الزعيم:

ـ أجبنا عن السؤال الذي حرقنا دائماً: من نحن؟ من أين جئنا؟ وإلى أين جئنا؟ وإلى أين ينتهي بنا عندما نخرج من هذه الصحراء؟ اجبنا بالله وأطفىء في قلوبنا الحريق! أحكم الضيف لثامه حول أنفه. هزّ عمامته البيضاء الى اليمين ثم الى اليسار. تناول عوداً وحفر به رموزاً غامضة على التراب. تعلقت أبصار الشيوخ به. حاول كل شيخ في الجمع ألاّ يفوّت أي حركة تصدر عن الرسول الذي نزل أخيراً بعد أن انتظروه طويلاً، طويلاً، طويلاً. والأساطير التي رواها الأسلاف عن

هذا الانتظار هو ما أجّج شراهتهم وأيقظ فيهم جشعاً لأن يحفروا في الذاكرة كل حركة تأتي بها أطرافه وكل كلمة تنطق بها شفتيه.

طال صمته فتوصل الزعيم:

- لا تقل أن أصلنا من الودّان والضّب وطواويس الأدغال. لا ترجّع أصول القبائل الى عشائر الحيوان فهذا ما عرفناه قديماً ومللناه وملأ قلوبنا بالشّك واليأس. نحن نريد الحقيقة. نريد شيئاً آخر. الأصل الأوّل.

في النهاية تكلّم وانتهيط، قال بوقار وسكينة خصّ بها المولى أولياءه وحدهم:

- عليكم أن تتحملوا الشقاء إذا أردتم أن تعرفوا.

أجابت أصوات في فضول جماعي:

- لم نفهم.

قال الرسول السماوي بعد لحظة سكوت:

- إذا أردتم أن تفهموا عليكم أن تعرفوا، وإذا أردتم أن تعرفوا فعليكم أن تشقوا وإذا قبلتم الشقاء طريقا فعليكم أن تتبعوني.

فسألوا بصوت طفولي. فضولي. جماعي، مرة أخرى:

- إلى أين؟

أجاب الضيف المهيب بعد سكوت أطول:

- إلى الحقيقة.

استفهم الزعيم بلهجة شكّ:

- إلى واو؟

ثم ابتسم بطفولة واعتدل في جلسته، ثم أضاف:

- لا شك أن أوان السفر الى واو قد حان. الحقيقة في واو. وكلنا نعرف ذلك.

ولكن الضيف الجليل لم يعلّق على ملاحظته. تنقّل ببصره بين وجوههم. تفحّص عيونهم. في عينيه لمع وميض خفي.

تكلّم أحد الشيوخ باستفسار:

ـ متى نتوكل؟

هنا ومض تصميم المهاجرين الأبديين في عيني الضيف. تصميم تلك الفئة من المخلوقات التي لم تعرفٍ سوى السفر، ولم تجد سعادة إلا في السفر. السفر هو حريتها وحقيقة حياتها. قال المهاجر:

ـ غداً. خير البرّ عاجله.

سرت همهمة بين الجماعة. رفع اليه الزعيم سؤالاً خجولاً:

ـ وهل تتطلب معرفة الأصل أن نذهب جميعاً؟ أقصد الأطفال والنساء والشيوخ.

رد الضيف مقاطعاً، مستنكراً:

ـ وهل تتوقع أن تفوز بالمعرفة بسهولة؟ عليكم أن تشقوا جميعاً إذا أردتم أن تقفوا على الحقيقة جميعاً.

ردّد الشيوخ بتسليم:

ـ قبلنا. نحن على استعداد أن نهلك جميعاً في سبيل أن نطفىء الحريق ونجيب على أقدم سؤال في الصحراء.

في الصباح تحركت القافلة.

ساد الهرج طويلاً قبل أن ينطلق الموكب.

تقدمه الرسول السماوي على حمارته البيضاء. خلفه سارت الجموع.

امتدّت الصحراء. فوق العراء ركض سراب لعوب. تمدّدت المسافات. توالدت الخلوات. هدّد الأفق برحلة أبديّة. بكت الجنيّات في كهوف السلسلة الجبليّة الزرقاء. ناحت الحوريات في القمم ونعت النسل والأصل. مشى وراء القبيلة

عجائز الودّان، كما تبعتها جموع الذئاب والغزلان. فوق رأس المرداة فزّت من عين الضّب دمعة كبيرة، ولكنه لم يتحرّك خطوة واحدة وراء القافلة.

في المكان المعلوم توقف وانتهيط. ترجّل عن الحمارة البيضاء وتجوّل في المكان. نزل المرتفع وتفقّد قطعة أرض موحشة، رمادية، سودتها الشمس أو البراكين وربما الرّماد المتخلّف عن قبائل الأسلاف، تقع بين مرتفعين جليلين. في سفوح المرتفعين تبعثرت قبور الأوّلين المستديرة، المغطاة بألواح مصقولة من الحجارة. أمر الرسول أن تنحر الذبائح في السهل المخنوق بين المرتفعين، على أن تُسقى المقابر بدم الأضاحي. ثم أشرف بنفسه على إعداد بساط عجمي مهيب على طول السّهل. قال: «هنا نقيم وليمة القُرْبى». لم يفهم أحد، ولكن الطريق الى الفهم يمرّ عبر المعرفة، والمعرفة تمر عبر الشقاء. والشقاء ثمن الحقيقة. والحقيقة ما زالت بعيدة، لأن الطريق إليها لم يبدأ بعد. جمعهم الرسول فوق البساط. وقرأ على رؤوسهم تعاويذ مجوسية (أو ربما سماوية) لم يسمعوا بمثلها من قبل. ثم رفع رأسه الى السماء وسأل بصوت غاضب:

- من منكم يريد الحقيقة؟ من منكم أراد أن يعرف الأصل من الفصل؟

فأجابه السّهل كلّه:

- نحن يا مولانا. كلنا نريد الحقيقة يا مولانا. كلنا على استعداد ان نضحّي بالفصل إذا كان ذلك ثمنا ضروريا لمعرفة الأصل.

إنهار وانتهيط فجأة وركع على ركبتيه. قال بعينين جاحظتين:

- اعلموا إذن أن الأصل هنا! هنا! هنا!

كان يضرب الأرض بقبضته وهو يهتف: «هنا. هنا. هنا». ولم يفق القوم من دهشتهم حتى وجدوا الرسول يقفز جانبا ويسحب البساط العجمي من تحتهم. تزلزلت الصحراء. قعقعت السماء. انهار الجبل البعيد. فتحت الأرض فماً مظلماً، بشعاً، جشعاً. و... ابتلعت القبيلة. تقاطروا في الهاوية في رحلة العودة الى الأصل، ووقف الرسول يقهقه كالمجنون. ردّدت الصحراء قهقهته الشيطانية، المهيبة.

موسكو

١٤/٤/١٩٩١م

الحوار بمنطق العناصر الكونيّة

بدأت الخصومة عندما اكتشف الحجر في نفسه ميولاً للكَسَاحَة. طاف الصحراء مبشّراً الكائنات:

ـ لم أجد في الصحراء عنصراً أقدر على البقاء مني. فارهنوا وصاياكم في قلبي إذا أردتم أن تبلغوها للأجيال. إزبروا أسراركم في صدري، فليس في الصحراء غيره يحفظ الأسرار. لم أجد في طريقي عنصراً يفوقني قوة ولا خلوداً. سمعه القبلي(*) فنقل النداء للزمان. غضب العجوز وصاح بالحجر:

ـ بلغني أنك تتطاول وتدّعي لك نصيباً في الأبدية. إعلم أنها حكر عليَّ وحدي. فأنا من لم يبدأ ولن ينتهي. خَلَقَ ولم يُخلق، ولَد ولم يولد. فَعَلَ ولم ينفعل، يصيّر ولا يَصيرُ. يتحدّى ولا يتحدّاه شيء. خالد وكل ما سواي الى فناء يسير.

نازعه الحجر:

ـ حتى أنا؟

قال الزمان بثبات يميّز الخالدين:

ـ بما في ذلك أنت!

أخذ الحجر العجب، واستغرب في أمر الخبر، فقال باستكبار:

(*) القبلي: الريح الموسمية الجنوبية في الصحراء الكبرى.

ـ عجبا سمعت. لم أجد في الصحراء عنصراً واحداً يفوقني كساحة أو صلابة.

ـ إياك والغرور! فهناك الماء!

ـ الماء؟

ـ إياك والغرور: فهناك النّار!

زادت دهشة الحجر وتضاعفت مباهاته واعتزازه بنفسه. فخاطب الحكيم قائلاً:

ـ لم أشك يوما في حكمتك، ولكن ما تقوله اليوم يثير عجبي يا صديقي الزّمان: فهل تظن أن الماء السلسبيل، السّلس، المائع، يمكن أن يفوقني قوة؟

قال الخصم بثقة الحكماء:

ـ أجل. الانسياب والهدوء والميوعة التي تعتبرها فيه ضعفا هي من أسباب قوته.

ـ عجيب!

ـ أما أنا فلا أعجب إلا لمغرور يدّعي الكساحة في حضرة الزّمان.

تجاهل الحجر التحذير وقفز لأمر النّار:

ـ والنار؟ أعترف أن لها لسانا شرها كلسان الحيّة. ولكنه ليس بالسلاح الذي يصلح للقضاء على صلادة الحجر.

ـ بل يفتته الى هباء كنقيضه الماء.

لم يتمالك الحجر المكابر نفسه فقهقه عاليا حتى رددت الصحراء الصّدى. ثم قال:

ـ وماذا لديك أيضا يصلح لفنائي؟

فقال الزمان بيقين المعمرين القدماء:

ـ لديّ شعاع الشمس أيضاً.

ـ الشمس؟

عاد يقهقه بطريقته الاستفزازية الكريهة، ثم أوضح:

ـ إنها تسطع فوق رأسي منذ زمن تعجز ذاكرتي الضعيفة عن حفظه دون أن تؤثر في قواي.

ـ أثّرت في قواك العقلية. ألم تعترف منذ قليل بضعف الذاكرة؟

ـ ها ـ ها ـ ها.. بل هذا دليل على خلودي. الخالد هو من يبلغ عمراً لا يستطيع فيه أن يتذكّر يوم مولده.

قاطعه الحكيم:

ـ وأخيراً هناك غول كل العناصر في الصحراء. الغول الذي لولاه لما أصبحت الصحراء صحراء: الريح!

ـ الريح؟

ـ رسولي الجنوبي، المسمّى القبلي. له مواهب خاصّة. يسير بتدبيري ومساعدتي وتسخيري، فلا يغلبه غالب. فهل تجاهر بالخصومة وتقبل التحدّي؟

بعد أن انتهى الحجر الجبلي من قهقهته الكريهة أعلن:

ـ أقبلْ. ولم لا أقبل ولم أر في الصحراء عنصراً أصلب مني ولا أكسح؟ كما لا أستطيع أن أقيم وزناً للعناصر الخفيّة دون أن أُتهم بالجبن.

بدأ زمان التحولات بوحدة القياس الفلكي.

بدأ الزمان حربه بالماء فلحس السائل السري، المائع، خشونة الحجر المكابر، وشذب فيه النتوءات والاسنان والمخالب، حتى جرّده من الاسلحة والاعضاء، فأصبح أملس بمساعدة من الزمان وحده. ثم زلزلت الصحراء زلزالها وتفجر الجوف بالبركان. تحوّل المكابر في البداية الى قطعة تصلى في النار الموقدة ثم انتقلت الى درجة أخرى وتحولت الى فحم بالبرودة. تحلّل الحجر في الداخل ولكنه احتفظ بالتماسك الخارجي. هنا جاء دور الشمس فسلّطت عليه شعاعاً أبدياً مستعاراً من الجحيم. ظلّ يتلوّى ويتشكّى ولكن العذاب استمرّ.

في المرحلة الرابعة، الأخيرة، جاء دور القِبْلي. هبَّ من الجنوب البعيد، وظلَّ يعصف ليل نهار لأمد لا يقاس إلا بالوحدة الفلكية. وداوم، طوال الغزو، على صفع وجه الحجر بحبيبات رملية قاسية حتى تفتّت وانهار. ذابت الصلابة. تحطمت الكَسَاحَة. تحلّل الكبرياء وتحول الى باطل في قبض الريح. هنا خاطب الزمان الهباء:

- قلت لك أن صلابة الرأس ليست دليلاً على الشجاعة. فما رأي المكابر؟

قالت عناصر الحجر التي غابت في ذَرات الغبار؛ ضائعة في المتاهة العدمية:

- آمنت أن العنصر كلما خفي وصغُر كلما كان أقوى وأقدر!

الدار البيضاء
١٩٩١/٣/٢

محتويات الكتاب

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر.

تاسيلي للنشر والاعلام

في ديوان النثر البري يستبطن ابراهيم الكوني الصحراء. يهبّ مع رياحها ويمطر مع أمطارها وينبع مع مياهها.

ينسرب مع رمالها ويدخل جحورها ليتناجى مع أصغر كائناتها. ينام في كهوفها ويرسم لوحاته ورموزه متواصلاً مع أسلاف عجيبين.

قصص تتخلل العناصر ومشاعر الأشياء والكائنات. هو إذن أدب يؤنسن ويُروْحن الطبيعة والكون، ومن هنا طابع الإشراق والصوفية فيه، بأسلوب يفتح النص ويُشْرع ألغاز الإنسان المعاصر ومخاوفه على رياح الأسطورة.

يتنكّب ابراهيم الكوني مهمة تنقية روح الإنسان من عجرفتها ووحشيتها من خلال استقراء التفاصيل الصحراوية ناثراً فكره البريّ، سائراً مع أبطاله حيث يسيرون ولو إلى المتاهة.

تاسيلي للنشر والاعلام

دار التنوير للطباعة والنشر